J A D A L

حذيفة العرجي

Telegram:@mbooks90

سجلات الشر

جرائم النـوم واليقظة

رواية

منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

Scanned with CamScanner

سجلات الشر

حذيفة العرجي

الطبعة الأولى: سبتمبر 2024
تصميم الغلاف: @Souhaib_design
ISBN: 978-9921-774-30-6

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر©
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أمانًا.

منشورات جدل©
JADAL PUBLISHING

دولة الكويت
المملكة العربية السعودية
جمهورية مصر العربية

(+965) 99900912
(+966) 554658820
WWW.JADALBOOKSTORE.COM
JADAL.PUBLISHING
JADALBOOKSTORE

Scanned with CamScanner

الإهداء

إلى عماد ليلى..

نيابةً عن بحور الشّعر العربيّ

أُقدم إليك هذا البحر

حيث لا وزن، ولا قافية..

غرقٌ حرّا!

Scanned with CamScanner

«تنويه»

الأحداث في هذه الرواية لا تمتُّ إلى الواقع بصلة..

تمتُّ له بصِلاتٍ عديدة!

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيا بـ CamScanner

وفي يقظتي والمنام..

يُفتشني الحزنُ في كلّ ليلٍ

فماذا يُفتش هذا الغرابُ الغبيّ

بهذا الحُطام!

مظفر النوّاب

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيًا بـ CamScanner

1

في الصباح التالي لحلمه العجيب، بدأ النهوض ببطء.. لم تكن الشمس اكتمل ظهورها بعد، إلا أن غرفته كانت مضاءة بواسطة الشمعدانات الموزعة في كل مكان.

انتقى ملابسه الفاخرة بعناية كما هي عادته، اختار قميصًا أبيضًا مطرزًا بخيوط ذهبية، وله أكمام من الحرير التايلنديّ العريق، ثمّ قام بوضع ربطة العنق الخضراء اللامعة بحرفية متناهية تُشعرك وأنت تنظر إليه أنّ يدهُ تحفظ عن ظهر قلب كلّ خطواته الصباحيّة في ارتداء ثيابه، كان سريعًا هذا الصباح أكثر من أي مرّة سابقة، ضبط أزرار الجاكيت الأسود الذي ارتداه على عجل وبعناية شديدة أيضًا.

لم يفكر حتى للحظة في تناول قهوته اليومية، بدلًا من ذلك اندفع إلى المطبخ

Telegram:@mbooks90

تبدو على وجهه تعابير متباينة، سكب الماء بعجلة من إبريقه الفضي في كأس من الكرتون، ووضع ملعقة عسل، حركها ويده ترتجف بغير إرادة منه، كان يعلم أن هناك شيئًا غامضًا ينتظره.

لم يستطع تجاهل احتمال أن يكون هناك تطابق بين حلمه والواقع، قرر دون تردد أو سماح للفكرة التي في رأسه أن تأخذ حقها من الأخذ والرد، قرر أن يزور ذلك المكان في الواقع، مجرد تجربة ليتأكد من سطحية وسذاجة هذا الاحتمال.

بأنفاس متقطعة انطلق بسيارته الحديثة عبر الصباح المليء بالغيوم والرياح، تبدو شوارع اسطنبول الباردة من حوله قلقة هي الأخرى، ومكتظّة بالسيارات التي اختلفت وجهاتها، وعلى طول الطريق لم تتوقف تفاصيل حلمه الغريب الذي دفعه نحو هذا المكان عن المرور أمام عينيه والالتفاف حول عنقه، مما دفعه إلى فتح زر قميصه ونزع ربطة العنق.

وصل أخيرًا إلى الموقع، ليجد نفسه وسط جمهور من المارة ورجال الشرطة، الجريمة التي شهدها في منامه البارحة، قد حدثت بالفعل! والأعجب من ذلك أنّها حصلت بحذافيرها، تمامًا كما رآها.

لحظات من الصدمة والذهول، شعر زياد بجسده يتمايل في مكانه، انتابه بعض

Scanned with CamScanner

الدوار يرافقه عجز واضح في قدميه، ها هو الكابوس بشحمه ولحمه يقفُ الآن أمامه!

أخذ يدقق في وجه القتيلة، هي نفسها، فأين ابنتها ذات الأعوام الأربعة؟ نعم، إنها في سيارة الشرطة، اقترب قليلًا، إنها هي أيضًا!

بينما رجال الشرطة يجرون تحقيقاتهم الأوليّة، ويسألون الجيران وبعض الموجودين في مكان الحادث، كانت نظرات الدهشة من حوله، وكلمات الاستغراب والتساؤلات تملأ الهواء.

في خضمّ هذا الهمس وهذه الأجواء، كان هذا الرجل يعيش لحظات من الانعزال العميق، حيث ترتفع أصوات الخوف والخيبة في ذهنه، وتسير الأحداث من حوله ببطء شديد، لم يشعر بنفسه إلا وهو في بيته مرّةً أخرى، كيف عاد؟ وأيّ الطرق قد سلك في عودته؟ لا يعرف من ذلك شيئًا.

وحيدًا في غرفته، وليس في رأسه إلا: أنا القاتل في المنام، فمن القاتل في الحقيقة؟

شعوره بالذهول والارتباك لم يكن في مواجهة الشرطة وأسئلتهم فحسب، بل تسلل في تفاصيل دقيقة جدًا، وخيالات لم تتوقف عن الدوران في عقله، وفي هذا الزمن المعلّق بين الواقع والخيال، وبين أصداء التحقيقات الرسمية، وهمسات الناس المليئة بالشُّبهات والتُّهم، كانت اللحظات تمضي ببطء شديد، والزمن يعبرُ بلهوٍ وخجل، وكان زياد معلّقًا حيث اختلطت الأمور بشكل لا يُمكن فهمه، وأصبح رأسهُ عبارة عن استفساراتٍ ضبابية لا نهائية لهذه الجريمة، وفي الوقت نفسه، أخذت تدور في رأسه ذكرياتٌ لم يكن هذا وقتها! ما هذا الجنون؟ شعر وكأنه في حالة ثنائية، يعيش في الواقع وفي عالم مختلف من خياله، تملكته الشكوك حول حقيقته وما إذا كان لا يزال يحافظ على وجدانه، وسيطرت عليه للحظات أفكار الندم، كأنه هو القاتل فعلًا.

بادر بأخذ نفس عميق.. في محاولة لاستعادة كيانه المفقود، ولملمة حواسهِ من هذه الفوضى الداخلية القاتلة، وبالرغم من أنه لم يستطع الهروب تمامًا من أفكاره، إلا

Scanned with CamScanner

أنه استجمع قواه، وغادر المكان.

هذا هو البيت، وأخيرًا.. دخل بخطواته الثقيلة، ولم ينس أن يعبث بمفاتيح الباب قليلًا قبل أن يدخل! إحدى عاداته الطفولية الغريبة.. كانت الأشياءُ صامتةً هادئة، هذه هي غرفته وهذا هو سريره، وبدون تفكير ألقى بجسده المنهك دون أن يكلف نفسه عناء إغلاق الستائر، سامحاً بذلك لأشعة الشمس أن ترسم لمحةً من الدفء على وجهه البارد، سحب هاتفه من جيبه، قام بفتح تطبيق واتساب، وأرسل لحبيبته مقترحًا أن يلتقيا مساءً لتناول العشاء، أتت ردودهما سريعةً، حيث وافقت ريما بغير تردد، واقترحت مكانًا للقاء..

قبل أربع سنوات، رآها للمرة الأولى، تلك اللحظة الخاطفة التي لا يأبه لها المرء أول الأمر، ثمّ ما تلبث أن تجعله رمادًا، من أجل ماذا؟ من أجل أن تقدح شرارةً لعلاقةٍ تدوم، ولو افترق الطرفان! لم يكونا إذ ذاك محظوظين بلقاء مثير على عادة الأفلام والروايات الشرقية، ولم يكن يوجد من مظاهر الحبّ وبواعثه في ذلك اليوم إلا الجوّ الممطر، لقاءٌ عابرٌ إذن.. أليس هذا أحدُ طباع القدر حين يخبئ المزيد من المغامرات المدهشة؟

لم تكن جميلة بقدر ما كانت جذّابة، والجاذبيّة في المرأة أهمّ من الجمال، فيُمكن مثلًا لشعرها البني الغامق والذي اتخذ من كتفيها نهرين ليتموّج فوقهما كيفما اتفق، يُمكن له بكل بساطة أن يغرقك! ويُمكن لعينيها الصغيرتين بلا رموش طويلة أن تعرقل مسيرة عينيك لأيّ أنثى أخرى مهما كانت جميلة، وبالرغم من جمالها المتواضع بشكلٍ عام، وعدم اكتراثها بمستحضرات التجميل، كانت قادرةً على ترك بصمتها في قلب أيّ رجُلٍ شاءت، صحيح أنها امرأة بسيطة في طريقتها، ولكنها معبرة للغاية القصوى في تصرفاتها، وتنعكس هذه الروح النقية في كلماتها اللطيفة وتصرفاتها الصادقة، فهي تمتلك توازنًا مثاليًا بين القوة والرقة، كما أنها تتحلى بسحر لا يُضاهى حين تنهال عليك كلماتها كالأمواج الهادرة، وحين تغمرك بدفء الشمس وروعة الغروب، مما يجعل قلبك يرقص بانسجام مع إيقاعها الساحر دون أن يملك نفسه، وحين ينطلق لسانها بشيءٍ من الكلام، يأخذك صوتها إلى عالمٍ لا وجود له في

Scanned with CamScanner
CamScanner

الواقع، حيث يسود السلام والحب لتؤمن - وبدون أدلّة - بأنّ السعادة المطلقة ليست وهمًا! أمّا قدراتها.. فأعظم ما تتحلى به شخصيتها، هو أنها مصدر إلهام دائم لكل من يعرفها، متألقة بما مُنحت من الحكمة والأناة، ولها ثقة في نفسها نستطيع أن نقول أنها متوازنة، وقد تكون ثقة عمياء في مواقف قليلة، مما سبب لها الوقوع في بعض الأخطاء والمبالغات، ولا ننسى أنها ذات ذكاء عاطفي نادر، مما يمنحها القدرة على إدارة المواقف شديدة الحساسية ببراعة، ومع هذا الكمال كلّه.. لابد من بعض النقص، فهي في النهاية بشر منَ البشر، ولا مفرّ من بعض الصفات التي لا يخلو منها أحد، وفي مطلعها العناد والتمسك غير المنطقي غالبًا برؤيتها الخاصة للأمور، وفي بعض الأحيان، تختلط الأفكار في عقلها وتغلبها حالة من الانطوائية، فتغلق باب قلبها عن الآخرين، وتغوص في هالةٍ سوداء وعميقة من الأفكار والمشاعر الغريبة، الأمر الذي يجعلها تبدو كأنها جزيرة بعيدة ونائية، وعلى الرغم من سحرها وجاذبيتها الطبيعية، إلا أن زخم غضبها السريع يمكن أن يُظلل سماءها الزرقاء بغيوم سوداء، تخفي وراءها ضوءها الساطع وتجعلها تبدو ككوكب مُظلم ومُحمّل بالغموض والتقلبات المزاجية، أو كالرياح التي تتلاطم على سفح جبل من الجبال، مما يخفي جوهرها الحقيقي في بعض المرات، ويضعها في مرمى الشك والتأمل المستمر.. تتأرجح ريما إذن بين لحظات الغضب والسكون، ومع ذلك يبقى جمالها الروحيّ محافظًا على سحره الفاتن وأنواره اللامعة، لتكون كاللؤلؤة، يتلألأ بريقها بين الظلام والنور، ولتكون شخصية متعددة الأبعاد مفهومة ومعقدة.

أمّا زياد فالحديث عنه يعني أننا ندخل عالمًا معقدًا من التناقضات والجوانب المتعارضة في شخصيته، فهو شخصية مميزة بمزيج فريد من الصفات التي تجعلها مثيرة للاهتمام، ومليئة بالتنوع، بغض النظر عن طبيعة هذا التنوّع، فهو بحق رجل الثنائيات، بدءًا من شجاعته المُفرطة إلى حساسيته الشديدة، ومن ذكائه الحادّ إلى بساطته في التعبير والتعامل مع الأحداث، ولو أردنا إجمال الوصف فيه لوجدنا أنه يجمع بين النقيضين دائماً، في القوة والضعف، الثقة والشك، الحنان والصرامة، ولكنه يفتقد للتناقض في حالة واحدة، وهي سرعة اتخاذ القرار، فهو شخصيّة لا تعرف التردد أبدًا، إذا قرر شيئًا فعله فورًا، وليس من عادته أن يستشير أحدًا، إنه يؤمنُ

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةئوضم

بحدسه، ولا يحتاج عند اتخاذ القرار لأكثر من دقيقتين تمر فيهما الفكرة على عقله ليمضي فيه، فيمكننا بالمعنى العام أن نقول عنه إنه رجل أهوج، وهذا الطبع كما تسبب له بمشاكل كثيرة، انتفع منه في بعض الجوانب التي لا تخلو منها حياة إنسان، تلك الجوانب التي تحتاج من أحدنا قرارًا جريئًا وعاجلًا.

أيضًا.. لا يخلو زياد من الطموحات السلطوية وحب التحكم بالآخرين، ولذا كانت رؤيته للسلطة تتجلى في محاولاته الدؤوبة للصعود إلى القمة، ليكون المركز الرئيسي الذي يحكم من خلاله مصير جماعة من البشر، ويشكل مسار تاريخهم وفق ما يُحب.. وسواءً بسبب عوامل خارجة عن إرادته أو بسبب تفضيلاته الشخصية وأسلوب حياته الخاص، أمضى زياد فترةً طويلةً من حياته دون أن يكون لديه صديق مقرب، وفي أساس تكوينه يترك زياد دائمًا مسافة آمنة بينه وبين الآخرين، لذلك هو يفتقر إلى تلك العلاقات العميقة التي تتسم بالتبادل الصادق والمشاركة الحقيقية في الحياة اليومية، أضف إلى ذلك بعض عادات زياد الغريبة، والتي كانت بلا شك محورًا مثيرًا للاهتمام في حياته، وإحدى أغرب العادات التي تسيطر عليه، كانت اهتمامه الشديد بالأصوات، فقد كان يتأمل في الأصوات اليومية من حوله ويحاول فك طلاسمها وفهم ما تخبره عن البيئة المحيطة به، وعلى رأسها أصوات البشر، فهو يحاول اكتشاف شخصية مَن يتحدث من خلال صوته أولًا، ولا يقف الأمر عليهم بل على كل مصادر الأصوات، منها أنه كان يستمتع بسماع صوت الرياح وهو يلتحم بالأشجار، وكان يؤمن بأن كل صوت له قصة وبأنه - بالضرورة - يُخفي شيئًا ما، لا تكمن الغرابة في هذه العادة بقدر ما تكمن في التناقض الفظ بين هذا الاهتمام وبين إهماله الأصوات الجميلة، فلم يكن الجمال هو الذي يلفته في الصوت، إنما الغرابة، إنه يهتم بالصوت الغريب وحسب.

وبالنظر إلى هيئته فله قامة طويلة متناسقة تضفي عليه طابعًا أنيقًا وجذابًا.. الثقة والسطوة أبرز ما يتبادر لذهن مَن ينظر إليه للمرة الأولى، عينانِ بنيّتان، لامعتان وواسعتان بما يكفي لعكس العمق في شخصيته، وإظهار قدرته على فهم الأمور بحنكة، مما يجعلهما محط جذب لأولئك الذين يلتقونه للمرة الأولى، بشرته حنطيّة اللون، وتظهر عليها بعض النقوش الخفيفة الناتجة عن مرارة تجاربه السابقة، وفي

Scanned with CamScanner
CamScanner تم مسحها ضوئيا بـ

الوقت نفسه تمنحه جاذبية عالية، تجعل من السهل على الآخرين الاقتراب منه والتواصل معه.

في البدء لم يكن هناك أي كلام، وجعل الصمت الذي تبادلاه يقع موقعًا في النفس أعظم من كلّ كلام، كلاهما كان يتحرك في عالم مليءٍ بالنظرات غير المدروسة.. ثمّ استرسلا بأحاديث شتى، ما يزيدُ على عشر دقائق، إلى أن دخلت إحدى الممرضات إلى غرفة الانتظار في المستشفى، ونادت: زياد عبّاس، تفضل، الطبيب بانتظارك. ابتسم ابتسامةً بعيدةً عن ابتسامات المجاملة التي عادةً ما تكون في هكذا حالات، وخرجت منهُ ابتسامته الصادقة هذه لا إراديًا، وهو يتجه إلى غرفة الطبيب.

تطورت علاقتهما ببطء، ومن بوّابةٍ تقليديّة، وبالتحديد حين شاركها إحدى أغانيه المفضّلة عبر الماسنجر، وكان ذلك في الدقائق الليلية التي تسيطر على أحدنا بشكل غير منطقي، فتدفعه لارتكاب حماقة عاطفية ما! وبوتيرة هادئة تتالت الليالي، وتحولت العلاقة بينهما برفق إلى شيء أعمق من مجرد الأحاديث بين رجلٍ وامرأة، إلى أن وجدا أنفسهما مغمورين في أبَدٍ من المشاعر.

على مر الشهور والأعوام، مرت العلاقة بتحدياتها واختباراتها، ووقعا كالجميع في شِراك الانفصالات المؤقتة، بسبب الاختلافات في الرؤى والأهداف، أو الكبرياء المصطنع في حالات اللهفة الشديدة، لكنهما ثبتا رغم كلّ شيء، وعلِمَا يقينًا أنّ القوة الحقيقيّة ليست في تخلّي طرف عن طرف، بل في أن يُكمّل كلّ واحد نصفه الآخر، ومما زاد العلاقة تناغمًا وجود الثقة المبنية على أساس قوي من المودة والاحترام المتبادل منذ بداية الرحلة، نعم، في بعض الأحيان كانت مشاعر الشك تتسلل إلى نفس ريما، كما هو الحال في أية علاقة، فإن الشك قد يظهر أحيانًا بسبب عوامل مختلفة مثل الغيرة أو عدم اليقين الطارئ على نفس الإنسان، لكن الهامش الأساسي للثقة والتفاهم الذي بنيت عليه علاقتهما كان دائمًا يساعدها على تجاوز هذه المشاعر، واليوم تبدو الكيمياء بينهما أقوى وأعمق، تديرُها العيون بدون الحاجة إلى الكلمات، لأنّ لحظات الهدوء والتفاهم الصامتة بينهما كانت أكثر قيمة من أي قول، وفي معارك الحياة اللانهائية، وجودهما معًا كان كافيًا لجعل الأمور

Scanned with CamScanner

تبدو أفضل، وبعد أربع سنوات.. لا يزالان يتحدثان عن كل شيء بصراحة تامّة، ولا يزالان يرسمان خططًا فاشلةً لمستقبلهما! ويركضان في دوامة الأساسيّات بينما هذا الكون من حولهما متخمٌ باللهث وراء الكماليات، ويؤمنان أنه يمكنهما أن يواجها معًا أي تحديات قادمة في هذه الرحلة المشتركة، فهل ستكون لديه الجرأة ليخبرَها بما حصل؟

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيا بـ CamScanner

2

في المنام.. لم يكن يريد قتل زينب أبدًا، كلّ ما في الأمر أنّه قرر فجأةً وبعد عدة أفكار مشوّشة راودته، أنه يجب عليه أن يذهب لرؤيتها وعتابها، فقد كتم وتحمّل بما فيه الكفاية، ولكن كعادته في كسر المألوف، وكما تكون الرؤى لا منطقيّة فيها أو في بعض أجزائها، أخذ معه حين قرر الذهاب مكنسةً كهربائية! بدا الأمر غريبًا بحق.

طرق الباب غير آبهٍ بتأخر الوقت، إنّها الواحدة صباحًا، كانت زينب وحدها تشاهد مسلسلها المفضّل، بعد أن نامت ابنتها ذات الأعوام الأربعة، شيءٌ من الرعب طرقَ قلبها ترافق مع طرقاته المتتالية على الباب، فزعت إلى الباب بخطىً سريعة، نظرت من العين السحريّة، إنّه زياد! ماذا يريد في مثل هذا الوقت؟!

بدأ التوتر يرسم في وجهها ملامحه الخاصّة، تجلى ذلك أولًا في ارتفاع حاجبيها، واتساع عينيها بشكلٍ لا إراديّ، ثمّ ما لبثت عضلات وجهها تتقلص شيئًا فشيئًا نتيجة لتحوّل مشاعرها من التوتر إلى الاستغراب، قبل يوم فقط خالجها شعور غريب، لم تشعر به من قبل، شيء ما في أعماقها ينذرها بطريقة غير مباشرة أنّ رحلتها في الحياة أوشكت على النهاية، وأنه ليس بينها وبين الموت إلا قدر أُنملة، لم تكن من الذين يعانون وسواسًا قهريًا، لذلك لم تأخذ الأمر على محمل الجد، وإن كانت فكّرت به بعض الوقت، الآن وفي هذه اللحظة عاودها الشعور نفسه، وبشكل أوسع وأكثر اضطرابًا، في الحقيقة يُعتبر هذا الشعور الغامض بالموت موضوعًا يثير الكثير من التساؤلات في عالم الطب وعلم النفس، وتتجسد هذه الظاهرة في العديد من التقارير الطبية والعلمية، إذ يبدو أن بعض الأشخاص يشعرون بقرب حلول أجلهم قبل أن يأتي بفترة قصيرة، بعض الأشخاص الذين تعرضوا لتجارب موت مؤقتة، مثل التوقف عن التنفس أو التعرض لحوادث خطيرة، يمكن أن يعانوا من تغيرات في وظائف الدماغ تجعلهم يشعرون بالموت القريب، هكذا تشير بعض الدراسات العلمية، ولكنّ زينب لم تكن منهم بكلّ تأكيد، فهذه التجارب يمكن أن تؤدي إلى تحرير موجات كهربائية معينة في الدماغ، مما يؤثر على المناطق المسؤولة عن الوعي والإدراك، وهذا التأثير قد يخلق شعورًا بالانفصال عن الجسم أو الدخول في حالة

Scanned with CamScanner
ـب حوصم اCamScanner

من الهدوء والسلام، وهو ما يمكن أن يفسر بوصفه شعورًا بالموت، وهذا كلّه لم تعشهُ زينب من قبل، كان شعورها هذا غريبًا وصادمًا لا يظهر من خلفه أي دافع، ولا يتضح من أيّ زاويةٍ أتى، بعضهم يؤكد أنّ العوامل الفسيولوجية والنفسية وبعض العوامل الأخرى قد تسهم في شعور بعض الأشخاص بالموت قبل حدوثه بقليل، ويذكرون من بين هذه العوامل، التجارب الروحانية التي يخضع لها الأفراد، والتي قد تشمل التأمل العميق، أو الصلاة المكثفة، أو تجارب الخروج من الجسد وغيرها، كما يكون في العديد من الثقافات والتقاليد، إذ تعتبر هذه التجارب الروحانية وسيلة لاكتساب فهم عميق للحياة والموت، وتجربة مشاعر تفوق الواقع المادي، أمّا من الجانب العلمي بشكل عام، فلا تزال دراسة تأثير هذه التجارب الروحانية على العقل والدماغ قيد البحث، وإن كان هناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن التأمل والتجارب الروحانية قد تؤثر على هيكل ووظائف الدماغ بطرق تختلف عن التجارب الطبيعية الأخرى.

وجدت زينب نفسها بغير تفكير تقول أمام طرقات الباب المتتالية: من وراء الباب؟ من هناك؟ رغم أنها رأته من العين السحرية، وتعيد تساؤلها: من؟

- أنا زياد يا زينب.

- امنحني دقيقتين من فضلك!

ذهبت إلى غرفتها مسرعةً، ارتدت شيئًا ساترًا على عجل، وعادت إلى الباب، وحين فتحت كان مشهده وهو يمسك بالمكنسة غريبًا، ويبعث على القلق أيضًا، لم يطل نظرُها مُندهشةً إليه وهو على هذه الحالة إلا لحظات، أتبعتها بهمس يناسب تلك الساعة المتأخرة من الليل: أهلًا زياد تفضل.

هنالك شيء في أعين القتلة، يدلك عليهم دائمًا.. نظرتها السريعة وهي تقول له تفضل، حملت الكثير من التخوفات والاكتشافات، فمهما كان القاتل حذقًا فإنّ العين تظهر ما في القلب، وفي مثل هذه الحالات يمكن أن تكون هناك علامات تدل على تفكيره وسلوكه، تتنوع هذه العلامات بين المحتملة والمتناقضة، ولكن بعضها قد يكون مشتركًا بين العديد من الجناة، وفي مطلع هذه العلامات تلك النظرة الباردة والخالية من المشاعر، المتسمة بالثبات، والخالية من أيّ تعبيرٍ واضح، إلا ذلك الذي

Scanned with CamScanner

يشي بانعدام الرحمة لدى صاحبها، وهي أوّل ما لفت نظر زينب في وجه زياد، وكان قد جمع مع هذه العلامة علامات أخرى ظهرت جليةً في وجهه، كالإفراط في التركيز أثناء النظر مما يجعل إحدى عينيه تضطرب بغير إرادةٍ منه، خصوصًا إذا كان محدقاً في عيني الضحية، وهذا أيضًا مما بدا واضحًا في حالة زياد، مع سيلٍ هادرٍ من التوتر أو القلق في اضطراب عضلات الوجه الناتج عن الإجهاد العقلي المرتبط بنواياه الإجرامية، كلّ هذا أحست به زينب في أقل من ثانيتين، وهي تقول له تفضل..

دخل وأغلقت هي الباب، غرفة متواضعة من حيث المظهر العام، محاطة بالكثير من أسرار الليل، ينعكس ضوء خافت من ساعة الحائط يضفي لمسة من الغموض واضحة! صور عائلية على الحائط مليئة بالابتسامات المصطنعة التي تخفي ما لا يُحصى من الأحزان، أثاث خشبي وألوان دافئة تتوزع بين البني والأخضر الزيتي داخل طراز عتيق من حيث الجو العام، والشائع الملحوظ في بيت زينب هو التاريخ الذي يتغلغل في كل التفاصيل، فمرةً تراه في لوحة منسوخة عن لوحة «فان جوخ» التي رسمها 1889 في مصحة «سان ريمي دو بروفانس» بعدما قُطعت أُذنه، وكانت قبل موته بعام، ومرةً تراه في مجسم عن إحدى منحوتات الإيطالي دوناتيلو، أو معاصره مايكل آنجلو، ومرةً يكون التاريخ جليًا من خلال مخطوطة عربية نادرة على رفٍّ من الأرفف، فحيثما يدير المرء وجهه يجد لفتةً تاريخية تتميز بتفاصيل فريدة تجعلها لافتة للنظر، إذن فالمكان متخمٌ بالتاريخ والظلام المليء بالأضواء الخافتة، كما لو أن هذا المكان ينتظر اللحظة المناسبة للكشف عن أسراره الخفية، ولا نستطيع أن نهمل أيضًا ذكر الزاوية المميزة في الغرفة التي دخلها زياد، تلك التي تضع زينب على طاولةٍ فيها عددًا لا يُستهان به من العملات الورقية النادرة، والطوابع القديمة، وصفحات موقعة من بعض فنانيها المفضلين الذين التقتهم ذات يوم.

سارا معًا خطوتين أو ثلاثة، ثمّ بادرته: لقد أخفتني! ماذا هناك؟ ولماذا هذه المكنسة؟ لم يجب، واتجه إلى الأريكة الزيتيّة، وجلس.. بدأ يزيدها الأمر توترًا، جلست مقابله على كرسي ملتف ببطانية ناعمة، وإلى جوارها طاولة خشبية قديمة تحمل بضعة كتب وكوبًا فارغًا، بدا المنزل لوهلةٍ كأنه مأهولًا بالأرواح، ثمة ما يشعرها أنّ الأضواء الخافتة تحولت إلى أشباح تترقبُ حدثًا ما سيحصل عما قريب، يملأ

Scanned with CamScanner

الهواء الساكن المنزل بالريبة والرعب، وكأنّ الظلام المتسلل بين حنايا المنزل تحول إلى غولٍ مفزع، ترتعش يد زينب وهي تحاول التماسك في ذلك الجو المخيف، وتتأمل بعينيها الخائفتين كل تفاصيل الموقف، محاولةً فك رموز الغموض الذي يُحيط بها، وسط هذا الجو المشحون بالخوف.. أعادت عليه بصوتٍ تظهر منه رعشة خوف: زياد ماذا هناك؟ ولماذا هذه المكنسة؟ لماذا هذا الصمت وهذه الحركات الغريبة بوجهك؟ هبّ واقفًا بطريقة غريبة وعجلة، مما أفزعها فوقفت هي الأخرى، اقترب منها خطوةً بهدوءٍ تام، ومدّ يد المكنسة مشيرًا بها إلى الأرض، وقال بصوت منخفض ومضطرب: ثمّة أوساخٌ قديمة، تعرفينها جيدًا.. ويجب عليك الآن تنظيفُها! فهمت زينب مباشرةً ما رمى إليه، وبالرغم من أنّها كانت تعرف أنّه يتصرّف بغرابة شديدة في بعض الأوقات، إلا أنها صُدمت بهذا كلّه وتضاعف ارتباكها، ما الذي يفعله هذا الرجل؟ أيأتي إلى بيت امرأةٍ مُنفصلة في وقتٍ متأخرٍ منَ الليل، لا يُراعي بذلك حرمةً للوقت أو خوفاً على سمعتها، ليعاتبها على موقفٍ سخيف حصل قبل سنوات؟ هل فقدَ هذا الرّجل عقله، أمّ أنه يعاني اضطرابًا نفسيًا؟ أفكار عجِلَة ظهرت على وجهها بشكلٍ خاطف، قبل أن تتأفأف رافعةً صوتها بعض الشيء في وجهه: هل جننت يا هذا؟ أتجيء في مثل هذا الوقت لتقول لي مثل هذا الكلام! هل أنت بكامل قواك أم تعاطيت سمًّا من السموم جعلك تفعل هذا بعيداً عن إرادتك؟! شيءٌ ما دفعه للسير إليها بخطىً هادئة منذ بدأت بنبرتها المرتفعة، وجعلها ترجع للوراء وهي تتابع حديثها بارتباكٍ شديد، وصوت يرتفع أكثر فأكثر تدريجيًا، وبينما كانت على هذه الحالة، انزلقت رجلها على الأرض وسقطت على ظهرها، في مشهدٍ تقليديّ لجرائم كثيرة نشاهدها في الأفلام والمسلسلات، كان عليه أن يبتعد فورًا، لكنه وبشكل منفعل ومبالغ فيه انقضّ عليها وطوّق رقبتها بكلتا يديه وشدّ عليها بكامل قوته.. في هذه اللحظة تمامًا صرخت الطفلة الصغيرة في غرفتها! كأنها أرادت أن تنوب عن أمها التي سدّ زياد بيديه الثقيلتين مجرى أنفاسها فحرمها أقلّ حقوقها وهو أن تصرخ في مواجهة الموت، ولكنّ زياد الذي وصله صوت الصغيرة، كان يزيد في الضغط على رقبة أمّها وكأنه ينتقم لأذنيه من حنجرتها! واستمرّ هكذا حتّى أعلن الدم توقفه فورًا عن الوصول إلى رأس الأمّ المسكينة، وأعلنت أنفاسها التوقف عن العمل وإلى الأبد.

Scanned with CamScanner

قام عنها ببرود كأنه لم يفعل شيئًا، ووقف أمام الجثة يتأملها بثبات، الذي شغل باله في تلك اللحظة هو أنه نظر في يديه فرأى قفّازين رماديينِ يغطيانهما! وهو لا يلبسهما إلا في حالة الصقيع الذي لا يُحتمل، وفي طريقه إلى زينب، لم يكن منتبهًا لذلك أبدًا، فما الذي دفعه إلى لبسهما؟ هو لم يكن يريد القتل ولا يعرف لماذا قتلها، والآن استطاع بدون تخطيطٍ مُسبق، ألا يترك أثرًا لبصماته، وكأنّهُ أُعدّ على غير إرادةٍ منه لارتكاب هذه الجريمة!

بدأ يتراجع إلى الوراء، صوتُ بكاء الطفلة على بعد عشرة أمتار منه، يضرب طبلة أذنه ضربًا مؤذيًا بدون رحمة، أفكار سخيفة عشوائية ومشوشة تمرّ بمخيلته بشكل غير منتظم، تسلل من بينها ما قالته له زينب قبل أيام من أنّ كاميرات التصوير في البناية التي تسكنها معطّلة، وأنّ هذا يشعرها بالخوف على نفسها وصغيرتها، وأنّ الشركة المسؤولة عن صيانتها أعطتهم موعدًا بعد عشرة أيّام.

ماذا؟ عشرة أيّام؟ استند بكتفه إلى الجدار حين بدأ يفقد توازنه، ما الذي يحصل؟! وفهم أنهم لن يستطيعوا التوصل إلى أي أدلة من تلك الكاميرات، واستوعب أنه قام بجريمة احترافيّة، جريمة مدروسة بدقّة وعناية، أحسّ وكأنّ أحدهم دبر له الظروف المناسبة، وحمل عنهُ عبء التخطيط، إلى درجة أنه ساعده في طمس أيّ دليل ومسح كلّ أثر.

ابتعد عن الجدار، وأخذ يتلفّت حوله بريبة كبيرة وذهول، اتجه مسرعًا نحو الباب، وفي طريقه تعثّر بالمكنسة! لكنّه تابع السير بدون اكتراث، وعندما أدرك أنه أصبح قاتلاً، استيقظ!

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمل

3

مستلقيًا على سريره، وبعينين واجمتين تنظران بشرودٍ إلى السقف، يحاول زياد تفسير تلك التفاصيل الغريبة في حلمه، يعلم تمامًا أن الكاميرات تلعب دورًا حاسمًا في كشف حقائق القضايا، ولم يكن منطقيًا بشكل من الأشكال أن يقبل عقله فكرة الكاميرات المعطلة، قد تصلح هذه السردية في المنام، ولكن يستحيل أن تحصل في الواقع، والكاميرات هي الطريقة الأسرع غالبًا في وضع متّهمين ارتادوا المبنى يوم وقوع الجريمة، وعرضهم على النيابة العامة، ليبدأ التحقيق بشكل رسمي، الأمر يثير فضوله، ويستفزّ نقاط صبره، ويبدو أنه لن يستطيع في حال من الأحوال تجاهل الشكوك التي تسللت إلى ذهنه، قرر أن يبدأ تحقيقه الخاص في هذا الأمر، فقد وجد نفسه متحمسًا لمعرفة المزيد عن الجريمة وما يمكن أن تكشف عنه كاميرات المراقبة، إنها لحظة نادرة من لحظات التحدي في حياته، حيث تتجاوز حدوده الشخصية من أجل الكشف عن الحقيقة والإجابة على الأسئلة التي تنخر عقله.

سيتعين عليه في حال عزم بصدق على ملاحقة الأمر أن يصل للكاميرات بنفسه، وهذه رحلة ليست بالسهلة أبدًا، نهض دون تردد، فتحَ جرارًا إلى جانبه، وأخرج دفترًا وقلمًا، وبدأ في وضع خطته للوصول إلى الكاميرات، والتي تتلخص في أنه سيقوم بالبحث عن المزيد من المعلومات حول المكان الذي يمكن أن تكون فيه تلك الكاميرات في المبنى، وسيقوم أيضًا باستخدام التكنولوجيا المتاحة له، كأجهزة الاستشعار والذكاء الاصطناعي للمساعدة في تحديد أماكنها وعددها، ويتوجب عليه أخذ الاحتياطات اللازمة للتخفي، فالمجرم يحوم حول مكان الجريمة كما يقولون! وعندما يضطّر الأمر فإنه قد يلجأ إلى التعاون مع بعض الخبراء في مجال التحقيق والتكنولوجيا لمساعدته، وبحذر شديد وخطّة تجعلهم في منأى عن معرفة حقيقة ما يسعى إليه، كتب هذه النقاط، وفصّل في بعضها، وشعر بشيء من الراحة حين بدا له أنه باستخدام هذه الاستراتيجيات سوف يكشف الغموض الذي أحاط بحلمه العجيب.

ما أن انتهى من كتابة ما يريد، نهض مسرعًا، واستقلّ سيارته إلى المبنى، ذهب في النهار حتى لا يُثير الشكوك من حوله، وليأخذ نظرة عامة عن المكان، فإذا وجد

Scanned with CamScanner

هناك شيئًا بوسعه فعله، فإنه سوف يفعله.

بحذرٍ وهدوء وبعيدًا عن أي ضوضاء قد تُسلّط الأنظار عليه، قام بركن سيارته، ونزل منها بعد دقائق معدودات بقيَها لا من أجل شيء بعينه، إنما هي مجموعة أحاسيس غريبة ومتناقضة منعته من الحركة، أخذ نفسًا عميقًا، وأبدا استعدادًا نفسيًا، ثم نزل من السيارة خائفًا يتلفّت وكأنه في لعبة حربية معقدة.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله حارس المبنى بصوت هادئ، عندما لاحظ اقترابه من المبنى، بدا عليه شيء من الارتباك، ولكنّه قال بصوتٍ مليء بالثقة: مهمة، أنا في مهمة عمل.

رفع الحارس حاجبيه مستغرباً، أيّة مهمة؟ هنا سحب زياد ببطء مُصطنع وبطريقة بطل سينمائيّ محترف، بطاقة مزيفة من محفظته الشخصية، بطاقة تحمل الشعار الرسميّ لوكالة المخابرات العامة! كانت البطاقة تحمل اسمه وصورته، بالإضافة إلى رقم معرف سري وتوقيع مزيف أيضًا لمسؤولٍ خيالي في تلك الوكالة، وكان تصميم البطاقة دقيقًا ومتقنًا بحيث يصعب تمييزها عن البطاقات الحقيقية وبينما كان يقدم هذه البطاقة لحارس الأمن، بدأ يشرح بكل هدوء أنه يعمل في مهمة سرية من المخابرات العامة لمراقبة المكان عن بعد، وأنه قد كُلِّف بهذه المهمة للتحقق من بعض الأمور الدقيقة في المبنى.

منحت البطاقة المشهد طابعًا رسميًا، وجوًا من القوة والتفوق الذي ساعد في إقناع حارس الأمن بأن زياد عبّاس جزء من مهمة حكومية سرية، كان زياد حادّ الذكاء، ولم يفته أن يدرس جميع الاحتمالات، وأن يستعد لكل السيناريوهات، ومن بينها هذا السيناريو، فقام قبل خروجه من البيت بتزوير هذه البطاقة عبر «الفوتوشوب» وطبعها في بيته، في الوكر الكبير لكل أشكال التزوير! وما أسهل ذنب التزوير على أولئك الذين يحترفون القفز على القوانين، ويبيعون أمل النجاة بأموال طائلة للفقراء والمساكين، بتهريبهم من تركيا إلى أوربا، يا له من عملٍ يدرّ ذهبًا، ويقتل أنبل ما في صاحبه!

اطمئن الحارس بعد رؤية البطاقة المزيفة، ودار بينهما حديث ليس بالطويل،

Scanned with CamScanner

استطاع زياد من خلاله أن يستدرج الحارس ببعض الأسئلة غير المباشرة والمموهة، فكشف له الحارس أنّ عناصر الشرطة قاموا بسحب المواد الأصلية المسجلة من تلك الكاميرات قبل ساعات، حين طوّقوا مكان الجريمة صباحًا، ولم يتركوا نسخة عنها، غادر المكان وهو مُحمّلٌ بالخيبة، فقد كان يُمنّي نفسه بأن يجد نسخةً من المواد المسجلة.. توجّه إلى محلّه الخاص ببيع وشراء التحف القديمة والأشياء النادرة الثمينة، والعُملات العتيقة وما إلى ذلك، وهو العمل الذي يقدم نفسه للناس من خلاله، تاجر تُحف! هناك وفي دائرةٍ متخمة بكل ما يتعلق بالقرون الماضية، ألقى مفاتيح سيارته وجلس على مكتبه، ثمّ هوى بوجهه على يديه مُغلقًا بهما الضوء عن عينيه، كانت الأمور تأخذ منحىً أكثر تعقيدًا مما توقع.. لم تكن مهمته يسيرة، إنّها تتطلّب الكثير من التحرّي والدقة، ولا بدّ من إتقان فنّ الاختباء في الضوء، وبالطبع هو أُستاذ الاختباءات! سيكون عليه البحث عن مصدر معلومات جديد يقوده إلى أي مؤشر يمكن أن يقربه من العثور على نسخة للمواد المسجلة، أخذته سنةٌ منَ النوم، قاربت الساعة والنصف، قام منها وهو يشعر بثقل كبير، وعاد بعدها إلى بيته.

Scanned with CamScanner

4

في زاوية هادئة من شارع مزدحم في إسطنبول، يقع مطعم الفوانيس الصغيرة وبالتحديد عند نقطة التقاء الرائحة الشهية للأطباق التركية التقليدية مع رائحة القهوة المحمصة، طاولات خشبية مزينة بنقوشات فنية تقليدية، وتتوسطها فوانيس صغيرة ملونة تضفي أجواء رومانسية على المكان، يتميز المطعم بكثرة اللمسات الناعمة وكل ما من شأنه أن يعكس للزائر ثقافة إسطنبول الفريدة، وتزخر الزوايا بالنباتات الخضراء والزهور الطبيعية التي تضيف لمسة من الجمال الطبيعي إلى الديكور، الدخول يكون عبر القوس المبني من الطوب الأحمر القديم، ومنه إلى الداخل من خلال باب خشبي مليء بنقوشات يدوية تقليدية أيضًا، أمّا ما يميّز الجدران فالزخارف العثمانية العامرة بالألوان الزاهية، تتوسط المطعم مساحة مفتوحة للطهي، حيث يمكن للزوار رؤية الطهاة وهم يعدون الأطباق بأناقة واحترافية، سقف المطعم يمتد عاليًا وتتدلى منه ثريّات كلاسيكيّة، كانت الإنارة الخافتة فيها تمنح المكان كثيراً من السكينة، تفحّصت عينا زياد المكان بتوجّس، وكانت ترتفع نظراته نحو السقف أحيانًا بطريقة غير مفهومة، في الواقع لم يكن جائعًا، أو لنكن أكثر دقّةً، كان جائعًا وفي الوقت ذاته لم يكن يشتهي الطعام، لذلك اكتفى بطلب سلطة الفواكه مع قطعة صغيرة من البيتزا، بينما طلبت ريما وجبة من سمك السلمون المشوي، وهي تنظر إلى زياد نظرة تساؤل: ما هذا التناقض الفجّ بينَ طبقيه؟

بدون المقدمة المقتضبة التي تكون في مثل هذه الجلسات بين حبيبين قديمين، قال بصوت هادئ: هل تعتقدين أن هناك أموزًا نخفيها حتى عن أنفسنا، أشياء لا نستطيع أن نشاركها ولا مع أعز الأشخاص لنا؟

هربًا من الصورة النمطيّة لدى كثير من الرجال والقائلة بأنّ هناك علاقة حتميّة بين المرأة الجميلة وبين الغباء، وأنّ الجميلة هي امرأة ساذجة بالضرورة! كانت ريما تسترسل بعض الأحيان بالأحاديث الفلسفية مع زياد، حتّى لا تقع في فخّ هذه النمطيّة المقيتة، على كراهيةٍ منها لكل ما يتعلق بالفلسفة والعقلانيات، وليس ذلك

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ئضوضمل اضوسم

إلا لكمالها في العاطفة كما تقول حين تُفتح مثل هذه الموضوعات، فهي ليست ضدّ العقل، ولكنها لا تستطيع منطَقَة كلّ ما يجري من أحداث في الحياة، ومن هنا فهي والجميلات في العالم يواجهن الواقع بالعاطفة، ذاك أنّ العواطف فيها من المرونة ما ليس في العقول، وهكذا قالت مرةً لإحدى صديقاتها، وهي لا تنكر أبدًا أنّه توجد علاقة وطيدة بين الجميلات وسوء الحظّ! وبين الجميلات واختيار الرجل المناسب في الوقت الخطأ، وبين الجميلات واختيار الرجل غير المناسب في الوقت المناسب، إنّها متصالحة وبكل ود مع هذه الحتميّات كما تسميها، وهي امرأة في أساس تكوينها مفعمة بالحيوية والعواطف، وتعيش حياتها بإقبال على كل جميل، وبقلبٍ مليء بالحب والشغف، فهي تجد في العلاقات الإنسانية أكبر مصدر لسعادتها، وتتميز بالقدرة على إظهار المشاعر بصراحة، وتعبر عن مشاعرها بكل صدق وصراحة، قد تكون رومانسية بامتياز، تبحث عن الروح المشابهة لها، ترغب في التواصل العميق والحديث الهادف، ومع ذلك تكون المشكلة عندما تصطدم بثقافة مجتمعها، والتي تميل إلى تقديس العقلانية والمنطق على حساب العواطف والمشاعر، يُعتبر الرجال غالبًا في هذه الثقافة أكثر استعدادًا للاهتمام بالفلسفة والمفاهيم الفلسفية من النساء مما يخلق فجوة ثقافية بينهم وبين النساء، وهي مع هذا كلّه تعتبر اهتمام الرجال بالفلسفة مجرد هروب من الواقع، وأنهم يفضلون التفكير العقلاني على حساب التجربة الحية والعواطف الإنسانية الحقيقية، تعتقد أن الحياة ليست مجرد سلسلة من المفاهيم والأفكار، بل هي تجربة شخصية غنية بالعواطف والمشاعر والعلاقات، لذا فإنّ هذا النوع من النساء يجدن صعوبة في التفاعل مع الرجال الذين يفضلون النقاشات الفلسفية العميقة على الحديث عن العواطف والعلاقات الإنسانية، لأنّ الرجل بأعينهنّ في هذه الحالة قد يبدو مبالغًا في تعقيدات الحياة، ويفتقد إلى القدرة على التعبير عن المشاعر بصورة صادقة ومباشرة.

لم يدهشها سؤاله المُفضي إلى فلسفة لا طائل منها، وقالت بهدوء: زياد هل هناك شيء تود مشاركته معي، وتجد نفسك متردداً في ذلك؟

- وهل يتردد زيادعادةً؟ قالها في نفسه.. ثم تنحنح: ربما.. ربما، سكتَ لحظةً ثمّ أردف قائلًا: هناك أمور لا يمكنني مشاركتها الآن، ولكن يمكن أن يتغير هذا في

Scanned with CamScanner

المستقبل.

بقصد استفزازه ليتحدث، أشاحت بوجهها عنه إلى الطاولات الأخرى من حولهما: لن ألح عليك!

ابتسم وهو يشعل سيجارته ابتسامةً باهتة: مهما فهمنا الحياة من حولنا، تظل في أعماقنا أمور غير مفهومة، أشياء لا يمكن أن نعرف حقيقتها.

بعد سكتة خفيفة تشي بالتأمل، قالت ريما: قد تقدم لنا الحياة التحدياتعلى شكل متاهات في أعماقنا، نجد أننا مرغمون على السير بها ونحن لا نعي جدواها، ربما لتمتحن استعدادنا للتغيير.

- هذا صحيح، ولكن لماذا نتعامل مع الصعوبات بطرق مختلفة، لماذا لا يكون هناك طريقة للتعامل مع الصعوبات ينتهجها الجميع، وتكون ذات جدوى؟!

قالت بشيءٍ من الاستغراب: كيف يكون ذلك، ونحن لدينا خلفيات وتجارب مختلفة، ينتج عنها طرق مختلفة قطعًا في التفكير والتعامل مع الأحداث.

- إذن، هل تكونُ حياتنا أكثر ضوءًا إذا فهمنا هذه الأمور المتشعّبة بشكل أفضل؟ أمْ أنها ستنزلق إلى نفق أشدّ ظُلمة؟

هنا بدأ النادل بوضع الأطباق.. فسكتا برهةً، ثم قالت: قد يساعد الفهم في جعلنا أكثر استعدادًا للتعامل مع التحديات، لكن الحياة ودائمًا، ستظلّ تحمل لنا ألغازًا نحتاج إلى حلها.

- كم أتمنى لو كان الإنسانُ ما يُحب! ولكن الحقيقة كانت كما قال سارتر «الإنسان هو ما هو، وليس ما يتصور» وما نستطيع معرفته خلال رحلة العمر القصيرة مهما كان عظيمًا فسوف يكون نسبيًا دائمًا.

وضع لقمةً في فمه وتابع: مع هذا، يتوجب علينا البحث عن معنى هذه الحلقات المفقودة التي نمر بها، ومعرفة ما إذا كانت تلك اللحظات المجهولة هي مِنَح أم لعنات! من يدري؟ ربما يساعدنا الفهم العميق لهذه الجوانب الغامضة في توجيه

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

حياتنا نحو الهدف الأكبر المخفي وراء تلك الألغاز، ربما يجعلنا أقرب إلى استيعاب أمور أكثر في وجودنا وفهم أدق لغموض الحياة، وإذا افترضنا أنّه لا فائدة من كل هذا، فعلى الأقل يكون الأمر كما قال بروست: «ليس البحث عن الأشياء التي تكون مفقودة في حياتنا هو الأمر المهم، بل البحث عن الأشياء التي نكتشفها أثناء هذا البحث».

الحياة تعج بالمفاجآت، ودائمًا ما تخبئ لنا ما نبحث عنه في أماكن لم نكن نتوقعها أبدًا.

بوجه متململ من هذا الحديث الذي لا يناسب طاولةً لحبيبين لم يلتقيا منذ ما يزيد على أسبوع، قالت ريما: قد نجد الإجابات يومًا، أو على الأقل سنعزّي أنفسنا بأننا حاولنا ولم نستطع.. بدأت تلوك أول لقمة، وتابعت: على هونك يا حبيبي فأنا أرى الحياة أسهل مما نحن نظنّ، والمشكلات التي نواجهها هي نتيجة لتفكيرنا المعقد واهتمامنا المُفرط بالأمور الثانوية، هل نسيت ما كنت تردده لي دائمًا عن شبنهاور؟ سأذكّرك: «الحياة ليست سوى لحظة واحدة، واحدة» إذن فاللحظة الحالية هي ما نمتلكه حقًا، لذا علينا أن نعيشها بكل تركيز، وبشيء من الرضا.

- أتفق معك، وأعرف جيدًا أنّ الكون لا يُكدِر خاطره بالسؤال عنّا، وعن فرصنا المثالية التي نسعى لها من أجل حياةٍ أفضل، وأعرف أنني أوجعت رأسك بأسئلتي الفلسفيّة كما يكون دائمًا، ولكن من لي غيرك في هذه الدنيا يحتملني؟ وابتسم بصمتٍ وود.

بدأت جدران الواقع تضيق عليه، وبدأت الأصوات في رأسه تزيد وتتداخل، وها هو الهوس يتسلل إلى عقله مباشرةً دون تدرّج، وها هي الظنون تأكل يقينه، وتزرعُ في تراب أمانه وسكينته أشجار الخوف والهلع، ماذا لو أنّ الشرطة الآن في طريقها إليه؟ لا هذا مستحيل، مرّ أسبوعٌ كامل، ولو أنهم رأوني في الكاميرات لما بقيت طليقًا حتى الآن، أوه.. يا للجنون!

وعلى الرغم من كرهه الشديد لهذه الأصوات التي تضجّ في رأسه، لكنها جميعًا مقبولة إذا ما قيست بصوت صراخ الطفلة، تلك الحنجرة الصغيرة التي لا يزال

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

نواحها وصراخها يُترجم ويعاد في رأسه بصيغة: أنت مجرمٌ في النوم واليقظة!

كانت ذبذبات صوتها الناعم البريء تندفع إلى عقله بقسوة، ولطالما حاول أن يتجاهلها، ذاك أنها أوهام لا تمت للواقع بصلة، ليس لها وجود إلا في رأسه، حاول كثيراً ولكنه فشل في أن يقاوم تأثيرها.

كانَ هذا على صعيد النفس من الداخل، أمّا الخارج فحدّث ولا حرج، فقد كانت كل نسمة هواء تداعب وجهه البائس تعرضُ أمام عينيه مشهد الأنفاس الأخيرة للقتيلة زينب على يديه، وحين كان يمرّ بحديقة من حدائق اسطنبول كانت الزهور الملونة الفوّاحة باهتةً في عينيه، لا لونَ لها ولا رائحة، أمّا منزله، فقد كان قبلَ أسبوعٍ فقط ملجأ آمنًا، وأصبح الآن مُخيفًا مُرعبًا بسبب احتمال قدوم الشرطة في أي لحظة، تحوّل أثاثه الفاخر وديكوره الفخم إلى أداتين قاتلتين تذكرانه بسبب بعض التفاصيل الصغيرة المشتركة بجريمة قتل ارتكبت في بيتٍ آخر، تلك النوافذ المطلّة على أجمل مناظر اسطنبول-سواء في بيته أو في محله أصبحت الآن تطلّ على الموت، ولا شيء غير الموت! لقد أصبح الكون بأسره شاشة بانوراميّة لا تعرض أمامه إلا ذلك الكابوس.

***

طيلة سنوات عمله كمهرب محترف من تركيا إلى أوروبا، لم يكن يجيب على أي رقم غريب، فالهاتف الخاص به كان بوابته الأخيرة للتواصل مع عالمه المُتخم بالمستضعفين والمجرمين معًا! فماذا يفعل الآن وهو يرى رقمًا يحمل في ثناياه سبعة أصفار متتابعة، هذا رقمٌ مميز لدرجة أنه لا يقدر على ملك مثله إلا رجالات الدولة، أو رجال الأعمال، شعر -وهو ينظر إلى هاتفه - بقلبه يتجمّد! وبالزمن من حوله يتجمّد هو الآخر، وخلال ثوانٍ من الخوف والتفكير السريع المضطرب قرر زياد الرد على المكالمة.

المتصل: مرحبًا، أنا المحقق "دينيز أوموت" من النيابة العامة، هل أتحدث مع السيد زياد؟

يحاول التماسك بصعوبة: نعم، أنا زياد.. تفضل.

Scanned with CamScanner

- نحن بحاجة إلى حضورك غدًا للتحقيق بشأن جريمة قتل زينب، سيكون ذلك في مقر النيابة العامّة، وفي العاشرة صباحًا.

بصوت يتصنّع الثبات: نعم.. نعم، إنها إنسانة طيبة، أعرفها جيدًا، رحمها الله، ولكن ما علاقتي أنا بالأمر، لماذا عليّ الحضور؟

- سنقوم بمناقشة التفاصيل غدًا، يجب عليك الحضور.

- نعم، سأحضر، لكن أرجو أن تعرفوا أنني لا أعرف شيئًا عن هذه الجريمة.

- شكرًا لتعاونك، زياد، أنتظرك غدًا.

وضع هاتفه على الطاولة وهو يرجف، كيف سيتعامل مع هذا الوضع الحرج؟

قرر فورًا أن يتحدث مع محاميه للحصول على نصيحة قانونية، فعلى الرغم من تورطه في نشاطات غير قانونية، فإنه كان يعرف أهمية القانون ومعنى أن يكون لديه حقوق! ولكنه ما لبث أن توقف عن ذلك فجأة، حين لمعت في رأسه فكرة سريعة، رسمت له في خياله نجاةً مضمونة وغير مشروطة، تتلخص الفكرة في أنه من المؤكد الآن أنّ تسجيلات الكاميرات التي أصبحت في حوزة المحقق، تثبت عدم وجوده في مكان الجريمة، إذ لو أنه ظهر في التسجيلات لما اتصل به المحقق أصلًا، ولتعرض للاعتقال مباشرة، إذن.. يملك زياد الآن إجابة رائعة ومنطقية، سيقول للمحقق بكلّ ثقة وثبات: لا بد أنكم رأيتم تسجيلات المراقبة، راجع يا سيادة المحقق دينيز أوموت التسجيلات، راجعها من فضلك، وستثبت لك بالدليل القاطع، أنني لم أكن في ذلك البيت يوم الجريمة المروّعة، بل ليتك يا سيدي تُراجع المواد المصورة حتى سنة ماضية، وسيتضح لك بما لا مجال معه للشك، أنني لم أزر الضحية في بيتها، منذ أكثر من عام.

هذه الفكرة جعلت الدم يرجع إلى عروقه تدريجيًا، وبدأ لونه بالعودة إلى تقاسيم وجهه، ولكن سرعان ما داهمته الفكرة اللعينة، الفكرة المدمّرة: إن لم أكن ظاهراً في تسجيلات الكاميرا، هذا يعني بالتأكيد أنّه لا يوجد أحد آخر ظهر فيها، فلو ظهر فيها أحدهم، ما اضطر المحقق إلى استدعاء كل من كان له صلة بالقتيلة!

Scanned with CamScanner

لاحقًا.. انبسطت أسارير وجهه وهو يخرج من أروقة النيابة العامة، خرج هادئًا رزينًا بنظراتٍ ملؤها الطمأنينة والثقة، وبقوامٍ رفيعٍ يضفي عليه مظهرًا منيعًا لا يقبل الخضوع للظلم، وعلى جبينه توحي التجاعيد الناعمة بقدرته العالية على التفكير العميق، وتُظهر للناظرين وعيًا ونُضجًا.

وهو يضع قدمه اليمنى في سيارته ليجلس، نظر إلى مقرّ النيابة العامّة نظرةً طويلة، كان أثرًا متهالكًا، في صدوع جدرانه زمانٌ منسيّ، وعلى أطرافه المتضعضعة حكايات العقود الماضية، ويظهر على نوافذه العتيقة آثار الشمس، وآثار الغيوم، تشعر وكأنه يستمد قوته من تراكمات الذكريات والقرارات القديمة التي اختزنتها جدرانه الرمادية، كم منَ المآسي عبرت أروقة هذا المبنى، كم ظُلم فيه بشر، وكم انتُقِمَ فيه من مجرمين فنالوا جزاءهم من حكم العدالة، تتجسد في ظل الأقواس المتشققة والأعمدة المائلة أناقةٌ مهترئة، هكذا يمتزج الجمال والتآكل ليخلقا صورة فريدة من صور الإبداع الزمني، نظر إليه زياد وقال حين استقرّ جالسًا في سيارته: كيف يُمكن للحقائق أن تكون مختبئة في أعماق هذا المبنى البائس!

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

5

حينَ كانَ طفلًا لا يتجاوز السابعة من عمره.. وجد نفسه متورطًا في مشهدٍ مرعب لا يمكن نسيانه، قال له عمّه وهو يشعل سيجارته إلى جانب جثة حبيبته التي فرغ من قتلها قبل دقيقة: يا زياد، تذكر في كلّ لحظة من حياتك أن الإنسان يسعى في هذه الدنيا دائمًا لأن يكونَ على خطى هابيل، ولكنّ جميع الأشياء من حوله تشدّه من أذنه باتجاه الطريق التي سلكها قابيل!

كان عمه جابر قدوةً له، وكان شخصًا محترمًا في الحيّ، يتمتع بسمعة لا تشوبها شائبة، بل وكان له من اسمه نصيب، فهو جبّار لخواطر الضعفاء والمساكين، ومن قبلهم لأولي القربى، لقد كان بحق صدرًا رحبًا يتسع للجميع، ولم يكن أحد قطّ يظنّ أنه سيصبح مجرمًا صلبًا منزوع الرحمة في لحظة من لحظات حياته، كان بعض أهالي الحي بعد جريمة قتل جابر لحبيبته يقول: صدق المَثَل، ليس كل ما يلمع ذهبًا! وبعضهم عانى صدمةً وذهولًا وفقدانًا لشعور الطمأنينة اتجاه الآخرين لسنوات، أما الطفل زياد فقد أكلت الصدمة منه وشربت، فكيف يمكن لعمه الذي كان يُعتبر رمزًا للنزاهة والشرف أن يقترف مثل هذا الفعل الشنيع؟ في الحقيقة لقد وقعت الجريمة وانتهى الأمر، وليكن السبب ما كان، فإنه لن يغيّر من الواقع شيئًا، كثيرةٌ هي التساؤلات التي ظلت تراود زياد وتعصف بسكينة حياته، زمن مليء بالتناقضات والصراعات، وقصص معقّدة ومؤلمة تصادفنا دائمًا في أروقة الحياة، كانت هذه القصّة من أفجعها رغم أنها ليست الأولى من نوعها، وفي لحظة تخلي غير مباشر عن الدين والعقل والإنسانية، انغمس جابر في براثن الجنون والغضب، فأغلقت يداه القويتان بقبضتيها الحديديتين حول عنق المرأة الشابة، مثبتًا إياها بلا رحمة في مكانها، وكأنه يحاول تحطيم كل تفصيل من تفاصيلها، بدت العيون الوحشية متوحشة أكثر بفعل العروق التي انتفخت في وجهه، والتي كانت تتلوى فيه كأنها أفعى، حاولت كوثر وبشراسة أن تتخلص من قبضته الموجعة، ولكن دون جدوى، كانت القوة الخارقة للطبيعة التي يتمتع بها الرجل تمنعها من الهروب، وتجبرها على الانكسار تحت سطوته المُهلكة.. هذه هي المرأة التي كانت تمثل مصدر سعادته

Scanned with CamScanner

وأمله، إنه يذبح سعادته وأمله بكلتا يديه! جابر الطيّب الذي كان يعتقد الناس أنه رمزٌ للوعي والتأني، يتحول إلى وحش بشري.. بدت ملامح وجهه الصلبة ملتصقة بالقسوة، وكأنها نحتت من الصخر الصلب الذي لا يمكن اختراقه بسهولة، عيناه.. تلك العيون الباردة والخالية من أي مشاعر، القاسية والمتبلدة، كأنها تبحث عن فريسة جديدة لتنقض عليها بلا رحمة، لغة جسده تعكس وحشية الروح داخله، أمّا حركاته فتكاد تكون همهمة، وكانت ملامح وجهه تبرز غضبًا ملتهبًا كالنيران، دون أي مكان للشفقة أو للندم، وحدها رائحة الخوف والموت ملأت المكان واستأثرت به، مختلطة بالفظاظة والقسوة العارمة التي تتصاعد مع كل ضربة قوية من يده القاتلة، سلّمت المرأة روحها، وانطفأت أنفاسها، وانتهت أحلامها الجميلة إلى الأبد، وتلاشى صوت صراخها الذي شكّل نغمةً مأساوية لا يستطيع أحد نسيانها، وسط هذه الفوضى العاطفية والعقلية وأمام هذه الوحشية غير المسبوقة، بقي زياد الطفل مُتسمّرًا في مكانه يرجف خوفًا، وتسيطر عليه مشاعر لا يستطيع لها وصفاً، ولا يقدر اليوم على مجرد تخيلها، كانت دقات قلبه تتسارع، وعقله يتشابك في محاولة لفهم ما يحدث.. بينما أشعل عمُّه سيجارته تلك وقال له ما قال.

وقف زياد لاحقاً في قاعة المحكمة، يراقب بعينين ملؤهما الدهشة والصدمة وجهَ عمه الجامد، المنزوع منه كل بريق، أخذ يتأمل جلوس عمّه بهدوء، وعدم ظهور أي علامة من علامات التأثر على هيئته، منظره العام يُعطي انطباعًا بأنه يتحدى العالم ببرودة قلبه وثباته في وجه التهم الموجهة إليه، أخذت المحكمة بدورها تقدم الأدلة وتستدعي الشهود الذين كان من ضمنهم زياد نفسه، وترسم صورة مفصلة لجريمة القتل البشعة، ثم جاءت لحظة الاعتراف، وواجه القاضي المتهم جابر، وطلب منه التصريح بما حدث حقًا، والذي كان يومها.. هو أنه لم تتردد الكلمات في الخروج من فمه بثبات ووضوح، واعترف بجريمته بهدوء تام، وراقب زياد ذلك بصدمة لا يمكن وصفها، في جوّ من الصمت خيّم على القاعة، لكنه لم يكن صمت الرضا أو القبول، بل كان صمت الدهشة والتعجب الشديدين من جميع الحضور، وفي هذا المشهد المؤلم، شعرَ زياد بأن عالمه قد تحطم نهائيًا، وأن الثقة التي أُسست عليها قاعدةُ حياته قد انهارت أمام عينيه قبل تمامها، نعم لقد انهارت هذه الثقة بعدما ناءت بأثقال الخيانة

Scanned with CamScanner

والخذلان، سقطت إلى الأبد في رائحة الدم والموت التي لا يمكن محوها من الذاكرة، ها هي خطوط الحزن والأسى ترتسمُ على وجهه الصافي البريء، وها هي الدموع تتساقط من عينيه ببطء، في الوقت الذي كانت فيه ترتفع أصوات الضجيج في القاعة، تركت تلك اللحظات المروعة أثرًا عميقًا في عقله الصغير وقلبه، حيث باتت الصورة البشعة للجريمة تلاحقه في كل لحظة وتطارده في كل حلم، وكانت الأفكار المظلمة تتسلل إلى عقله الطفولي الساذج بشكل متكرر، مثقلة بالشك والخوف والقلق، مما جعله يعيش في حالة من الارتباك والتوتر الدائم لسنواتٍ لاحقة، وترك في شخصيّته نوعًا من أنواع الاضطراب، نتيجة لتلك الصدمة النفسية الهائلة، بدأت بميله صغيرًا إلى الانغلاق والانعزال، فأصبح أكثر ترددًا في التواصل مع الآخرين وفي التعبير عن مشاعره، وتغيرت طبيعة علاقته بهم، وأصبح كذلك أكثر حذرًا وشكاً اتجاه من هم حوله، وفقد القدرة على إنزال الآخرين منازلهم الصحيحة في نفسه، وفشت فيه بعض الصفات الناتجة عن الانفعال السريع، فحمَل أو حُمّلَ أوزار الحزن والغضب والخوف على كتفيه، دون أن يجد الطريقة المناسبة لتخفيف العبء الذي يثقل كاهله، الآن وبالرغم من مرور زمنٍ طويل، ومحاولات زياد في التّغلب على ما حدث، إلا أنه لم يستطع التعافي بالكامل من الصدمة التي تعرض لها، وما أشبه جريمة قتل عمّه لكوثر، بما رآهُ في منامه من قتله زينب.. من يدري ربما جعلته الكوابيس نسخةً كربونيّةً من عمّه.

Scanned with CamScanner

6

أجد نفسي مستعدة لأي تنازل من أجل أن نكون معًا، بينما لا يكترث زياد لشيء، إنه يجبرني على البقاء مُعلّقةً معه، لا بقوة النار والبارود طبعًا، بل بسلسلة لا تنتهي من العهود والوعود والمواثيق، وأنا ضعيفة جدًا أمام هذا الرجل، هذا الحلم الذي لا أريد أن أستيقظ منه.

زياد في نظري هو العالم المليء بالإمكانيات والمغامرات التي لم أخضها من قبل، هو كل شيء مذهل ومجهول في نفس الوقت، وأهمّ ما في شخصيّته، هو أنه يمثل لي تحديًا مستمرًا، ليس فقط بسبب طبيعته الغامضة وما يُحيط بها من الألغام، بل بسبب عدم قدرتي أيضًا على فهمه تمامًا، هل هذا عجيب؟ قد يكون غريبًا وعجيبًا بالنسبة للبعض، ولكنني أرى أنّ عدم فهمنا جيدًا لأحدهم قد يكونُ بوّابتنا إليه، وأنا أؤمن كثيرًا بقول القائل: «العشق هو قوة تجبرنا على الانقياد لأشياء لا نستطيع فهمها تمامًا» كل ذلك يزيدني فضولًا، وأنا امرأةٌ فضوليّة، وأعشق التحدي.

لأكن صادقة.. أنا لا شيء في حضرته، وهذا الضعف يجعلني أتنقل بين القرب والبعد، التسليم والمقاومة، الذهاب والعودة، إنها معركة دائمة بين مخاوفي ومشاعري تجعلني معلقة بكل جوانبه المتناقضة.. الحقيقة المؤلمة التي اكتشفتها هي أن العلاقات ليست مستقرة بشكل دائم، وأن تلك الرومانسية القوية التي شعرت بها في البداية قد تلاشى الكثير منها مع مرور الزمن، بدأت أدرك أنه ليس كل ما يبدو على ما يرام في البداية، سيظل كذلك دائمًا..

بدأت أدرك ذلك بوضوح عندما شعرت أول مرة بضعف العلاقة التي كنت أعتقد أنها قوية للغاية.. لقد كانت اللحظة المحورية في تلك اللحظة الصغيرة عندما وجدت نفسي أتساءل إذا ما كان الحب الذي شعرت به في البداية مجرد وهم، أم أنه شيء حقيقي وثابت؟ تتغير الأشياء والأشخاص، وتتبدل العلاقات.. يبدو أننا ننسى هذه الحقيقة البسيطة في بعض الأحيان، ونتوقع أن تبقى الأشياء كما هي إلى الأبد.. ولكن الحقيقة المؤلمة هي أن الحب قد يضمحلّ مع مرور الوقت، وأن الأشخاص قد يتغيرون بطرق لا يمكن التنبؤ بها، وربما اختلفت الأولويات، وتغيّرت الاهتمامات،

Scanned with CamScanner

وقد تموت الطموحات.. بدأت أشعر أن الحب الذي كنت أعتقد أنه سيدوم للأبد ربما يكون مجرد حلم، وأن العلاقات تحتاج إلى عمل مستمر وجهد كبير للحفاظ عليها، لم يكن الأمر سهلًا، بل كانت هناك لحظات عديدة من الشك والقلق والحزن، لكن في نهاية المطاف أدركت أن الحب الحقيقي ليس في الرومانسية الساحرة، بل في القوة والتفاني والتضحية والعمل الشاق، أدركت جيدًا بعد أربع سنوات من حبي لزياد أن العلاقات في شكلها العام حظوظ.. يتبع هذه الحظوظ الكثير من المحاولات والتنازلات، ومع كل تحول وتحدي جديد في العلاقة علينا أن نكون على استعداد للتغيير، وعلى قدر كبير من المرونة، حتى لا نجد أنفسنا في دائرة من التباعد العاطفي التدريجي، فربما كان هذا التحول الزمني فرصة لنضوج العلاقة وتوسعها، حيث يتعلم الشريكان كيفية التعامل مع التحديات والصعاب بشكل مشترك، وهذا ما أنا وزياد عليه اليوم.. وبرغم تجاربنا الصعبة، وجدنا طريقنا للبقاء معًا.. لا أعلم كم يدوم! وهكذا.. أصبحتْ أقوى وأعمق مع كل محاولة جديدة للاستمرار، لأنّ الحبّ بالنسبة لي أصبَح هو العامل الذي يمنح المعنى والأهميّة لحياتي، لم يكن شعورًا جميلًا فحسب، بل كان قوة محركة تدفعني للتغلب على التحديات والصعوبات التي تواجهني في الحياة، وبالمعنى القرآنيّ العميق.. هو السّكن لهذا القلب الذي لا يزال مضطربًا ما دام وحيدًا، ثمّ ما هي الأنثى؟ أليست هي الوسط الدائم بين قوة العواطف وهشاشة النفس؟ بلى.. الأنثى هي الانهيار المختبئ خلف كل أقنعة القوة والثبات، فهي التي فُطرت على أن تتجاوز أحزانها وآلامها بصمت، وأن تعيش صراعًا دائمًا بين الرغبة في التألق، والقلق من الفشل، وبين الحب الذي يمنحها القوة والجرح الذي يشعل فيها الألم! نعم أنا الأنثى.. جبل القوة الذي ربما هدمته كلمة!

على ضفاف بحر مرمرة الهائج، وفي هذا المكان المضطرب والجميل، تقرر ريما أن تواجه تلك المعركة الدائمة داخلها، تقتطع لعقلها وقلبها ساعةً من كلّ أسبوع، وتأتي إلى هذا الشاطئ، إنها تؤمن بأنّ أهميّة التواصل مع الذات أعلى بكثير من أهميّة التواصل مع الآخرين، فخلوة الإنسان بنفسه تعلمه التفكير والتأمل، وتمنحه الاسترخاء، وتصقل مواهب شخصيّته، وإذا كان لشيء فضلٌ في بقاء الإبداع الإنسانيّ على وجه هذا الكوكب، بل ونموّه عامًا بعد عام، فلن يكون هذا الفضل إلا

Scanned with CamScanner

لخلوة الإنسان بذاته.

تؤمن ريما أيضًا أنّ الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه، لذلك لم تسمح لهذه الساعة الأسبوعية أن تزيد فتتصل ببعضها البعض فتنقلها من نعيم الخلوة إلى جحيم العزلة، ومنذ بدايات الوعي والمواجهة مع الوجود، اتخذت من مشاعرها ومخاوفها وآمالها أصدقاء، فهي تقيم مع الجميع حوارات مفتوحة، تمشي على الرمال وهي تستمع إلى أصواتها الداخليّة المتعددة، وتدرك أن القوة ليست فقط في المقاومة أو التسليم لما يكون سلبيًا من مشاعرها، بل في القدرة على قبول تلك المشاعر والتعايش معها بسلام، ليس عليها إذن أن تكون قوية بلا استثناء، وليس عليها أن تقفز في المجهول دون خوف، تستطيع ببساطة أن تكون صادقة مع نفسها، وأن تقبل مشاعرها كما هي، وأن تسير بخطوات ثابتة نحو ما ينتظرُها في المستقبل، لكن هل وصلت إلى هذه القوّة النفسيّة في التعامل مع الهموم الوجوديّة والعاطفيّة بسهولة؟ لم يكنِ الأمر هيّنًا.. فكما تقول دائمًا لصديقاتها: أوّل رمشة عين لي في هذا الكوكب، كانت هي ذاتها آخر رمشة في عين أُمي! يا لها من بداية! ماتت أمها وهي تلدها، هل يعرف الآخرون ما معنى أن تكون قيمة حياتك هي حياة أمك؟

منذ الطفولة.. وجدت ريما نفسها في مواجهة مباشرة وقاسية مع أعظم قلقٍ عرفته البشرية، الموت والحياة.. لتبدأ رحلتها الشائكة بالسؤال المعتاد: ماذا لو لم يكن هناك موت؟ قد يكون هذا السؤال منطقيًا في دواخلنا عندما يرِد علينا ونحن في أول الشباب، لكنه داهمها وهي طفلة، وأخذ شكل الهاجس في مرحلة شبابها.

وإذا دققنا، فسنجد أنّ إحساس «كراهية الموت وحبّ البقاء» الذي يولد معنا يجعل أكثر الناس يسألون هذا السؤال، بينما القلة القليلة منهم يسألون: ماذا لو لم يكن هناك حياة من الأساس؟

كلّ محاولات الفلاسفة والأدباء في إيجاد تفسير منطقيّ للحياة والموت لم تتوّج إلا بالفشل، وحدها التفسيرات الدينيّة أثبتت جدارتها في هذا الباب، إنّها الحكمة الإلهيّة التي لا تعلوها حكمة، فكن واثقًا بربّك أيها الإنسان الحيّ، ذلك كان اعتقادها.

حرِصَ والد ريما، الرجل الطيّب، أن تكون الزوجة الثانية زوجةً طيبةً متدينة،

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوض ةحوسمل

تعينه على رعاية الطفلة اليتيمة، اليتيمة؟ هل يصّح أن نقول فلان يتيم إذا فقد أمه؟ يقال هذا عادةً لمن فقد أباه، فماذا يقال لمن فقد أمّه؟ قالوا: إنّه دار أيتام! وكذلك كانت ريما..

كانت زوجة الأب طيبةً وتخاف الله بحقّ، وكانت الطفلة محور اهتمامها بصدق، في الأمسيات، كانت تقوم بقراءة القصص لها، وبمشاركتها في حوارات تثري مخيلتها الصغيرة، كانت تشجعها على التعبير عن أفكارها ومشاعرها، وتجيب على كل استفسار يطرحه الفضول البريء لدى الطفلة، بحنان أمّ حقيقية، لم تكن هذه العناية مقتصرة على الأوقات الهادئة فقط، ففي اللحظات الصعبة، طالما قدّمت دعمها بشتى الطرق، ولم تبخل يومًا بالمشورة والنّصح ... كلّ هذا لم يجبر كسرَ ريما، بينما أجبرتها الحياة كما تُجبرنا جميعًا على اجتياز ما يعترضها سواءً بدمع القهر، أو بابتسامة العجز.

اليوم.. ورغم كلّ ما مرّت به من تجارب منحتها الحكمة والقوة، إلا أنها لا تزال حتى هذا العمر، ساذجةً إذا تعلق الأمر بالقلب، ومن ذلك أنها وعلى مدى سنواتهما الأربع لم تكن لديها أية معرفة بحقيقة عمل زياد في مجال تهريب البشر، فهو تاجر التحف القديمة، وليس ثمّة أي شكوك لديها اتجاه طبيعة عمله، كلّ ما في الأمر أنها تشعر أحيانًا أنّ جانبًا من حياة زياد يبقى مجهولًا بالنسبة إليها، ربما يكون هذا الجانب خاص بعلاقاته السابقة، هكذا تُرجح في أعماقها، في النهاية.. ستظلّ تحترم خصوصيته، فمن حقه أن يحتفظ بأسراره الخاصة، وهذا أحد أسباب عدم خوضها في تفاصيل عمله أو ماضيه.

هذا هو منزلها، كان يومًا جميلًا، لولا بعض المنغّصات التي تتعلق بلقائهما، التقطت زهرة صغيرة من الحديقة الخلفية لتضعها في مزهرية جميلة على الطاولة، ثم جلست في صمت، وقبل أن تخلع ملابسها، تحاول معالجة الأفكار والمشاعر والتساؤلات التي كانت تدور في ذهنها بعد ذلك العشاء ... ثمة برود في مشاعره تجاهها وبخاصّة في الفترات الأخيرة، تلك اللهفة التي كانت في البدايات تلاشت تمامًا، والأسوأ من ذلك هالة الغموض التي بدأت تحيط به.. ربما كان هناك تغييرات

Scanned with CamScanner
CamScanner ـب حوضمم اهحسم

في تفضيلاتهما وأهدافهما المستقبلية التي لم تعد تتطابق، وربما كانت هناك قضايا أو أمور لم تأخذ حقها من النقاش المفصل بينهما، من يعلم؟ لكن الواضح، هو أنّ الغموض أصبح سيد الموقف مؤخرًا، وأثّر كثيرًا على الاتصال العاطفيّ بينهما.

CamScanner ب ةحوسمم

7

أعلم أنّ بعض الناس قد يرون عملي بتهريب البشر من جحيم الحروب إلى أوروبا جريمة، لكني - ولا يعنيني رأي أحد - أعتبره واجبًا إنسانيًا.. أكون كاذبًا مراوغًا لو قلت إنني لا أقوم بهذا العمل من أجل المكاسب الشخصية وأفعله فقط لأنني أعتقد بأن كل إنسان يستحق حياة آمنة وكريمة، لا أدّعي هذا، ولكنني رجلٌ يجمع بين الحسنيين! إنني -وجميعنا كذلك- نشهد يوميًا معاناة الأشخاص الذين يعيشون تحت وطأة الحرب وأقدام التهجير والاضطهاد على أعين المجتمع الدوليّ، فهل يمكنني البقاء مكتوف الأيدي أمام هذا المشهد؟ أعتذر، ليس بوسعي أن أتصرّف كما تتصرّف دول العالم بصمت وبرود ولا مبالاة، كيف أفعل فعلهم هذا وأنا قادر على مساعدة هؤلاء الناس في البحث عن حياة أفضل، نعم، قد يكون الطريق شاقًا وخطِرًا، وربما حصلت بعض القصص المؤسفة، ومع هذا أؤمن بأنه يجب أن يكون للبشر فرصة للنجاة والبحث عن الأمان والحرية، قد يتفلسف أحدهم فيقول: «يجب أن تكون أي مساعدة مبنية على احترام القوانين والأخلاقيات» وقد يقول آخر: «هناك وسائل شرعية لمساعدة اللاجئين والأشخاص المحتاجين من خلال القنوات الإنسانية والمنظمات الحكومية وغير الحكومية» يا حبيبي أنت! إذا كان ثمّة فساد على وجه الأرض فهو في هذه المنظمات، وبخاصة الحكومية منها! ولطالما هرّبتُ أنا بنفسي مجموعات بشريّة من خلالهم! وحصل ذلك كله من تحت الطاولة! أمّا القوانين والأخلاقيّات وهذا التنظير الفارغ فلا ينقذ هاربًا واحدًا من ضحايا الحروب، وأزيدك من الشعر بيتًا، إنّ تعقيدات القوانين الدولية، والأخلاقيّات المفصلة بحسب كلّ بلد وفهمه الخاص لها ضاعفت معاناة هؤلاء المساكين.. التحديات الإنسانية يا رامي تحتاج إلى حلّ دائم وواقعي ومنصف، أعلم أن قراري هذا ليس بالقرار السهل، ويكفيني كونه مستمداً من إيماني بقيم الإنسانية والعدالة، ولاحقًا.. رؤية الأشخاص الذين ساعدتهم يبنون حياة أفضل في بلدان جديدة تجعلني أشعر بالسعادة والرضا.

لم يُجب رامي على كلام زياد بشيءٍ يومها.. فقد كان خارجًا من المأساة للتو، غادر المقهى وكأنه يحمل كوكب الأرض على كتفيه، إنّ الذي حصل سيظلّ جاثمًا على

CamScanner تم مسحه ضوئيا بـ

صدره كلّ العمر، لم يكن يتصور في يوم من الأيام أنه سيفعل ما فعل، ويا لشؤم ما فعل! هناك في البحر الهائج، حيث كانت السماء متجهمةً بغيومها السوداء، والرياح تعوي من كلّ جانب، كان رامي العشرينيّ صاحب العيون الخضراء واقفًا على متن المركب يأكل القلق ملامحه المتزنة، وتدهمه الأمواجُ الغاضبة، وهو يقود بحذرٍ شديد، مُقلبًا عيناهُ بحثًا عن مخرجٍ لهذا الطاعون البحري.

سفينة صغيرة متهالكة، ولا أعلم بصدق إن كان جائزًا لنا أن نسميها سفينة! فهي تُشبه كل شيء إلا السُفن، جدران متشققة، طلاء متقشّر لم يبق منه إلا أقل القليل، خشب مهترئ، تشعر وأنت تنظر إليها وكأنك تنظر إلى رجلٍ مُسنّ غطّت التجاعيد ملامحه فصارت هذه التجاعيد هي وجهه لا الملامح التي كانت فيه على مرّ العقود، تتوزع عليها الأخشاب المكسرة، مع تجاويف وثقوب هنا وهناك تبدو للناظر وكأنها جروح في جسد صاحبنا المُسنّ! ثمة راية مهترئة تتأرجح فوق غطاء المحرك، مع كومة من الحبالِ المتشابكة والعتيقة تشير إلى عجز السفينة عن مقاومة أمواج البحر العادية، فما بالك برياحه العاتية؟ أمّا الأوساخ والبقع فحدّث ولا حرَج، ومهما حرصت فإنّك لن تجد نافذةً واحدةً من نوافذها سليمة..

تمتلئ الأرضية بالبشر الملتفين على أنفسهم، بينما يتدافع البعض الآخر للعثور على مساحة ضئيلة للجلوس أو الاستناد إلى شيءٍ ما وهم وقوف، إنهم يتكدسون بشكل يصعب معه التحرك أو التنفس بحرية، يوجد ممر صغير للغاية بين أكوام اللحم هذه، لا يتجاوز عرضه عدة سنتميترات، بالكاد يتسع لقدمين معًا، في حال احتاج رامي المرور لأي سبب، تتراكم الحقائب والأمتعة في كومة غير منظمة في الزوايا، معلقةً على الحبال أو مرميةً على الأرض، مما يضيف إلى الفوضى والاضطراب غمًا وضيقًا، ولك أن تتخيل في هذا الجو روائح العرق وزنخ البحر، ونوع المعركة التي يخوضها الجهاز التنفسيّ في هذا المكان.

الجميع هنا ينتظرون بفارغ الصبر وصولهم إلى بر الأمان، تنوّعت أعمارهم وأجناسهم، وخرجوا وهم يحملون آمالهم وأعمارهم على أكفّهم! ومن دون هؤلاء جميعًا امرأة مسنة تجلس هادئةً وخائفةً ووحيدة، تحفر السنوات الطويلة أخاديدَها

Scanned with CamScanner

على ذلك الوجه النحيل الذي لم يبق منه إلا بريق عينيها السوداوين، كانت هشة وضعيفة وكان الجوّ باردًا.

فجأةً.. تسارعت الأمواج وارتفعت ارتفاعًا مخيفًا، وخطفت علامات الفزع أوجه الناس في المركب، وجرح صراخ الأطفال ذلك الصمت وتلك السَكينَة، ثم ما لبث أن تجاوزهم إلى الكبار، فإذا جميع من في المركب يصرخ، إنّهُ الغرق، ربما يكون على بُعد موجة أو موجتين! أدرك رامي أن الأمور ساءت كثيرًا، وأنها تخرج عن السيطرة موجةً فموجة، ولا مجال أبدًا للتفكير، جاء وقت القرار الصعب.. وبغير تردد، اقترب رامي وأمسك بيد المرأة المسنة وأمسكت هي بيده بقوة، لم تخمّن المسكينة ماذا سيفعل، ثم بلطف وحزن، أدار وجهه للجهة الأخرى، ودفعها بيده إلى البحر! لم يكن هناك متسعٌ لدقيقة صمت.. ولكنّ الجميع صمتوا هنيهةً لهول ما رأوا، ثم عادت الصرخات من جديد، وتمادت الرياح العاصفة، والأمواج المتلاطمة في محاولة إغراق المركب الصغير.. وألقى رامي بعد المرأة المُسنّة بشابّين، حتى يستعيد المركب شيئًا من توازنه وقدرته على الصمود، وحتى تهدأ الأمور تدريجيًا، لم يمت الشابان، أنقذهما خفر السواحل وقد أوشكا على الموت، أمّا المرأة فماتت من فورها، ماتت ليعيش الجميع!

ما الذي كان يجول في رأسه حينَ دفعها إلى الموت؟.. كانت مشاهد اللقاء الذي جمعه بابن هذه المرأة قبل الرحلة، وذلك حين التقيا في أحد مقاهي الشليمانية بإسطنبول، وتحدثا مليًا بشأن الرحلة، أبدا رامي يومها الكثير من الثقة خلال حديثه عن الطريق البحري الذي سيسلكه، وطمأن الشاب بسلامة وصول أمه سلفًا، وأنّ الأمر يحصل بشكل دائم وليس ثمّة ما يبعث على الخوف، واستمع كذلك بعناية بالغة لمخاوف الشاب على أمه، وأنه لولا الوضع المأساوي وحاجتها الضروريّة للرعاية الطبيّة، ما غامر بإرسالها بمفردها، ولرجّح على ذلك الانتظار.. بينما يجمع أو يقترض مبلغًا يُمكّنه من مرافقتها حرصًا على سلامتها، يهزّ رامي رأسه متفقًا مع ما يسمع، وكلما أُتيحت له الفرصة خلال الحديث زاد في طمأنينة الشاب، وطلب منه أن يسلّم الأمر لله وأن يكون شجاعًا وعلى قدر المسؤوليّة! وفي ختام الحديث وعده بأنه سيعاملها كما يعامل أمه تمامًا، بكلّ حرص وعناية!

٢٧٠٧٩٠٢٣٣١
Scanned with CamScanner
ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هدأ الجوّ واستقرّ المركب، قلّب رامي نظره في الوجوه المرتعبة حوله، وهو يقول في أعماقه: «لقد فعلتُ ما يلزم من أجل النجاة، نجاتكم جميعًا» تبريره هذا لنفسه، لم يمنع الغصّة أن تقف في حلقه، فهو لم يتعرض من قبل لموقفٍ بهذه الصعوبة، سوف يدفع الثمن بحمله عبء هذا اليوم طوال حياته.

***

حين أخبر زياد بهذه الكارثة لم يكترث، وقال ما قال في نظرته العامة للعمل بالتهريب، ولم يكلّف خاطره حتى بالترحم على المرأة، صحيح أنّ هذه الحادثة ليست الأولى التي ترد على زياد، ولكن نعم يمكن لكثرة النوازل أن تؤدي بالإنسان إلى فقدانه الحسّ بالمعاناة، خاصّة إذا تعلّقت بغيره، ولو كان هو بنفسه جزءًا من صناعتها، هذه الظاهرة يعرّفها البعض بأنها «تعب الحروب» أو «الانفصام المأساوي» ويكون عندما يتعرض الإنسان لأحداث كارثية بشكل متتابع ومستمر، يؤدي به ذلك إلى أن يتجاهل المأساة كأنها لم تكن، وعادةً ما يضطرب نفسيًا وعاطفيًا أول الأمر، ثمّ إذا استمرّت الأمور بالسير إلى الأسوأ، فإنه قد يفقد الضمير كليًا.

يعتذر عن ذلك بعضهم بأنّ نظام الدماغ البشري معدّ للتكيف مع البيئة بحسب كلّ التطورات الطارئة عليها، وأنه عند تكرار الحوادث المؤلمة يتوقف الدماغ عن الاستجابة للمؤثرات السلبية كوسيلة للبقاء على قيد الحياة، مما يجعل الشخص يبدو قاسيًا للغاية، فهل يكونُ هذا مُبررًا لزياد في عدم اكتراثه؟ لا أعلم، ولكن الانفصام المأساوي يمكن أن يكون خطيرًا، حيث يمكن أن يؤدي آخر الأمر إلى فقدان القدرة تمامًا على التعاطف مع الآخرين فضلًا عن تقديم الدعم لهم في الأوقات الصعبة، والأولى في هذه الحالات ادّعاء التفاعل مع المأساة ولو كذبًا، ليحاول الإنسان بذلك عدم الاستسلام لحالات التعب والاعتياد.

بصعوبة وارتباك وحزن، أخبر رامي ابن المرأة بالمصيبة التي كان لا بدّ أن يستسلم أمامها، فما حيلته مع القضاء والقدر؟ أخبره رامي أن المركب قد غرق بمن فيه، ونجا هو بأعجوبة، أدركه خفر السواحل كما أدرك الأمّ، ولكن بكل أسف، لم تقاوم أمّك، واستسلمت، بقي عليك استلام الجثة من المستشفى!

Scanned with CamScanner

الغريب العجيب بحق، هو أنّ كلّ هذا حصل في نفس الليلة التي رأى فيها زياد حلمه ذاك، الحلم الذي قلب حياته رأسًا على عقب، هل هناك مصادفة ما؟ وما السرّ في أن تموت هذه المسنّة في مركب يملكه زياد، وأن يرى هو في ذات الليلة نفسه مجرمًا يقتل امرأة أخرى في بيتها، ليجدها في اليوم التالي مقتولةً فعلًا!... قد لا يكون هناك أيّ ربط بين الأمرين، وقد يكون هذا التوافق في الجريمتين صدفةً، من يعلم؟ أمّا الأسوأ فلم يأتِ بعد، فزياد وبعد شهر مرّ على كابوسه ذاك، وبغير أيّ تطورات على مسرح الواقع لدى النيابة العامة فيما يخصّ المجرم الحقيقي، كان على موعد لعين مع جريمة أخرى مرعبة، في حلمٍ آخر!

Scanned with CamScanner
CamScanner تم المسح الضوئي باستخدام

8

عُرفَ «دينيز أوموت» المحقق الماهر بذكائه العالي، ودهائه العظيم، وقدرته على تتبع أدقّ التفاصيل في مختلف القضايا، ولطول صبره الذي يمنعه من تسجيل أيّ قضيّة ضدّ مجهول مهما كانت شائكة ومعقدة، كان رفاقه من المحققين يلقبونه «سلحفاة المستحيل» فماذا يحصل الآنَ في دهاليز النيابة العامّة بشأن مقتل زينب؟ وأيّ تقدّم ذلك الذي وصل له المحقق دينيز أوموت حتى الآن؟ مضى ما يزيد على الشهر، ولا توجد أي أدلة ملموسة تشير إلى القاتل، وأوموت قام بكل ما يتوجبّ عليه وبدقة شديدة، انغمس في تفاصيل الحياة الشخصية لزينب وتعامل مع كل الاحتمالات، ومع ذلك لم يصل لأيّ خيط يمكن أن يُفضي إلى القاتل، وعلى خلاف الأفلام الأمريكية لم تشكّل هذه القضيّة له تحدّيًا، فعلى مكتبه أوراق ما يزيد على ثلاثين جريمة كُلّفَ بتتبّعها، وحول كلّ جريمة هالة من الغموض، وهو يتنقّل بين هذه الجرائم ليل نهار، وإذا كان ثمة ما يشعره بالتحدّي دائمًا، فهو أن لا تُسجل قضيّة واحدة في تاريخه المهني ضد مجهول.

كما أسلفتُ قبل قليل، لم يكن المحقق أوموت كأي محقق يراه الجمهور على شاشة التلفزيون، لم يكن يظهر عليه الاهتمام المفرط بالقضايا بحيث يصل الليل بالنهار والنهار بالليل على مائدة عمل مكتظة بالملفات والأدلة، على العكس كان ذا حياة بسيطة ودقيقة بمواعيدها، يأتي إلى مكتبه صباحًا، وعند نهاية الدوام يغادر دون تأخير، لا يتجاوز وقت العمل المحدد، ويؤمن أن العمل الجاد ضمن ساعات الدوام يمكن أن يحقق نتائج أفضل من العمل المفرط خارج هذه الأوقات، أمّا الليالي فكانت مختلفة بالنسبة له، يجلس وحده في منزله، ليمضي ما لا يزيد عن ساعة واحدة من كلّ ليلة في التأمل والتفكير بما لديه من تفاصيل القضايا، وبدون أن يكون معه أي ورقة تخص أيّ قضية، يترك الأمر لعقله وحده، ويعدّ هذا نوعًا من أنواع التمارين الذهنية الضرورية من أجل ذهنٍ حادّ ومُتقد، هذه الساعة الساكنة التي خصصها للتأمل تمهد له الطريق إلى الاستنتاجات المفضية - بشكل أو بآخر - إلى حلّ لغز من الألغاز التي تتدحرج في عقله، لماذا يختارُ الليالي للتأمّل؟ يزعم

Scanned with CamScanner

أوموت أن الإجابات الصعبة تختبئ غالبًا في أعماق الليل والهدوء.

قضيته الأخيرة تتعلق بأحد أخطر مجرمي العصور الحديثة، جرائم لا تمحوها الأعوام ولا تكشفها الأدلة، وبينما كان مستغرقًا في ثغرة بقي أشهرًا يبحث عنها، ثغرة قد تؤدي إلى دليل يوقع القاتل في قبضته، بعد سنوات من جمع المعلومات لم يكن ليخطر على قلبه بحال من الأحوال أنّهُ هو من سيقع في قبضة القاتل! وفي اللحظة التي لم يكن يتوقعها، طُرقَ باب بيته برفق، لم يستغرب، فهو ينتظر قطعة البيتزا التي طلبها من المطعم.. في طريقه ليفتح الباب مرّ على بنطاله المعلق، وأخذ بطاقة البنك ليدفع قيمة البيتزا، فتح الباب، لم يكن عامل التوصيل، بل كان الطارق رجلًا مألوفًا.. إنّه رضا، أخوه من أبيه، لم يلتقيا منذ فترة طويلة.

ملأت الدهشة وجهه: رضا؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟ ثمّ انتبه أنّه لم يرحب به، فاستدرك قائلًا وهو يشير بيده إلى الداخل: عفوًا تفضل تفضل، مرحبًا بك، تفضل.

تبادلا الأخبار والأحداث والمستجدات على صعيد العائلة والحياة بطريقة مقتضبة نوعًا ما، وتخلل ذلك وصول الطعام، فأبدا رضا رفضًا من باب اللباقة المُصطنعة عندما دعاه أوموت لأن يشاركه الطعام، مُدّعيًا أنه أكل قبل مجيئه، وأثناء أكل دينيز أوموت وقبل فراغه بقليل، أخذت ملامح الجدية تنعكس على وجه رضا، وبدا كأنه يحمل كربًا ثقيلًا، مما جعل دينيز يقول وفمه يلوك آخر لقمة: ما لك تحتدُّ وتغلي هكذا، ألا تغيّر طبعك هذا؟

بصوتٍ ثابت وحاد: هناك أمور يجب أن تعرفها يا أوموت، ثم بهدوء وبطء.. راح يذكر جرائمه واحدة تلو الأخرى، هل تذكر جريمة كذا وكذا؟ وجريمة كذا وكذا؟ وراح يتحدث عن معلومات حساسة، معطيًا تلميحات عن أشياء لم يكن أوموت انتبه لها، وأوموت يتفاعل معه وهو في حالة من الذهول، إثرَ تكشّف الغموض القديم أمامه شيئًا فشيئًا.. توترت الأمور بينهما بعدما زادت حدّة الحديث، لقد ظهر جليًا لدينيز أوموت أنّ القاتل المتسلسل هو أخوه غير الشقيق رضا، وحين أوشك الحديث على النهاية، بحركة سريعة وخاطفة، أخرج رضا مسدسًا على فوّهته كاتم صوت، وأطلق على دينيز النار.

Scanned with CamScanner

- طالما كنتَ عقبةً في طريق انتقامي من هذا العالم يا دينيز، وكان لا بدّ أن يقتل أحدنا الآخر في النهاية، فلتكن أنتَ هابيل.. لقد أخذت هذا القرار بالنيابة عنك!

قالها ببرود قاتلٍ متمرّس، وبصوتٍ متمرّد، ووجه تظهر عليه عملاث الرضا، التي لا تبدو على وجهه النحيل إلا حين ترى عيناهُ الدم ... ليس بالقاتل العادي أبدًا، لقبه في المافيا التي يعمل معها «الضربة القاضية» فهو لا يدخل في جريمة إلا ويتمّها على أكمل وجه ويقضي على الخصوم بخفّة ودهاء قلّ مثيلُهما، وكما نجح في تعطيل جميع كاميرات المراقبة في المنطقة التي يسكنها أوموت، وبطمس كلّ أثر بعد قتله، كان بارعًا في فعل ذلك دائمًا.

منذ طفولتهما، لم يكن يجمع بينهما طبع أو هدف مشترك، وحدها رابطة الدم جمعت بينهما، وها قد أُريقَ الدم، ولم يعد يجمعهما شيءٌ إلى الأبد، لاحقًا.. ستكون هذه القضيّة، هي القضيّة الأولى التي يكون أوموت طرفًا فيها وتُسجل ضد مجهول.

مات المحقق إذن ومات معه سر خطير يتعلق بقضيّة زياد، وهو أنّ أوموت عند مراجعته الكاميرات رأى زياد فعلاً! ولكنّه اكتفى باستدعائه إلى التحقيق، ثم تركه يغادر النيابة العامة، لم يتخذ أي إجراء يمكن أن يقيّد حرية زياد، كأن يضعه عدة أيام على ذمة التحقيق مثلًا، بل إنّ الأمر كان أعجب من ذلك، فهو لم يخبر زياد بشيء، أورد عليه بعض الأسئلة ثم تركه، فما الذي دفعه إلى أن يترك مجرمًا ثبت عليه الجرم بالدليل المرئي حرًا طليقًا؟.. خيوط مُشتبكٌ بعضها ببعض، خمّنَ دينيز من خلالها وبعد الكثير من الأخذ والرد والتفكير والتدقيق والتحليل أنّ زياد هو المسؤول عن سلسلة الجرائم التي ظهر الآن بكل أسف أن المسؤول الحقيقي عنها هو رضا، وكان تخمينه ذلك ناتجًا عن العديد من القرائن المؤدية إلى زياد، فكانت الخطّة تقتضي أن يمنح زياد الحرية المطلقة، وأن يضعه في الوقت نفسه تحت مراقبته الشخصية لأنّ زياد برأيه على قدر من الخطورة يخشى معها تكليف أي عنصر من عناصره بهذه المهمة، وبما أن وقته كان متخمًا بالقضايا أدى ذلك إلى تقصير قليل من جهته، ولو عاش أيامًا قليلة أخرى لتجاوز هذا التقصير، واستطاع عمل إحاطة كاملة بكل نَفس من أنفاس زياد، ولكنه مات بشكلٍ مأساويّ، نعم، تبدو فكرة ترك

Scanned with CamScanner

المجرم طليقًا تحت أي ظرف من الظروف ضربًا من ضروب الخيال، في الواقع فإنّ مثل هذه المغامرات هو ما جعل من دينيز أوموت مُحققًا مُختلفًا عن بقيّة المحققين، وبعد كلّ هذا ماذا سيحدث الآن، وإلى أين ستؤول الأمور؟

Scanned with CamScanner
ا ضوئيا ب CamScanner

9

وأي خطأ في أن تعمل أعمالًا خيريّة ومصدر أموالك من تهريب البشر؟ هكذا بكلّ بساطة يفكر زياد متجاهلًا ببروده المُعتاد طاقته الكبرى، ففي هذا العمل المُظلم الذي يجمع بين الجشع وجميع أنواع الفساد تلاشت سؤالات الضمير في ذهنه، وأباحت له نفسه الطامحة جميع الطرق المؤدية إلى غاياته، هذه النفس التي قضت قسطًا من الزمان على سفح التهميش، انتفضت على كلّ شيء، وولعه الشديد بأن يكون بطلًا خلق في أعماقه شعورًا حجب عن بصيرته مآلات الأشياء، فمفهوم البطولة عنده يتمثل في الوصول إلى الهدف من أيّ جهةٍ كانت، ولذا كانت اللوحة المعلقة خلفه في محلّ التحف القديمة خُطّ عليها بخطّ الرقعة العبارة الشهيرة: الغاية تبرر الوسيلة.

ومثل أكثر المجرمين في هذا العالم يهتمّ زياد بالأعمال الخيرية، ويُنفق فيها الكثير من وقته وماله، بما يشعرك أنه نوع من التكفير غير المقصود عن ذنوبه المرعبة، أو محاولة رشوة لشراء مروره في امبراطورية الفساد الأخلاقي، وها هو الآن يقف على منبر "الجمعية الإنسانية لرعاية الأيتام" ليلقي كلمته المقتضبة، تنحنح ليجذب انتباه رجال الأعمال الذين يحضرون في الثالث من أكتوبر كلّ عام، ليدفعوا للجمعيّة ما تيسّر من أموالهم المنهوبة وغير المنهوبة! وها هو ينجح فعلًا في جذب أنظارهم إليه، ليقول بنبرة ملؤها الثقة والادّعاء:

في هذا الفضاء الذي يضجُّ بأصوات الضحك والبهجة، نجد أنفسنا أيّها الأصدقاء - جعل نفسه صديقًا لهم! - نجد أنفسنا واقفين على الرصيف الآخر من هذا العالم - يتنحنح بطريقة مصطنعة- يتابع: هنا حيث "الجمعية الإنسانية لرعاية الأيتام" المأوى الذي يجمع بين القلوب الرحيمة والصغار الطيبين، في مكان يبعث على الأمل والحب، ولذلك أسميه أنا شخصيًا: جنة الأرض.

يعود ويتنحنح، ثمّ يكمل: في البداية، لا يمكننا إلا أن نثني على جهود العاملين في هذا المكان المبارك، إن ما يقدمونه من وقت وجهد وعطاء ليس مجرد واجب عمل، بل هو رسالة إنسانية تتجاوز الكلمات، يتخذون من دعم الأيتام وتوجيههم في

Scanned with CamScanner
CamScanner تم فحصه ضوئيًا بـ

هذا المرحلة الهامة من حياتهم مسألة شخصية واجتماعية، إنهم يبنون جسورًا من الثقة في أنفس هؤلاء الأطفال تمتد عبر الزمن.

أخذ يتحدث ويتحدّث حتى سئم الحاضرون من وجهه، وقال أحدهم ساخرًا لمن بجانبه: الذين يسرفون بالحديث عن الأعمال الخيرية وأهميتها هم الأكثر إجرامًا في العادة!

وأخيرًا ختم زياد بقوله: في النهاية، وأعتذر إن كنت قد أطلت، لكن لما لهذا الموضوع من حساسية لا تخفى عليكم، في النهاية أؤكد على أنه يجب علينا أن نتذكر دائمًا أن دعم الأيتام والمؤسسات الخيرية ليس واجبًا إنسانيًا وحسب، بل هو تعبير عن قيمنا وأخلاقنا، نحن هنا لنبني مجتمعًا أكثر إنسانيةً وتضامنًا، ليتمتع كل فرد بالفرصة العادلة للنمو والتطور، دعونا معًا نجعل من هذه الجمعية الإنسانية لرعاية الأيتام نموذجًا يلهمنا العمل الخيري والعطاء.

صفق له العاملون وبعض الحضور، بينما عاد هو إلى مقعده مبتهجًا، وما أن جلس بادره رامي مع ابتسامة فيها خبث واضح: لم أعرفك يا رجل!

غادرا بعدها بقليل، ثمّة موعد ضروريّ في أحد مقاهي اسطنبول الشاهدة على ملايين الأسرار المتعلقة بالأعمال الممنوعة، موعد مع وسيط سيدفع لهما الدفعة الأولى عن تهريب ثلاثين رأسًا من البشر خلال الأسابيع القليلة القادمة إلى مملكة الأحلام، جلالة العجوز أوربا!

***

في طريق العودة إلى البيت.. سلك زياد طريقًا مختلفًا، جعل رامي يستغرب منه ويسأل، وأتى جواب زياد دون أن يلتفت إليه، مستمرًا بالنظر إلى الطريق: ثمّة أمر عليّ أن أفعله، لن نتأخر، هل أنت مستعجل في عودتك للبيت؟ لا أبدًا، يُجيب رامي.

تظاهر زياد أنه يراسل عبر أحد التطبيقات شخصًا من الأشخاص، وبأن هذا الشخص يدله على الطريق هكذا إلى أن وصل إلى مكان مليء بالأشجار، وبالتحديد وصلا إلى غابات بلغراد، وبهدوء أوقف زياد السيارة وقال لرامي: دعنا ننزل.

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

كان الجو مليئًا بالبرودة الخفيفة التي تتسلل برقتها إلى العظام، مما يجعلك تشعر بالانتعاش، رائحة الأرض الرطبة تملأ الأجواء.. والأجواء هادئة بشكلٍ عام، سوى أنه تتخللها تموجات خفيفة من الرياح التي تتلاعب بأوراق الأشجار، وأصوات بعيدة لطيور ليليّة، وهمسات بعيدة أيضًا لحيوانات بريّة، يتسلل الضباب برقة بين أشجار البلوط العتيقة، وتتسلل أيضًا أشعة القمر خجولةً بين فجوات الأغصان، ليُسفرَ المشهد عن ثنائيات الأضواء والظلال، الجمال والغموض.

- لماذا نحن هنا؟ سأله رامي.

- سأخبرك..

لم يكن الأمر غريبًا على رامي ليشعر بالريبة أو الشك، فقد مرّ على عملهما معًا ما يزيد على ثلاث سنوات، اعتاد فيها مثل هذه المواقف والاجتماعات التي تحصل بعيدًا عن المقاهي، وبخاصة تلك التي تتعلق بتجارة الأعضاء!

اقترب زياد من رامي صامتًا، وأعطاه سيجارة، وأشعل هو واحدةً أخرى، ثم نظر إليه وقال: ثلاث سنوات يا رامي مرت علينا معًا، هل تذكر تعارفنا أول مرة؟

- بالطبع، ولكن ما الذي تريده من هذا المشهد السينمائي؟ أنا منهك، ماذا نفعل هنا في هذا البرد؟ هل تنتظر أحدًا؟

- نعم، أنتظر أحدهم..

- من؟

- عزرائيل!

لم يُمنح رامي فرصته الأخيرة للدهشة مما سمعه للتو، إذ باغتته سكين زياد بعدة طعنات اخترقت جسده بسرعة فائقة، منعته من التفوه بكلمة واحدة.. ليسقط ميّتًا من فوره.. هكذا الموت إذن، يشاهدنا من بعيد، يلاحق خطواتنا الصامتة، يترصد لحظاتنا العابرة، في انتظار اللحظة المناسبة ليدخل حياتنا دون إذن، كضيفٍ من غير دعوة، ينقض على من جاء دوره في الأوقات غير المتوقعة، وغالبًا في تلك اللحظات

Scanned with CamScanner

التي يشعر فيها الإنسان أنه أصبح خالدًا في مرايا الزمن، ولكنه في الحقيقة يكون في قائمة أسماء الأنام الذين لفظهم الزمان من دائرته ولم يمنحهم حتى فرصةً للوداع الأخير، وقد يزورك عندما تستيقظ من نومك، أو عندما تُسارع في عبور الطريق المزدحمة، أو حتى عندما تجلس في وقت الهدوء لتشرب فنجان قهوة، أمّا رامي فقد جاءَه الموت في طرف من أطراف غابة بلغراد.

جلس زياد إلى جانب الجثّة في الظلام، وأشعل سيجارةً أخرى على روح القتيل! ولكن هل يتركه هنا حتى يتعفن وتعلم به الشرطة بشكل أو بآخر، أم يدفنه؟ في تلك اللحظة المصيريّة، وقبل أن يقرر، استيقظ زياد من نومه فزعًا!

Scanned with CamScanner

10

لا يمكن للعلاقة بينهما أن تستمر بهذه الوتيرة الباردة، وبالطبع، بدأت تفكر ريما بجدية في أن هذا الوضع قد تجاوز حده، وأصبح من الضروري النظر في أمر الزواج، بعثت له رسالة: دعنا نلتقي غدًا.

كان الضوء يتسلل بين الستائر الخفيفة ليضفي لمسة ساحرة على الديكور البهي لمقهى «طيف اسطنبول » في منطقة بشكتاش الراقية، يعجّ المقهى بمظاهر الرفاهية، الجدران مطلية بألوان البيج الهادئة التي تعكس أجواءً مريحة، والأرضية مغطاة ببلاط رخامي أبيض وفيه عروق سوداء، رخام من النوع الفاخر، والأثاث مصنوع من خشب فاخر ومزين بتفاصيل معدنية مذهبة، أشرقت ريما من بعيد.. ترتدي فستانًا من قماش خفيف وناعم بلون زهري فاتح، يتدرج بأناقة نحو اللون الأبيض عند الأطراف، كانت خطواتها هادئة وثابتة، وتحمل حقيبة صغيرة لونها مزيج بين البيج والوردي على كتفها، مما أضاف لمسة رسميّة إلى مظهرها العام، في تلك اللحظة كانت ريما تمتلك تلك الجاذبية التي تجعل الجميع يلتفتون إليها بإعجاب، وعندما التقت عيناهما تبادلا ابتسامة سريعة ودافئة، جعلتها تسرح بذاكرتها إلى ذلك اليوم الذي اعترف زياد لها فيه بحبه.. لم يكن اللقاء مختلفًا عن هذا اللقاء إلا من حيث الجوهر، فقد كان أيضًا في أحد مقاهي بشكتاش.. لم يطل سرحانها في الماضي كثيرًا، ربما عبر المشهد رأسها عبورًا سريعًا، ثم جلسا على طاولة صغيرة مستديرة، مصنوعة من خشب بني ومزخرفة بنقوش فنية مميزة على حوافها، ومحاطة بكراسي مريحة، مبطنة بالجلد الناعم، وبنفس لون البيج الفاتح الذي يسود ديكور المقهى، على الطاولة فازة صغيرة تحتوي على باقة من الزهور الطبيعية، أعطت لمسة من الجمال الطبيعي والأناقة إلى الجو العام في المقهى.

لم يكن الأمر سهلًا عليها، لكنها قررت أن تكون صريحة ومباشرة، في البدء.. تبادلا القليل من الأحاديث ذات الطابع الاعتياديّ، ثم قالت له بلطف ودون مقدمات: زياد، أشعر أن هذه العلاقة قد تجاوزت المرحلة التي يمكن أن نبقى فيها أصدقاء أو عشاق بدون التزام، أشعر أنني بحاجة إلى الاستقرار، ولا أستطيع الانتظار أكثر، هل نستطيع

Scanned with CamScanner

أن نفكر معًا في المستقبل وفي إمكانية الارتباط بشكل أعمق؟ لقد عرفنا أنفسنا بما فيه الكفاية، لنكن معًا للأبد.

- عذرًا، ريما، يجب علينا تأجيل هذا الموضوع على الأقلّ في هذه الفترة، هناك بعض الأمور التي يتوجب عليّ إنهاؤها قبل أي خطوة في هذا الاتجاه.

في تلك اللحظة الفارقة، كان زياد متضايقًا بشدة، وتعكس قطرات العرق التي تتصبب من رأسه على جبينه فزعًا وشتاتًا، يحاول الهروب منهما باصطناع بعض الابتسامات، لقد مرّ أسبوع كامل على رؤياه المرعبة لجريمة قتل رامي، ولا تزال تلك الرؤيا تثقل كاهله وتزعزع قلبه بالشك والخوف، معززةً في أحشائه شعوره بالذنب على ذنبٍ لم يقترفه! والعجيب في الأمر وما يكاد يصيبه بالجنون فعلًا هو أنه حين استيقظ ذلك اليوم فعلَ ما فعله أول مرّة، فذهب إلى موقع الجريمة، وعلى خلاف الرؤيا الأولى، هذه المرّة لم يجد أي أثر لجريمة حصلت هناك، هذا عظيم ومريح جدًا، أمّا السيء فهو أنّ رامي ليس له أثر أيضًا! فمنذ ذلك الوقت وحتى الآن يحاول زياد الاتصال به ولكن لا يجد ردًا، ذهب إلى بيته عدة مرات ولم يجده، واتصل بكل الأصدقاء المشتركين بينهما ولا فائدة، وتطور الأمر فقام بإبلاغ الشرطة عن غياب صديقه العزيز بعدما مرّ اليوم الرابع بدون جدوى، يا للهول ماذا حصل في هذا الأسبوع، تعطلت رحلتا تهريب، كان من المفترض أن تقلّ الواحدة منهما ما لا يقل عن أربعين رأس من البشر! مما زاد المرّ مُرًّا، وأوقع زياد في متاهاتٍ لا آخر لها، إنه في مأزقٍ حقيقي، ويحتاج للكثير من الوقت حتى تعود الأمور إلى نصابها.

قال في نفسه عندما مشيا باتجاه باب الخروج: «يا لها من حياةٍ فارغة تعيشها ريما، ما أهون أن يكون الزواج أكبر همّ لدى الإنسان!» أمّا هي فلم تجب بشيءٍ حينَ سمعت ردّه الأوّل ذاك، ردّه المفاجئ، وغير المجامل، والواضح أكثر من اللازم! والسريع بدون لحظة من التأمل أو التفكير.. كان صمتها جوابًا بليغًا.. لكنّ زيادًا لم يعره أدنى أهمية!

خرج من لقائهما واتجه إلى الضياع! قادته حبال الاختناق إلى أبواب المستشفى، هناك في أروقة الضوء الباهت وروائح المُعقّمات، ومتاهات الفحوصات والتشخيص،

Scanned with CamScanner ب ةيئ هوض ا CamScanner

بحثًا عن إجابات لهذا اللغز المرير الذي يحكم حياته، كان قول ريما «لقد عرفنا أنفسنا بما فيه الكفاية» يضحكه في أعماقه، ويثير فيه شيئًا من السخرية والشفقة في آنٍ معًا، وهي أيضًا ترددت «لقد عرفنا أنفسنا بما فيه الكفاية» في رأسها وهي تغادر المكان، يبدو أنني لا أعرفك جيدًا يا زياد! تجتاز لا مُسرعةً بسيارتها الصغيرة أزقة اسطنبول، ووسط هذا السلام الكبير الذي تنعم به هذه المدنية، كانت الحرب قائمةً في رأسها هي! فإلى متى سيكون الزواج أمرًا مؤجلًا؟ وهل السنوات الأربع بينهما كانت أرقاماً لا قيمة لها؟ ما الذي ينتظره زياد دائمًا وينشغل به؟ تبحث ريما في كل شاردة وواردة عن أيّة إشارة يمكن أن تفهمها، هذه العلاقة المحفوفة بالكثير من العواطف الصادقة والاتصال العقليّ، محفوفة أيضًا بخطر الانفصال النفسيّ عاجلًا أو آجلًا.

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

11

ما يزال زياد يجهل أنه كان ظاهرًا في كاميرات المراقبة لدى المحقق دينيز أوموت، إنه يسعى إلى الآن - دون أن يشعر به أحد - إلى معرفة القاتل الحقيقي، فما الذي يحصل؟ تعطّل العمل على القضية بعد مقتل المحقق، وبالتالي نُقلت لمحقق آخر، وأخذت دورًا متأخرًا في قائمة طويلة لقضايا يقف عليها المحقق الجديد، وفي خضمّ هذه الأمور رأى زياد رؤياه تلك بصديقه رامي، واصطدم بغيابه المفاجئ، يا لهذا التوافق، أقتلهُ في الحلم فيختفي في الواقع!

بعد أسبوعين، قرأ مصادفةً عبر أحد المواقع الالكترونية تصريحًا لوزارة الداخلية بالعثور على جثة شاب سوري وُجِدَ مقتولًا بعدة طعنات، ومدفونًا في غابات بلغراد، وبلحظة من الاستكشاف العشوائي، داس أحدهم على تربة مشبعة بالرطوبة، وفجأةً انزلقت قدمه في حفرة صغيرة، لم تكن عميقة بما يكفي، وبينما كان يحاول استعادة توازنه، انكشفت أمام عينيه جثّة المقتول، فاتصل بالشرطة وأبلغهم عنها فورًا.

ها هو يتجول الآن في أروقة ذهنه المظلم، هناك.. حيث تجثو جبال الحزن على قلبه المُنهك، وتحطّ على كتفيه أعباء الحياة، يمضي في هذه المتاهة الداكنة، حاملًا حقائب الهموم بكل رغبة وإصرار! يختلط وجهه بالغموض كلّما زاد في ضياعه، ويتسلل الخوف إلى زوايا روحه ويتمايل متأرجحًا بين ظلمات الشكوك والأوهام، أين هي مرافئ الهرب التي اعتاد اللجوء إليها؟ أصبحت هي ساحات المعركة! يُطارده في كل زاوية منها شبح الأحلام المأساوية، يحاول إيجاد طريق للهروب من هذا السجن العقلي الذي يحاصره، ولكن هيهات.. إنه يفقد هويته في هذا الظلام الكبير.

منذ سنوات لم يقد بنفسه رحلة تهريب، كان اعتماده كبيرًا على رامي، وأصبح عليه الآن أن يقود المركب بنفسه، حتى لا يضطر إلى رد الأموال التي استلمها إلى أصحابها، لقد فتح أبوابًا هو غني عنها في هذا الوقت الحرج، وكالعادة.. ليلٌ حالك السواد، وبحرٌ وأفكارٌ شيطانيّة تتخذ من رأسه مستقرًا لها، تتصارع الأمواج من حوله برفق، وتنثر السماء نجومها البرّاقة كأحجار كريمة في قماش أسود، بينما تُخفي قمرها عن الناظرين، في هذا الجوّ الليلي وعلى متن المراكب المعدة لتهريب البشر،

Scanned with CamScanner
تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يكون الجو مليئًا بالتوتر والترقب، وتتداخل رائحة الملح بالهواء مما يخلقُ مزيجاً من الخوف والإشفاق على النفس يخترق حواس الركاب؛ فتصبح وجوههم مزدحمة بآلاف التعابير، وقلوبهم وجلة، وأحلامهم مجهولة المصير.

يقف زياد في مقدمة المركب ويوجه الدفة فيما يسميه الرّكاب «برّ الأمان» ويُسميه هو «برّ المجهول» يقود المركب بثقة عالية وأجواءٍ لا تخلو من ذكرياتٍ بطلها رامي، يراقب الأفق بانتباه، حيث تمتزج الظلال المائية بالسماء، وهو يبحر في متاهات الليل وسط همس الرياح الخفيف، والصوت الهادئ للمحيط والمتداخل مع ضجيج محرك المركب، بدت سواحل اليونان وكأنها تقول له: عليك أن تعي وتدرك أنّ رحيل رامي ترك فراغًا كبيرًا، ولم يعد هناك مجال للرجوع إلى الوراء، فماذا سيفعل بهذه الأحلام التي تصير واقعًا رغمًا عن أنفه! هل يراجع طبيبًا نفسيًا؟ إنّه يخاف أن يفقد عقله! بدأت هذه الفكرة تملك عليه كيانه، نعم سوف أذهب إلى طبيب نفسيّ، قبل أن أفقد نفسي، لا أستبعد أن أقتل نفسي في الحلم القادم!

***

البناء من الخارج يتميز بأسلوب معماري حديث وأنيق، تسوده الألوان الهادئة، الأبيض والرمادي مع لمسات من الزجاج والمعادن، مما يمنحه مظهرًا متألقًا ومتطورًا، يتوسط البناء حديقة صغيرة مزروعة بالنباتات المتنوعة، ينظر زياد إلى الحديقة وهو يسير في الممر المؤدي إلى العيادة، كان زياد عبارة عن «اضطراب» يمشي على الأرض بقدمين! الممشى مرصوف بالحصى ومزين ببعض أنواع الزهور والأضواء الناعمة التي تنشر أجواءً تبعث على الطمأنينة والسلام، تتوسط الممر مقاعد خشبية مريحة للانتظار، والعيادة نفسها تتسم أيضًا بالهدوء والدفء، وتتزين كذلك بالنباتات الخضراء المتمددة على جدرانها، الأثاث عصري ومريح، عبارة عن كراسي مبطنة وطاولات من الخشب الفاتح، وفي وسط الغرفة مكتبة تضم مجموعة من الكتب المتعلقة بعلم النفس، هناك أيضًا أكثر من لوحة فنيّة معاصرة تجسد معاناة النفس الإنسانية معلقة على الجدران، في مقابل النافذة الكبيرة التي تطل على الحديقة، وفوق كل لوحة إنارة تمنحها بعدًا مُختلفًا، دخل زياد الغرفة وهو

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوض هحسم

يشعر بوهج الأنوار الضبابية يلفّه، نظرت عيناه بحذر إلى وجه الطبيب الذي تحمل ملامحه مزيجًا من الحكمة والتعب، جلس على الكرسي مقابل الطبيب، وبدأ في الحديث:

يأتي الليل علىٓ كل يومٍ ليقتلني، لقد وقعت في فخّ الكوابيسِ المرعبة، الكوابيس التي لا تكتفي بأن تعكر صفو نومي، بل إنها تدمر الواقع أيضًا، لا أستطيع أخذ قسط من راحة النوم خوفًا من أن يتحول الحلم إلى حقيقة مريرة، هل يمكن للراحة أن تُتعبنا بهذا الشكل؟

لن يكون رد الطبيب مختلفًا عن الأطباء النفسيين دائمًا وأبدًا، ابتسمٍ ابتسامة الذي فهم جيدًا ما يعاني منه المريض، ثمّ قال وهو يصطنع الأمل: العقل.. آه من العقل! لديه قوة لا تُصدق في صياغة واقعنا الداخلي، لكن يا زياد، يتعين عليك أن تفهم جذور هذا الخوف وتستكشف الأفكار الكامنة في عمق وعيك!

ابتسم زياد: يُفترض أنني هنا لتساعدني على ذلك!

استدرك الطبيب: نعم.. صحيح، هذه هي مهمتي فعلًا!

استمر الحديث لساعة كاملة، بدأهُ زياد من تفاصيل التفاصيل في حياته، ثم انتقل مُسترسلًا يقول: يا دكتور صبري، في المجمل خوفي من النوم يرجع إلى سببين رئيسيين، الأول هو مرحلة العدم، يغمرني الفزع، نعم يا حضرة الطبيب صبري، وفزع شديد جدًا بمجرد التفكير في تلك الساعات التي أختفي من خلالها ولا أعلم عن نفسي فيها شيئًا، كيف يقبل الإنسان فكرة الانتقال من الوجود إلى العدم، وإلى مرحلة من اللا وعي التام؟ وهذه الفكرة على بشاعتها أهون من فكرة الكابوس! فالكابوس يا حضرة الطبيب شيء أبشع بكثير، فما بالك بحالتي أنا؟ إنني أرى الكابوس في نومي، فيصير واقعًا في حياتي! أين أهرب، أنا عالق ما بين العدم والكوابيس ولا أعرف ماذا سيحصل في النهاية!

بالطبع لم يخفَ على الطبيب صبري أبدًا أنّ الكوابيس التي تصير واقعًا عند زياد هي عبارة عن جرائم قتل، كل الذي ورد على قلبه هو حصول مشاهدات غير مألوفة

Scanned with CamScanner

لأشكال مرعبة خلال النوم، أو رؤيا ما تقع كما رؤيت ولكنها غير محببة لزياد.

تنحنح بهدوء وقال وهو ينزل نظارته إلى أسفل أنفه: مرحلة العدم تثير الكثير من التساؤلات، وقد تطرق لها أكثر وأكبر الفلاسفة قديمًا وحديثًا، والمهتمين بعلوم النفس تحدثوا عنها مطولًا، وهي مسألة تدعو للتأمل فعلًا يا أستاذ زياد، ولكن أنا شخصيًا أجد أنها يمكن أن تكون فرصة للاكتشاف الذاتي، ومدخلًا في بعض الأحيان لفهم أعماق الوجود.

قطع عليه زياد طريق الفلسفة بشيء من الضجر: لندع هذه الفقرة الآن يا حضرة الطبيب! لندعها، فالعدم قد يكون أقل خطورة من الأحلام المروعة، خاصة إذا كانت تتشابه مع الحقيقة بشكل مريب وغير مفهوم البتة!

- التحلي بالوعي عزيزي زياد، حيال تلك الأفكار، فهو خطوة أولى، واعتن بتفاصيل حياتك اليومية، ركز على اللحظة الحاضرة، النوم ليس معركة، بل رحلة يجب أن تستمتع بها دون خوف من الغد.

تابع الطبيب على هذا النمط ونصحه بممارسة بعض تمارين الاسترخاء وتقنيات التأمل، ومن هذا التشخيص الذي يعتبره زياد كلامًا فارغًا، مما جعله يهز رأسه طوال حديث الطبيب، ويأخذ الوصفة التي يكتب بها الأطباء النفسيون في العادة، نوعًا من أنواع مضادات الاكتئاب بحسب الحالة، ثمّ غادر بيأسٍ أكبر.. تلك العيادة الكئيبة.. خطر على باله وهو خارج منها أنه يتوجب عليه الذهاب إلى غابات بلغراد، وبسرعة جنونية، يريد أن يصل ويثبت لنفسه مرّةً أخرى أنه لا علاقة له بموت رامي، وحين وصل إلى المكان الذي كان في منامه، نزل من سيارته مستعجلًا وراح ينظر في الأرجاء هنا وهناك بطريقة لا واعية، وبعد شيء قليل من الوقت، استدرك أنه عليه أن يهدأ وينظر في المكان بأناة، وبالفعل بدأ يشرف بعينيه على الأرض من حوله بكثير من الحرص والتمعّن والهدوء، وفي غمرة تأمله تلك، وقعت عيناه على سيجارتين من نوع الدخان الذي يشربه! تجلت أمام عينيه لوهلة تلك اللحظات الأخيرة من الحلم، حين سقطت السيجارة من يد رامي.

في هذه الثانية تحديدًا، تذكر زياد السكين! إنها الشيء الوحيد الذي سيثبت أنه

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم اهيض

ليس قاتلًا، وبخاصة بعد وجود هاتين السيجارتين في موقع الجريمة! ركض إلى سيارته، ومد يده إلى الصندوق الداخلي منها وأخرج السكين، فتح الغطاء، ويا للكارثة.. ثمّة آثار دم!

شعر بدوار شديد يفقده توازنه، تسارعت دقات قلبه، وبدأ وجهه يحمرّ ويصفرّ، لم يقف ثانيتين اثنتين، غطى السكين بسرعة، وركب السيارة مغادرًا بسرعة جنونية، وبدون وجهة محددة.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةضوسمم

12

دخل المحقق عثمان أوغلو إلى مكتبه الصغير، ثمّة ورقة صفراء باهتة ملقاة على مكتبه، كُتب عليها بخط واضح: «اللغز الأكبر ينتظرك»

بعد أن تصعد الدرج في الطابق السفلي مباشرةً إلى الدور الثاني من مبنى النيابة العامة في اسطنبول ستجد نفسك أمام ردهتين، يفصل بينهما ممر طويل مُضاء باللون الأبيض التقليدي في المباني الحكومية، ثمّة بعض المكاتب ذات الجدران الزجاجية المطلة على الممر، أحد هذه المكاتب مكتب المحقق عثمان أوغلو، حيثما أدرت رأسك في مكتبه ملفات ومستندات، ويغمره أيضًا الضوء الطبيعي الخافت من النافذة الكبيرة التي توفر إطلالة على الشارع الخارجي، وعلى غير المعتاد، ليس على مكتبه كمبيوترًا شخصيًا وهاتفًا ثابتًا، ذاك أنه يوجد داخل المكتب مكتب صغير ومنعزل في إحدى الزوايا يطلق عليه اسم «المكتب الثانوي» وفي داخله جهاز كمبيوتر وطابعة، الهاتف الثابت بطبيعة الحال، بالإضافة إلى أدوات الكتابة والمذكرات الموضوعة بعناية وسريّة في أماكن لا يعرفها سواه.

تتزين جدران مكتبه ببعض الصور العائلية وشهادات التقدير، مما يعكس شيئًا من تاريخه المهني وحياته الشخصية، يتوسط المكتب كرسي مريح مغطى بالجلد الأسود، ويحيط بالطاولة أربعة كراسي إضافية لاستقبال الزوار، ومن أمامها شاشة كبيرة لعرض البيانات في حال فتح الكمبيوتر من المكتب الثانويّ، في الزوايا الزجاجية للمكتب نباتات صغيرة تضيف لمسة من الطبيعة والحيوية على البيئة العملية، وبشكل عام يُظهر الديكور الرسمي والأنيق للمكتب السلطة والاحترافية التي يتمتع بها المحقق في مهنته، إلى جانب هذا يتمتع عثمان أوغلو بملامح وجه حادة وغير جذابة، بعينين ضيقتين تعكسان الحدّة والدهاء، جبهته بين السعة والضيقة، وبالنسبة لجسده فقد كان متناسقًا، شعره أسود قصير تشوبه بعض الشعرات البيض على العارضين، أما لحيته فيحلقها بشكل يومي، ويترك شاربه الكثّ يغطي شفته العلوية، يظهر دائمًا بمظهر مرتب وأنيق، ملابسه تقليدية ومهنيّة تتناسب مع طبيعة عمله، ويتمتع أيضًا بقوام رياضي يعكس نشاطه وحيويته في أداء مهامه كمحقق،

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

وكذلك اهتمامه بالمظهر الشخصي والانضباط.

ظل المحقق عثمان جالسًا على كرسيه الجلدي الراقي للحظة، يلاحظ تلك الورقة بتركيز، لحظات.. ثمّ خرج من مكتبه بخطوات ثابتة، إنه الرجل الذي يعرف كيف يواجه التحديات، إذ يمتلك قدرة فذة على استنتاج الحقائق من التفاصيل الصغيرة، ورغم هدوئه الظاهر، إلا أن عينيه تكشف عن حماسة دفينة ورغبة جامحة في حل الألغاز، ومن أكثر ما يميّز شخصيته هو ميله إلى الاعتماد على الذكاء العاطفي والتأمل في عقول الآخرين لفهم دوافعهم، إنه شخصية استثنائية بحق في مواجهة وتجاوز القضايا المعقدة.

ربما تسرّب اللغز إلى الحياة اليومية، مما جعله يتجول في شوارع المدينة بنظراته الحادة، كأنه يترقب أدنى تفصيل يمكن أن يلقي الضوء على إجابةٍ ما في هذا الكمّ الهائل من العتمة، كانت الشوارع تمتلئ بالضباب، هكذا هي اسطنبول في مطلع الشتاء، تنغمس شوارعها في نصف برد وانعدام كامل للرؤيا، وتتشابك الأضواء الباهتة في الفوانيس القديمة مع قطرات الندى المتناثرة على الأزقة الحجرية، ومن حولها أوراق الخريف المتساقطة تغطي الأرصفة، محملة بذكريات فصل مرهق ولكنه جميل، ترى الناس يسيرون عن يمينك ويسارك حاملين في ملامحهم ألوان البهجة، وفي ملابسهم الشتوية ألوان الحياة، وبينما يمتزج عبق القهوة التركية برائحة الأرض بعد المطر، وتعلو ضوضاء أقداح الشاي المتصاعدة من المقاهي في الأزقّة، ستُزعج عينيك أضواء المحلات التقليدية حين تنعكس على زجاج المعرض، مضيئةً تفاصيل الحِرَف اليدوية المتنوعة من خلفه، وسوف تباغتك رياح البوسفور، وتبهرك قباب الجوامع وقصور السلاطين بما تحمل على عاتقها من التاريخ.

الإجابة التي كان يبحث عنها المحقق عثمان أوغلو تتعلق بالورقة الصفراء الباهتة، التي كتب عليها هو: اللغز الأكبر ينتظرك، ووضعها على مكتبه، لتكون دافعًا له على التأمل، ذاك أنّه اطلع على تفاصيل قضية مقتل زينب، وفتح كذلك التسجيلات المتعلقة بكاميرات المراقبة ورأى زياد المتهم الرئيسي، ثم راجع ملفات (المحقق دينيز أوموت) الخاصة بتحقيقه مع زياد، ورأى ملاحظة بخطّ دينيز أموت جاء فيها:

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

يجب أن يبقى زياد حرًا، بل يجب أيضًا أن يطمئن أنه لا توجد أيّة شكوك حوله.

إنه يوقف سيارته الآن أمام المبنى الذي كانت تسكنه الضحيّة المقتولة زينب، نزل منها، وسار في الممر ببطء وهو يتلفّت يمينًا وشمالًا، محاولًا بعينيه أخذ صورة للمكان بمجمله، وصل إلى الشقّة، فتح الباب بحذر، ودخل بهدوء تام، كأنه كان يخطو إلى عالم موازٍ لا يمكنه المرور به إلا عبر الرويّة والأناة، عالم تغمره رائحة الغموض ويستحوذ عليه الصمت، وقف متأملًا في البقعة التي وقعت فيها الجريمة، أشعل سيجارته وأسند ظهره إلى الجدار في محاولة لقراءة الأفكار المتبعثرة في الهواء، فبدا كأنه يريد جذب انتباه الأشباح الصامتة للحديث عن قصةٍ تبحث عن كاتب يكتب آخر فصل فيها! عن كاتب يتقن لغة الأماكن.

هل يستدعي زيادًا للتحقيق مرّةً أخرى؟ أم يبدأ بمراقبته عن بعد كما فعل أوموت؟ إنّ وجود زياد في الكاميرات يجعله المتهم الأول، فلماذا يُترك ويُراقب عن بعد، ما الذي كان يبحث عنه أوموت؟

عاد إلى بيته مكتئبًا بعض الشيء، وفي الوقت نفسه بدأت تختلج في أعماقه الكثير من الأفكار المثيرة، إنّه نشأ على حبّ الاستكشاف، والبحث عن الحقائق لعبته المفضلة قبل أن يكون عمله المحبب.. سينام الآن، وغدًا سوف يقدّم قضيّة مقتل زينب على بعض القضايا الأخرى وسوف يوليها اهتمامًا أكبر، لا يعرف لماذا تلحّ عليه نفسه بهذا، ولكنه يثق في أحاسيسه جدًا.

Scanned with CamScanner
تم مسح ضوئيًا بـ CamScanner

13

هل كانت الحياة مصممة على جمعهما بشكل مستمر، كما ظنّت زينب؟، أمّ أنّ زيادًا كان يخترع الصدفة تلو الأخرى ليلتقيا؟ تقولُ الوقائعُ إن الذي دفعه ليعمل في مجال التحف القديمة محاولته أن يدخل دائرتها الصغيرة، ولو من باب التاريخ! كانت مولعةً بالتحف القديمة، ولم يكن كذلك، ولكنه أجهد نفسه ليقنعها بأنّ القواسم المشتركة بينهما تكاد لا تحصى، وفشلت كل محاولاته تلك في كسب جولة واحدة يستميل بها قلبها، وبكل أسف.. لم يحظ منها حتى بشعور الشفقة.

منطقيّتُها العالية وعاطفيّته المفرطة – برأيها - خطّان مستقيمان لا تجمعهما نقطة التقاء، وهذا جعل بريق الحبّ في صدره يتلاشى، على عكس ما يكون في مثل هذه الحالات، من مواجهة رفض الآخر بمزيد من التبعيّة والتفاني بغية الوصول لأيّة عاطفةٍ منه ولو كانت ازدراءً! استجمع زياد نفسه في لحظةٍ لا ينساها أبدًا، ووضع حدًّا لعاطفتهِ بأن بالغ في الرسمية معها لاحقًا، ولكنه حتى لحظة رؤياه وهو يقتلها في المنام، كان ما يزال شيء من حبها يختال في داخله، وإن كان هذا الحب مشوبًا بكرهٍ ظاهر! بل إنّ هذا الشعور المتناقض حبًّا وكرهًا، كان دافعه في المنام لأن يقتلها، ولم تكن تلك المكنسة التي أشار بها إلى أرضية البيت قائلًا «ثمّة أوساخٌ قديمة، يجب عليك تنظيفُها» إلا تعبيرًا رمزيًا أراد أن يخبرها من خلاله بجريمتها في حقه، وأنها هي التي ملأت قلبه النظيف بالأوساخ!

يا له من قاتلٍ فيلسوف لا يحب أن يعيش الأمور في سياقاتها الطبيعية، بل يستعذب وبكثرة إضفاء جوّ أسطوري درامي على كلّ ما يتعلق بحياته، وعلى كل الأصعدة، لذلك نلاحظ بشدّة لاحقًا، كيف فقدت علاقته بريما دراميتها المحببة إلى قلبه، ودخلت منعطف الجليد، فالزواج عدوّه الأول والأكبر، إنّه مستعد لقبول كل الأفكار في هذه الحياة مهما كانت شاذّة، ما عدا الفكرة الأكثر منطقيّة، والتي تتجسد في إنجاب طفل جديد ومنحه فرصة المرور بهذا العالم الحقير! كما يقول دائمًا، لا مشكلة عنده في الزواج من حيث المبدأ، ولا يخاف أن يقيّده بكيان آخر، فهو في آخر الأمر محترف بالتنصّل من المسؤوليات، وبارع في جعل الآخر يحملها عنه

Scanned with CamScanner

بكل سرور! إنما الكارثة تكمن في أنّ هذا الالتزام سيفضي إلى جريمة مرعبة تتمثل بالمشاركة في صناعة مأساة جديدة تعبر هذا الكوكب وتساهم هي الأخرى بتشكيل مأساة جديدة.. وهكذا دواليك، ولأنّه متأكد في أعماقه من أنّ المرأة، والعاشقة بالذات، لا يمكن أن تقبل حياةً معه بغير طفلٍ يفتح باب الأبديّة بينهما، كان يرفض فكرة الزواج دائمًا، ولكن بطرق غير مباشرة، فأيّ امرأةٍ تلك التي ستقبل بالتنازل عن فكرة الإنجاب؟ ولعلمه اليقيني بأنّ المرأة كائنٌ ذكيّ بحيث لا مانع من إظهارها القبول بعدم الإنجاب ثمّ توريطه لاحقًا، أغلق هذا الباب بألف قفل، فماذا على ريما الآن حتى لا تفقد هذا الحب؟ يتحتم عليها تأجيل الأمر حتى يأتي الوقت الأفضل فيما يبدو لها، وحتى يفترقا بالنسبة إليه! وإلا فإنها تتعجل - دون أن تعي ذلك - في هدم أجمل اللحظات السعيدة بينهما.

***

قالت لصديقتها سارة ذات لقاء: لم يكن لدي فكرة أن طلبي بتعجيل مسار حياتنا الزوجية سيؤدي إلى هذا الانقلاب العاطفي! لا أعلم يا سارة، هل عليّ الآنَ أن ألومه.. أم أنّ اللوم يقع عليّ وحدي، عندما تجتاحني هذه المشاعر المضطربة يظل لديّ أمل في أن تكون لديه شجاعة لفتح قلبه والتحدث بوضوح، إنه يعدّ ذلك ضعفًا، وأعدّهُ قوّة، وهو زيادة على القوة تعبير عن النضج في العلاقة.

تعرفه سارة جيدًا، التقيا من خلال ريما أكثر من مرة.. لم تكن تشعر بكثير ارتياحٍ له، فقد بادرها في لقاءاتٍ مختلفة بنظراتٍ لها ما لها وعليها ما عليها، لم تخبر ريما بشيء، في النهاية تخضع النظرات المتبادلة بين الرجال والنساء للعديد من التأويلات، ومع إيمان سارة بأنّ نظراته إليها لم يكن لها إلا تأويل واحد، وهو الإعجاب الممزوج بشيء من الشهوة! حرصت أن لا تخبر ريما بذلك لا تصريحًا ولا تلميحًا، وأن لا تفسد عليها ما هي فيه من أمان الحب، إنها تؤمن في أعماقها بما لا مجال معه للشك أن زيادًا رجلُ العبور لا البقاء، للحظة.. كادت تصارح ريما بهذا، ولكنها استدركت وتراجعت فورًا، قد يؤدي الأمر إلى ما لا تُحمد عقباه، فاكتفت بتقديم بعض الدعم العاطفي لها، وحاولت بطرق غير مباشرة تزهيدها به، واستمرت

Scanned with CamScanner

كذلك، حتى قالت لها وهما تفترقان: يؤسفني أن أقول لكِ يا ريما، هذا الرجل فخ.

سترسل إليه ريما مساء ذلك اليوم، لن يجيب، وسيستمر الحال هكذا ليومين، ستذهب بعدهما إلى بيته، ولن تجده، إنّه في عالم بعيد جدًا عن عالمها هذه الفترة، فبعدما أكدت له الدماء على السكين يقينًا أنه قتل رامي بيده في الحقيقة لا في المنام، أصيب بنوبات هلع متتالية خلال أيامٍ قليلة، ولم يكن بينه وبين الاكتئاب الحاد إلا أن يستسلم، وما جعله يقاوم أنّه بالرغم من وجود تطابق حاد للرؤيا مع الواقع، بل وأدلّة واقعية أيضًا، لا يزال يؤمن أنه لم يفعل ذلك إلا في المنام، وبدلالات أخرى كثيرة لا تزال تتجول في رأسه، إذن فلديه الآن أدلة تدعم الاحتمالين، فلأيّهما يكون الاستسلام؟ بالطبع للرؤى، فلن يقبل أن يكون مجرمًا أمام نفسه، وليته مجرم عاديّ، لقد قتل زينب صاحبة أول عاطفة صادقة طرقت باب قلبه، وقتل رامي، الشاب الطيّب الساذج، أو: الصندوق الأسود، كما كان يلقبه! يستحيل أن يقبل هذا بشكل من الأشكال، وسيستمر من طبيب إلى آخر، ومن شيخٍ يقرأ عليه إلى آخر أيضًا، وسيخوض كلّ الطرقات التي تسحق احتمال الواقعيّة في نفسه، وسيدافع عن إنسانيته بالمزيد والمزيد من الأعمال الخيرية!

أمّا هذا الوقت تحديدًا، فالذي يسيطر على عقله هو إيجاد شخص مناسب يحلّ محل رامي، ويكون على قدرٍ كبير من الخبرة، وإيجاد شخص كهذا ليس بالأمر الصعب في سلّم المافيات التركية، وهو منذ بدأ هذا العمل حرص على أن يكون مستندًا على إحدى المافيات كما يفعل الجميع، ولكن من خلال دفع مقابل للحماية لا أكثر ولا أقل، لأنّ شراكة المافيات لها ما بعدها من الأعباء التي لا يُطيقها إلا القلة المغامرون، فادفع مبلغًا ينجيك منهم، ويجعلهم دائمًا في خدمتك، ولا يكونون شركاء لك في الوقت نفسه، هذا يعني أنه سيفعل ما فعله قديمًا مع رامي، فيبحث عن شاب جديد ويعلمه الأمر من البداية، ويرافقه في عدة رحلات تهريب بحرية، حتى يطمئن لسير الأمور كما هو يريد تمامًا.

Scanned with CamScanner

14

خرج المحقق عثمان أوغلو عجِلًا من منزله هذا الصباح، لم يشرب قهوته مع زوجته كما هي العادة، توجه إلى مكتبه في النيابة العامة، لديه عدد كبير من القضايا ووقته ضيّق يداهمه، إنّه مولع بتحقيق النجاحات الكبيرة في أقلّ وقتٍ ممكن، تشغل قضية مقتل زينب حيزًا كبيرًا من فكره، ومع هذا فقد بدأ بغيرها، بعدما مرّ عليها مرورًا سريعًا، حتى يتفرّغ لها بشكلٍ مستقل بعد إتمام بعض المتعلّقات بالقضايا الأخرى، ولكن لفت نظره ملاحظة أخرى تركها المحقق دينيز أوموت، جاء فيها: الطريق إلى زياد يأتي عبر صندوقه الأسود، رامي.

سيعود إليها لاحقًا، فهو حتى اللحظة لم ينتبه إلى كون رامي القتيل في غابات بلغراد، هو نفسه المعني في هذه الملاحظة، وهو نفسه الصندوق الأسود لزياد الذي ظهر في كاميرات المراقبة الخاصة بقضية مقتل زينب، القضيّة التي تستحوذ على كامل اهتمامه الآن هي قضية صديقه القتيل، لمحقق دينيز أوموت.

يتحلّى عثمان ببصيرة دقيقة، وقدرة فطرية على فهم البشر وتحليل أعماقهم برهافة مدهشة، وله أعين تلمس الوجوه وتستشف الأحداث قبل أن تُروى، أعين تحمل في بريقها أعوامًا من الخبرات والتجارب، وتحدثك بصمتها عن رحلة طويلة في عالم الجريمة والعقليات المعقدة، له باع طويل في اجتياز المتاهات، وهو ذو هدوء يختلط بشيء من الغموض، وذو قلب كبير ينبض بالعدالة والإنسانية، ويحمل في نفسه إصرارًا فولاذيًا على ملاحقة الحقيقة، ولتكن أين ما كانت، ولو بأفواه الأفاعي، فهو بقدرته الفائقة على تجميع الأحداث المتفرقة يرسم صورة شاملة ومفهومة، يستطيع أن ينتزع بها الحقيقة انتزاعًا من قبضة الوهم، فمع أنّ رضا لم يكن قاتلًا عاديًا، حيث قام بنزع الكاميرات في كل الطرق التي مرّ من خلالها إلى منزل الأخ غير الشقيق دينيز أوموت، واستطاع أيضًا إخفاء بصمات أصابعه حين جاء مرتديًا أكُفًّا قماشية سميكة لا تثير الشكوك في جوٍّ باردٍ جدًا، وفعل فعلته التي فعل، ثم غادر بدمٍ أبرد من شهر نوفمبر، مع هذا كلّه، خمّن عثمان أوغلو أنّ رضا قد تكون له يد في القضيّة، فما الخيط الذي أوصله إلى ضرورة لقائه المُلحة، حتى أصدر

Scanned with CamScanner

في حقّه مذكرة استدعاء؟

سوف يراه في الغد، أمّا الآنَ فسوف يذهب إلى لقاءٍ لا علاقة له بالعمل، إنمّا بالقلب.. هي شابّة عربيّة تعرف عليها قبل عدة أسابيع في مؤتمر خاص بصناعة الأطراف الصناعيّة، وكانت هي هناك بصفتها (أخصائية الأطراف الاصطناعيّة) وكان بصفته أخًا لفتاة فقدت رجلها في حادث سيرٍ شنيع، أتى ليثقّف نفسه جيدًا حتى يتمكن من تقديم الرعاية الكاملة والصحيحة لأخته التي يُحب، يا له من مكان لا يظنّ المرءُ فيه أنّ للحب فرصة! فهو مكان يبعث على الشفقة والحزن أكثر من أي شيء آخر.

تألقت هذه المرأة في تخصصها بروعة تفوق الحدود، وكانت محطّ أنظار الجميع ببساطتها المبهرة، كل شيء فيها كان يشدّه إلى الحديث معها، ليس فقط لمعرفة مجال عملها، بل للعالم الآخر الذي يختبئ خلف ابتسامتها الطيبة، كانت كلماتها تنبض بالحيوية والحماس، أخذت تروي للواقفين حولها وهو معهم بالطبع قصصَ نجاحٍ وتحديات مُلهِمة، وكان كل حديث منها له لمسة خاصة في نفسه، وكلّ حرفٍ زلّ عن مرشفها - كما يقول أبو ريشة - نثر الطيب يمينًا وشمالًا، كانت منهمكة في بيان أهميّة دعم مجال الأطراف الاصطناعية حكوميًا، وكان عثمان يكتشف أنهما يتشاركان الكثير من القيم والأفكار، وحين التقت أنفاسهما لوهلة في نقاش حول العناية النفسية بالمصابين، أحس برعشةٍ لا يمكن أن ينساها ما بقي، ولحسن الحظ أن هكذا اجتماعات لا تكون محصورة في قاعة المؤتمر فقط، بل تستمر عادةً في ردهات الفندق، وعلى طاولات المطعم عقب انتهاء المؤتمر، وغير ذلك، مما يتيح للجميع بناء علاقات تتجاوز حدود الزمان والمكان.

مرّت الأيام كالأشهر، واللحظات الأولى لتلاقيهما في تلك البهجة الرمادية للمؤتمر لا تزال مطبوعةً في ذاكرته، لم تكن تلك اللحظات تبشر بما هو قادم، لكنها تجلّت بأشياء صغيرة كفيلة بأن تحمل في طياتها لون غدٍ مشرق بحبٍّ جديد، وبكل لحظةٍ مرّت كانت الأحاسيس تزيد قوةً بداخله، وكانت هناك حقيقة لا يمكن إنكارها، هي أنه يتوق لأكثر من مجرد ارتباطٍ عابر، لشيء يُحكى عنه في الحكايا والروايات،

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيًا بـ CamScanner

مما يتجاوز الكلمات ويصعب وصفه، وها هو الآن يستعد للقاءٍ جديد، لا علاقة له بالأطراف الاصطناعية، ولا المؤتمرات، بل بقلبه.

ماذا عن زوجته إذن؟ الجوّ العام لعلاقته بزوجته عايدة يجمع بين الانسجام العاطفي والتفاهم المتبادل، فعلى مدى سنوات بنى عثمان وعايدة أُسسًا راسخة للثقة المتبادلة والتفاني، حيث يُظهر كل منهما تقديرًا عميقًا لشخصية الآخر، ولا تزال عايدة في أوقات البحث والتحقيقات المعقدة هي الشخص المعنوي الذي يقدم له الدعم اللازم والمشورة الناضجة، وفي المقابل كانَ هو ملجأها ومستقرّها في كلّ شاردة وواردة، إذن فهي علاقة قائمة على الأمان، فما الذي يتجه بعثمان في هذا الاتجاه؟ الرجال وما أدراك ما الرجال، إنّهم معضلة النسّاء الأزليّة! فمنذ عرف الوجود نفسه - كما يزعمن - والرجالُ لا يكتفي أحدهم بحبّ امرأة واحدة، لا علاقة لذلك بأساس تكوينهم كما تدّعي النساء أيضًا، أمّا الرجال الذينَ يقعون في علاقاتٍ عاطفيّة خارج إطار الزوجية فلا يتذرّع الجميع بأنّ السبب وراء ذلك زوجاتهم.

الكثير منهم قد يعترف بحب حقيقي لزوجته وأنها لا تستحق أن يفعل بها ما فعل! والذريعة الأكثر شيوعًا لديهم في هذا الأمر هي أنّ الصداقة تحوّلت تدريجيًا إلى علاقة أعمق، ولا تسأل رجلًا لماذا يفتح باب الصداقة مع المرأة! فالرجل بطبيعته - ولا أعلم إن قالت هذا الدراسات أم لم تقله - بحاجة دائمة إلى إثبات ذاته عاطفيًا، ولا يكون ذلك إلا من خلال امرأةٍ جديدة، بالطبع هذا لا يُعمم بشكل نهائي على الرجال وإن احتمل الأغلب، منهم من يمتلكون القدرة على الارتباط العميق والوفاء العاطفي مع امرأة واحدة بدون الحاجة لإثبات ذواتهم عاطفيًا بشكل متجدد، ويكونون قادرين على بناء علاقة طويلة الأمد لا تجرحها النزوات أو الحاجات العارضة، فالأمر مداره في الحقيقة على الالتزام العاطفي مع شخص واحد، والأكثرية يجدون صعوبة في البقاء ملتزمين بعلاقة واحدة طويلة، وهذا لا يعني بالضرورة أنهم غير قادرين على الحب، بل تجد لدى كثير منهم رؤية مختلفة للعلاقات أو تفضيلات شخصية تجعلهم يبحثون عن تجارب متعددة، وعلينا أن نقدّر جيدًا أنّ العوامل الثقافية والاجتماعية والشخصية تلعب دورًا كبيرًا في نمط وطبيعة العلاقات العاطفية بشكل عام عند الرجال والنساء، وفي حالة المحقق عثمان أوغلو، كان الدافع الحقيقي هو

Scanned with CamScanner

انجذابه السحري لها، وبحسب طبيعته، فإنه لا يستطيع الانجذاب بسهولة لأيّ امرأة مهما كانت طاغية الجمال والأنوثة، لكنه وجد نفسه دون أن يشعر أسيرًا بين يدي سارة، أخصائية الأطراف الاصطناعية، صديقة ريما المقربة.

Scanned with CamScanner
تم المسح ضوئيا بـ CamScanner

15

هناك اتجاهان، إما أن أفقد عقلي أو أن أنتحر، نعم أعترف.. لقد قتلت زينب في المنام، قتلت رامي في المنام أيضًا، أنا أعترف بذلك، لكن لا شيء يُثبت حتى اللحظة أنني قتلت زينب في الواقع، أمّا رامي، فيوجد دلائل تشير إلى أني قتلته بالفعل، آه آه، يا لمصيبتك يا زياد! أين تهرب من جحيم الأسئلة التي تطاردك؟ لقد فقدتُ أدنى شعور بالطمأنينة كنت أعيشه من قبل، لعنة الله على هذا الواقع الذي يحاصرني! هل سيصدقني أحد لو أخبرته بهذه الدوامة التي أهلك فيها؟ أليس الجنون أهون على الإنسان من هذا التخبط بين المعقول واللا معقول؟

أحيانًا.. تبدو الحدود بين ما هو حقيقي وما هو خيالي ضبابية لدرجة تجعلني أشك في وجودي! هل أنا زياد الذي يعيش في هذا العالم أم هناك جزء آخر مني يسكن عوالم موازية؟ هذا الشك يقتلني، ويخلق بي شعورًا بالانفصام الذي يعكس حالات الجنون والحقيقة معًا، أعيش في حيرة مستمرة حول هويتي، مما يجعلني أتساءل إذا ما كان هذا الجزء الآخر مني هو مجرد توهم أم هو جزء حقيقي مختبئ داخل عقلي؟ عالقٌ أنا في فك اليأس، يتجول الانتحار متنكرًا بزيِّ فكرة جميلة ومنطقية في ساحات عقلي! ومع ذلك.. يبقى الجبن أمام الموت مسيطرًا على قلبي ومعيقًا لخطواتي نحو التخلص من هذا الجحيم، لا أنكر أنه يظهر لي شعاع ضئيل من الأمل بعد فترات طويلة من اليأس، يظهر كنجمٍ بعيدٍ في سماء معتمة، أحاول الامتثال لهذا الشعاع من النور، ولكن يعاودني اليأس بقوة، يغلق الباب في وجهي ويطفئ الشمعة الضئيلة ليعيدني إلى عتمة الشك والتفكير السلبي، يبدو أنّ اليأس – ودائمًا - أقدر عليّ من أيّ شعور آخر، وفي حين أن جميع الناس يتخذون النوم سبيلًا للهرب، يشكّل النوم مأساتي الحقيقية، فأهرب منه إلى اليقظة.

وضع زياد قلمه ثمّ أخذ نَفَسًا عميقًا، هذه هي المرة الأولى التي يمتثل فيها لفكرة العلاج بالكتابة، راح يتجول في الغرفة بخطى هادئة، ووجهه مشدود بالقلق، كانت الأفكار تدور في عقله بسرعة مذهلة، وتتشابك مع الصور المروعة التي طاردته في الأيام الأخيرة، أغمض عينيه بقوة ساعيًا إلى تشتيت هذه المشاهد، لكنه لم يستطع،

Scanned with CamScanner

حاول أن يجمع ذاكرته، وأن يستعيد بعض الأحداث، طمعًا بأن يفهم كيف وصل إلى هذه الحافّة الخطرة، ولكن وجد نفسه في دائرة من العَبث ليسَ إلا، وظلّ هكذا حتى جرحَ صمتَ الليل صوت جرس الباب فأفزعه، وشعر بقلبه يقفز من صدره! من تراه سيجيء في هذا الوقت المتأخر؟ ثمّ بخطوات مترددة ويدين ترتجفان توجه نحو الباب، فتح ببطء، مفاجأة غير متوقعة.. وجد شخصًا غريبًا ينظر إليه بعيون حادة وجذابة في الوقت نفسه، وجهه ينبعث منه غموضٌ وريبة: أنت زياد، أليس كذلك؟ سأله بصوت هادئ ومليء بالثقة.

ارتبك لحظةً ثم أجاب بحذر: صحيح، أنا زياد، من أنت؟ وماذا تريد؟

دون أن يكشف عن اسمه أو من هو، قال بابتسامة مصطنعة: لدي بعض الإجابات التي تبحث عنها، لكنك بحاجة إلى الشجاعة لتتبعني، فهل أنت مستعد؟

شعر بخليط من الفضول والخوف، وفي المقابل شعر بأن هذه الشخصية قد تكون المفتاح لفهم شيء مما يحدث في واقعه الغامض، وعلى الرغم من التردد المشوب بالقلق، قرر مرافقة هذا الشخص الغريب.

تحت ضوء خافت انطلقا في مسار غير مألوف بالنسبة إليه، امتدت الأزقة الواسعة والضيقة أمامهما، وتناهشت الأفكار عقله بلا توقف، أخيرًا وصلا إلى مكان مظلم مهجور، تتوزع فيه الأبنية المهدمة بانتظام، ودون انتظام، وكأن تقادم الوقت مزج بين أشكالها بلا عناية.. تنحني الأعمدة المُسنّة والمتصدّعة مع بقايا الطلاء المتآكلة والتي تشق طريقها عبر الجدران كأنها ندوب، ومن حولها تراكمات الأوراق المتهالكة والأشواك الجافة التي تلتف حول أي مكان يمكنها الالتفاف عليه، ثمّة أسوار عالية مهترئة تتأرجح في الرياح الباردة، وثمّة ما يجعلك تستحضر ذكريات مدفونة في أعماق نفسك.. النوافذ المتهالكة تبدو كأنها عيون تعكس الوحدة.. وتتلاشى الألوان تدريجيًا في هذا الفضاء المظلم، في ظلّ سيادة اللون الرمادي الباهت والأسود، يعمّ المكان ظلام لا ينتهي.. وهو ما يزيد طابعه الغامض والمخيف، تمتدّ الظلال على جدران المباني الفاترة، مع انعكاسات متفاوتة لضوء القمر.. ورغم هذا كلّه، إلا أنّ هذا المكان يحمل في طياته طابعًا من الجمال الغريب والغامض.. إنه يستحضر في

Scanned with CamScanner

الذاكرة مشاعر الغرابة والحنين، ويمزج بين الجمال والتداعيات الناجمة عن الزمن والإهمال.. هنا في هذا المكان كانت السيادة الحقيقية للخوف والصمت، لا لأيّ شيءٍ آخر.. وفي جوٍّ من الهدوء المُريب، برزَ شخصٌ أمامه.. لم يكن شخصًا غريبًا.. كان صديقًا قديمًا..

- راميّ!! صاح زياد بدهشة وارتباك.

هو رامي فعلًا، ولكنه كان مختلفًا قليلًا عن ذلك الشخص الذي كان يعرفه زياد..

- ما الذي يحدث؟! سأل زياد بصوت مرتجف.

- ابتسم رامي ابتسامة المنتصر: هناك أمور كثيرة لا تزال بحاجة إلى توضيح!

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوض حسم

16

في حديقة غول هانة الشهيرة، وعلى سمع وبصر الأشجار العملاقة، وفي حضرة الطبيعة الشاهدة على لحظات رقيقة لم تعترف فيها القلوب بشيءٍ بعد، التقى عثمان بسارة لأول مرّة بعيدًا عن المؤتمرات والأطراف الاصطناعية، وزحمة الطاولات في المقاهي العامة، لماذا في غول هانة؟ ربّما لأنّ هذه الحديقة وعلى مدى قرونٍ من الزمن، شكّلت موطنًا للعشاق، حيث يُقال: إنها شهدت العديد من اللقاءات الرومانسية والقصص العاطفية، كيف لا، وهي جنّة من جنان الله على الأرض، هل هناك أجمل من أن تلتقي حبيبك في الجنة؟ إنّ كلّ ما حولك في غول هانة يُشعرك أنك مُحلّق في فضاء الشعور، حتى أزقتها المتعرجة وزهورها المتنوعة لها امتدادٌ غير مرئي بعاطفتك المتقلبة، ومزاجك المتغير.

جلسا على مقاعد خشبية، مبتعدين عن بعضهما بلطف، على أنهما كانا قريبين بخطورة الأفكار التي تسيطر على قلبيهما! يمر الوقت بسلاسة وبسرعة غير محبوبة كعادته في كلّ ما هو جميل، يمرّ الوقت بكلمات تحمل الكثير من المعاني الخفية والعواطف الظاهرة، وما بين المحادثات السطحية والمحادثات العميقة يتبادلان أفكارهما عن الحياة بشكل عام، بينما تجلّت بينهما الابتسامات والنظرات التي تتحدث بصدق عن الرغبة في سرقة المزيد من هذه اللحظات، تتداخل أصوات الطيور مع تفاصيل الحديث بينهما، وربما تساقطت أوراق الشجر برفق فوقهما أو قربهما، لا دلالةً على النهايات كما يحصل دائمًا، بل كاشفةً برمزيّتها جميع الأحاسيس المتدثرة بلحافي التردد والخجل، تعجيلًا لتلك اللحظة المناسبة للبوح بما وراء القلوب.. أمّا التوتّر فلا يكونُ جميلًا إلا فيما يكون قبل اعترافك للآخر بالحب.. ثمة خليط محبوب من مشاعر لا تُحَبُّ عادةً ولا تُراد! فكما الأمواج الهادئة التي تستعد للعاصفة، تتأجج عواطفنا وتتغير وتتشكل منها مجموعة أحاسيس غير مفهومة، نطلق عليها لاحقًا اسم الحب.. نشعر وكأن الزمان يتوقف إجلالًا وفرحًا، ليحتفي ببداية جديدة لعاشقين، حتى ولو افترقا بعدها.

قال وهو يظهر تأملًا بالطبيعة من حوله، ودون أن يلتفت إليها: يبدو أن هذه

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ضوئيا

الحديقة تستطيع الاحتفاظ بأسرار أعمق مما يستطيع الناس ذلك.

وبينما تتأمل هي ما حولها أيضًا، التفت هو إليها وتابع: ربما لأن الناس يحملون أشياء لا تُخفى بسهولة، ويحتاجون دائمًا لذلك الشخص المناسب، حتى يتخففوا من عبء تلك الأسرار. وهنا التفتت سارة إليه..

- يتابع: أعتقد أن الأشياء الجميلة في الحياة قد تكون مخيمة في الظلال أحيانًا، كهذا الجو الغائم الذي يُعطي الحديقة لمسةً من الغموض والرومانسية.

- هو ذاك، أحيانًا يكون الظلام مكانًا يتوارى فيه الجمال الحقيقي، مثل مشاعرنا - وابتسمت ابتسامةً ملؤها الحياء - إنها تتجلى في اللحظات الهادئة والمختلطة بالظلال.

- بابتسامةٍ تعبر عن سعادته باقتناص الفرصة: ربما تكون الأنفس كذلك، ليست الحديقة وحدها التي تخفي الجمال.

هل سيتركهما طقس اسطنبول مُنعَّمَين في هذه الأجواء الرومانسية الهادئة؟ لن يفعل بالطبع! بدأت الأمطار تتساقط بتتابع سريع، وما لبثت أن انهمرت بحماس وغزارة، وراحت الرياح العاتية تزعزع طمأنينة أغصان الشجر، ثمّ اشتدّت عليها وأخذت تقلبها ذات اليمين وذات الشمال، فخلق ذلك صوتًا ملحميًا يمزج بين هدير المطر وصفير الهواء الشديد، مما جعلهما يغادران غول هانة فورًا، ولكن إلى أين؟ إنّ أجمل وجهة يمكن أن يتجه إليها عاشقان هي الوجهة المجهولة، فالضياع في الشوارع على غير هدى منحة من الحبّ لا يحظى بها الجميع، ركبا السيارة والمطر يقطر منهما، وإن شئت قل كانا مغتسلين بالمطر المنهمر اغتسالًا، بقيا دقائق قبل المسير لترتيب أنفسهما والتخلص من هذا العبء المائي الجميل، ثمّ انطلقا.

Telegram:@mbooks90

- مشتغلًا بمسح قطرات الندى عن الزجاج الأمامي من الداخل، ودون أن ينظر إليها: كأن هذه الأمطار تمسح كل شيء وتمنحنا بداية جديدة.

- هزّت رأسها موافَقةً، وتابع هو بعد صمت لم يطل: شيء ما يشعرني أنّ الزمن يريد أن يتوقف هنا، كأنه يريد أن يخطفنا من أنفسنا، ويمنحنا من نفسه ما منعَ منه

Scanned with CamScanner

غيرنا.

- بابتسامة فيها إشراقة القبول: يبدو أن كل شيء حولنا يختفي تدريجيًا، ما عدا اللحظة التي نعيشها الآن، معًا، في هذه السيّارة، على أعين الغيم والمطر.

- بادرها بخبث ضاحكًا: هل تعتقدين أن الحب يأتي في لحظات كهذه؟

- لا، وابتسمت بخجل.

- هربَ بذكاءٍ مُبتسمًا هو الآخر: هل تستمتعين بهذا الطقس؟

- نعم، إنّه يضيف روحًا مختلفةً للأشياء.

- لطالما تساءلتُ عن القوة الساحرة للماء، إذ كيف يمكن للمطر أن يغير مزاج الإنسان؟

- نظرت إليه نظرة مَن تريد أن تسمع منه (وأنتِ): هل المطر وحده مَن غيّر مزاجك هذا اليوم؟

- همهم بشفتيه، وقال همسًا: المطر.. وأشياء أخرى!

كان يومًا من أجمل أيام العمر، وليلة من أكثر لياليه صفاءً وبهاءً وعاطفة، لولا أنّ عثمان كدّر هذه المياه العذبة بما لم يستطع إخفاءه، وهو أنه متزوج، قالها في ختام السهرة، حينَ وقفا أسفل البناية التي تسكنها سارة، وتحت سماء مليئة ببريق الأماني، وتحديدًا قبل لحظة نزولها من السيارة، ألقى عثمان بثقل كلماته الصادقة والموجعة على مسمعيها، لقد خشيَ على مكانه في نفسها بعد أن أصبح متأكدًا من مشاعرهما، فأراد أن يكون حقيقيًا، وأن تكون الكرة في ملعبها، إنه يفضل أن يتحمل صعوبة وفداحة هذا الموقف الصادق، على أن يتركها في الوهم الجميل، مما قد يسبب لها أذىً يستمرّ معها لسنوات، أمّا هي فعبسَ وجهها وتردد واختلطت ملامحه بتعابير شتى، ستترك الأمر للصمت، فلم تكن هناك كلمات قادرة على ترتيب الفوضى التي أحدثها اعترافه، يا له من موقف لا تُحسد عليه، ولكن: هل صحيح أنّ المرأة إذا وقعت في حبّ رجل ثم عرفت فيما بعد أنه متزوج، هل صحيح أن ذلك يزيدها حبًا

Scanned with CamScanner

وتعلقًا به، على خلاف ما تدعي النساء؟ عندما أخبرها عثمان بما يظنّه كارثة، شعرت هي بعواطف مختلطة، وحين صعدت إلى بيتها وتجهزت للنوم، مستقبلةً بوجهها السقف في حالة روتينية من الأرق المعتاد، حاولت سارة فهم هذا الشعور المعقد الذي أثاره اعتراف عثمان المفاجئ، وبكل هدوء حاولت أيضًا فهم الأسباب والمشاعر التي ألقتها في جبٍّ عميق من الجاذبية والارتباك، بحثت عن تبريرات منطقية لعدم نفورها منه، ووقفت مذعورةً في أعماقها من أنّ حالته الاجتماعيّة ربما زادتها فضولًا وشغفًا لأن تكون معه وله! تعرف جيدًا أنّ العواطف قلّ ما انبثقت من منطقٍ مفهوم، والحب.. يأتي دائمًا كما هو يُحبّ، وبالصورة التي يرغب، وتدرك أيضًا أن البحث عن الشرح المنطقي لهذا الوضع ليس سهلًا، وقد يكون ضربًا من المحال، إنها لعنة الحب المعقد والممنوع، من ذا الذي ينجو منها؟ ثمّة ما يجعل الكثيرين حطبًا لنيران هذا النوع من العلاقات، وهذا يفتح بابًا أشدّ وأسوأ، وهو ولع الكثير من النفوس البشرية بالحزن، لقد مرّ على هذا الكوكب الكثير من الذين أحبوا أحزانهم، بل وقدّسوها! من يدري لعلّ عثمانَ الذي أحسّ بعاطفة لا تقاوم لسارة، تعمّد إخباراها بزواجه ليضمن وقوعها في حبّه!

Scanned with CamScanner

17

بعد كابوسه اللعين الذي رأى فيه رامي هناك في ذلك المكان المظلم ودار بينهما ذلك الحوار المقتضب، قام زياد من فاجعته وهو في حالة أشبه بالموت، فكأنّ أحمد شوقي كان ينظر إليه حين قال: مُضنىً وليس به حِراك، اللهمّ إلا أنّ زيادًا لا ينطبق عليه الشطر الثاني من هذا البيت (لكنْ يَخفُّ إذا رآك) إذ كانت كوارثه الحقيقية في الرؤى والرؤيا، سواء في المنام أو اليقظة، رفع رأسه الثقيل ببطء ثمّ هوى به مرةً أخرى، كان أول ما تبادر إلى ذهنه حين فتح عينيه: الحمد لله.. لم أقتل أحدًا في المنام هذه المرّة! ... رامي؟ آه يا رامي آه، يا لغزًا لم أجد له حلًّا، آه يا أيها الشاب الحالم الطيّب، ليتك لم تمت، قسمًا سأثأرُ لك، قسمًا سأثأر ولو من نفسي! ليس لك وحدك، بل لزينب أيضًا، سوف آخذ لكِ بحقك من قاتلك يا زينب، هل تسمعينني الآن؟ سوف أضع خلافاتنا القديمة على الرف، وأنتقم لعينيكِ الجميلتين، لا تقولي لي: هذه الخلافات تعنيك وحدك فأنا أكبر من أن أكون شريكةً لك بشيء، حتى ولو كان خلافًا! لا تقولي هذا، أرجوكِ ضعي أنتِ هذه الكبرياء المقيتة على الرف أيضًا، دعينا الآن نبحث عن قاتلك، ولكِ عليّ أن أقتله ولو كان أنا! سرت فجأةً في جسده قشعريرة سريعة جعلته ينتفض وهو في مكانه، ترى من سوف أقتل في المنام القادم؟

في مرارات الاستفهام اللا متناهي، يسائل نفسه أحيانًا عما إذا كانت تلك الصور الشاحبة التي تنعكس على شاشة النوم تعكس حقيقة مظلمة تتربص بأبواب وعيه، هل عليه الإفصاح عن الأسرار المكبوتة في أعماق روحه، أم أن احتفاظه بها أبقى لنفسه، وأخفُّ عليه وطأةً من اهتزاز شخصه في عيون الآخرين، لقد بدأ الأمر في أن يرى نفسه قاتلًا في المنام، ثم تطور الآن بأن صارت المنامات تُرجع إليه قتلاه ليحاسبوه!

بوجهٍ بائس وعينينِ يشوبهما احمرار خفيف خرج من بيته إلى محل التحف القديمة.. لا شيء عنده اليوم، خرج لمجرد الخروج، إنه يريد أن يفعل شيئًا دافعه لفعله إرادته المحضة فقط، فلا غاية واضحة عنده، كانت اسطنبول مشمسةً ذلك

Scanned with CamScanner

الصباح، وكأنه يوم هاربٌ من فصل الصيف، في ضواحي المدينة، حيث الشوارع الضيقة والمتعرجة، كانت سيارته تندفع بسرعة مخيفة، وكان مشوشًا ومضطربًا، تعكس تصرفاته كبير حيرته وقلقه، فكأنه يهرب من شيء ما غير مرئي، ومع كل دقيقة كانت الشوارع تزداد فيها ازدحامًا، يزداد هو توترًا وتشويشًا.. وصل أخيرًا إلى محله الذي صار ملجأً له في الفترة الأخيرة، فإذا كان سبب فتحه لهذا المحل قديمًا هو التقرب لزينب، فإنه الآن يحبّ التحف بصدق، ويشعر بانتماء عميق لكلّ الأزمنة السابقة، فهو يقضي معظم وقته بين قطع السجاد الأثريّ المليء بأحلى الزخارف، وبرفقة القطع الفخّارية المزينة بألوان رائعة ونقوش فنية تعكس تقنيات عتيقة وحِقب تاريخية بعيدة، لقد اعتاد أن يُعدّ قهوته في تلك الأواني الزجاجية المرسوم عليها بأناقة ودقّة عالية، وإذا كان خير جليس عند أبي الطيّب هو الكتاب، فإنّ خير جليس عند زياد هو المجوهرات الفضية والذهبية القديمة، المليئة بالحرفية الرائعة، والمنحوتات اليدوية الزاخرة بالتفاصيل الدقيقة.. تلك التي تروي قصصًا عن الأزمنة البائدة من حضارات مختلفة.

اقترب من كرسيه الدوّار خلف المكتب المصنوع من شجر الجوز العتيق، وجلس بعدما أعدّ كأسًا من الشاي الثقيل، الموت.. يؤرقه هذا اللغز القديم، في فترة سابقة من حياته كان زياد يتحدث لأصدقائه عن فوائد الموت ويجلس أمامهم جلسة الفلاسفة الكبار ويشرّق ويغرّب في الحديث، فتجده يتبجّح بكلّ موضوعية وثقة: من الناحية البيولوجية، إذا لم يكن هناك موت، فإن العدد السكاني سيتزايد بشكل غير محدود، مما قد يؤدي إلى نفاد الموارد بسرعة وتفاقم المشاكل البيئية والاقتصادية، ومن الناحية الاجتماعية والنفسية، يمكن أن يؤدي عدم وجود الموت إلى تغيير طبيعة تجاربنا ومعانيها، بحيث لا يكون هناك أي معنى مفهوم للنهاية أو الوداع، وهذا سوف يؤدي بالطبع إلى تغيير شكل العلاقات الإنسانية وطريقة تعاطينا مع الوقت والعمر، كما أن وجود الوفيات يسهم في تنظيم البقاء والانسجام في النظام البيئي، فلو افترضنا غياب الموت، قد يكون لذلك تأثيرات غير متوقعة على توازن النظام الكوني وتنوع الكائنات الحية.

نعم.. كان ذلك حين كان الموتُ زائرًا يخطف الناس من حوله ويستثنيه، فكأنه

Scanned with CamScanner

بهذا يقدّم رشوةً له حتى يستمرّ في استثنائه من المعادلة! ربّما يكمن لغز الموت في أنه نهاية لعالمٍ ألفناه، وبداية لعالمٍ نجهله، وهذا قد يكون مصدرًا لطمأنينة البعض، وباعثًا على الخوف عند غيرهم، ولكن بالنسبة لزياد، فهو يرى أن الخوف من الموت ينبع غالبًا من عدم إكمال الأهداف والطموحات في الحياة، ولذلك قد ينتابه بعض الخوف منه، بالرغم من أنه يرتبط بالموت ارتباطًا وثيقًا أكثر من جميع أقرانه، فمنذ بلغ سنّ الوعي والرشد، ورغم اقتراب حياته من السابعة والثلاثين، لا يعرف عامًا واحدًا بغير فقد، سواءً لقريب عزيز، أو لأحد معارفه، كلّ هذا وهو متفرج مع المتفرجين على النهايات التي لا يملك لها دفعًا، أمّا أن يصير هو بنفسه ممرًّا للهالكينَ من الدنيا إلى الآخرة! وأن يتطوّر الأمر إلى أن يجد نفسه أداةً في يد الموت، ينهاهُ ويأمرهُ فيمثلُ له راغمًا على السواء في النوم واليقظة، فهذا ما لم يكن بالحسبان.

***

وصلته رسالة وهو يتصفّح مواقع التواصل من ريما، طلبت منه أن يتجهز للقاء يجمعهما بسارة وعثمان أوغلو، غدًا مساءً في أحد مطاعم اسطنبول الآسيوية.. يتبع ذلك مسيرًا لهما وحدهما لبعض الوقت على شواطئ اسكودار المطلة على قصور السلاطين العثمانيين.. وصلت الرسالة في وقت غير مناسب، لم يعد زياد ذلك الرجل الاجتماعي المحب للحياة كما كان، ولكنه لا يملك رفضًا لهذا اللقاء، ذاك أنه منذ أسبوعين وهو يعتذر عن لقاءات ريما، فلو استمر على هذا فسوف يتحول الأمر إلى سلسلة معارك كلامية بينهما لا نهاية لها إلا الفراق ووجع الرأس، وزياد غير مستعد نفسيًا لأيّ توتر، لذا قام بإرسال رمز من رموز تطبيق واتساب يدلّ على الموافقة، وهو يتمتم باللعنات على جنس النساء الذي لا همّ له إلا توافه الأمور! نعم، العواطف هي توافه بالنسبة لزياد خصوصًا في هذه الحالة الحرجة التي يعيشها، إنه أقرب إلى الوحش منه إلى الإنسان.

عاد إلى تصفحه مواقع التواصل هربًا من اليأس والألم، ليجدهما بانتظاره هناك! يحدّق في الشاشة وعيناه تعكس وقع الصدمة والحزن، يتجلى التناقض على وجهه المتجهم، يا له من شعور معقد أن تمتلئ بالحزن لمشاهدة الدمار والحروب

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوض ةحوسمم

التي تجتاح ما حولك من البلدان، في حين أنّ مصدر رزقك قائم على بقاء هذا الموت وهذا الدمار! يتمتم في نفسه: ما هذه اللعنات التي أنا عالق فيها؟ كلّ لعنةٍ أكبر من أختها وألعن! لا تبدو هناك نهاية لهذه الدوامة المظلمة.. هنا بالتحديد وهو يحدث نفسه بما سلف، سمع صوتًا لأحدٍ يمشي باتجاهه، رفع رأسه ببطء فكانت اللعنة الحقيقية بانتظاره! تحمل ابنتها الصغيرة على ذراعيها، وبوجهٍ تبدو عليه آثار الاختناق. ويظهر على رقبتها آثار احمرار الجلد كأنّها خُنقت وماتت للتو، كانت زينب تقف أمامه، يا له من مشهدٍ مرّوع! لم تزد على أن استمرت تنظر إليه بحزم وهي صامتة صمت الموتى، أخذ يعرك عينيه بقوة، ليتأكد من أنه ليس في حلم كالحلم الذي رأى فيه رامي.. فاستيقظ فعلًا! وهو فزِعٌ فزَعًا شديدًا جعله يقفز عن سريره واقفًا على قدميه، لقد كان كابوسًا جديدًا، والذي حصل هو أنه حينَ قام من حلمه الأول برامي غلبه النوم مجددًا، لأنه لم يستطع النهوض من سريره، فزارته زينب في محل التحف! سمّى هذه الليلة لاحقًا، ليلة الموتى! سوف يقوم الآن ويخرج من بيته على سبيل الهربَ، وسوف يقرأ متفاجئًا رسالة ريما ويتعجب من أنه أجاب عليها ووافق على لقائها في لحظاتٍ كان فيها ضائعًا بين نومه ويقظته، متقلبًا بينَ الواقع والحلم.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

18

لا أحد من الجالسين على هذه الطاولة يعرف أنّ عثمان أوغلو يعمل محققًا جنائيًا في النيابة العامّة، حتى سارة، الجميع يعرف الآن أنه يعمل محاميًا ولديه مكتبه الخاص، هكذا يقتضي عمله بحسب رأيه، في كلّ لحظة، يُمكن أن تعثر على مجرم، أو على خيط من الخيوط المؤدية إليه! هذه إحدى نظرياته في الحياة العملية، وما أكثر نظرياته.. بالتأكيد، لم يكن عثمان يتوقع أبدًا رؤية زياد مرة أخرى بعد أن رآه في كاميرات المراقبة، لذا فإن استغرابه من هذه المصادفة كان طبيعيًا تمامًا، ها هو يشعر بالدهشة الكبيرة، وتُباغته التساؤلات السريعة في ذهنه، حول كيفية تقاطع مساراتهما مرة أُخرى بطريقة غير متوقعة، لكن وعلى الرغم من استغرابه ودهشته، حاول قدر الإمكان أن يتصرف بشكل طبيعي وألا يظهر مشاعره هذه، وأن يبقى هادئًا ولبقًا في تعامله، ومع هذا بقيت علامات المفاجأة لم تفارق وجهه طوال اللقاء.. قد تُغير المصادفات مسارات الأحداث في حياتنا بشكل لا يُمكن توقعه، فهي التي تُظهر لنا وبشكل دائم دورَ القدر في توجيهنا نحو لحظات مفصلية، وهي التي تمتد جسورًا مترابطة معنا بطرق تبدو في ظاهرها عشوائية، بينما تسير بنظامٍ عجيب يترك أثرًا عميقًا في مجريات أعمارنا، بالإضافة إلى ذلك، تُظهر المصادفات أحيانًا جانبًا من قدرتنا على التأقلم والاستجابة بما يتناسب مع الموقف للتغيرات الفجائية، فتُحدث تأثيرات مدهشة على طريقتنا في التفكير والعمل وتواصلنا مع العالم من حولنا.

يتميز هذا المطعم العصريّ ببعده عن كل ما يمت للحقبة العثمانية بصلة.. ستلاحظ ذلك من المدخل، حيث تستقبلك أبواب زجاجية عالية تعكس أنوار الشوارع المحيطة، وتمتزج معها نغمات موسيقى هادئة تُحاكي الأجواء الراقية والمريحة.. عندما تخطو قدماك داخل المطعم يتبدل المشهد إلى مساحة فسيحة مليئة بالضوء الطبيعي والألوان الناعمة، تتميز الأرضية ببلاطٍ خشبي فاخر يبسط نوعًا من الدفء على الأجواء، بينما تتناثر الطاولات والكراسي الحديثة بتصميماتها المميزة في كل ركن، ومن فوقها تتوزع آلات التدفئة، أما الطاولات فتمتاز بسطح أنيق من الزجاج

Scanned with CamScanner

المقاوم للخدش، يعكس بريق الأضواء المعلقة من السقف ويعزز من تألق الديكور العام، سيكون واضح لك أنّ الكراسي تم اختيارها بعناية شديدة، لتناسب أسلوب المطعم، وهي أيضًا من النوع الطبّي المريح للغاية، بحيث تنسى نفسك لساعات داخل المطعم.. يرافق ذلك لمسة عصرية راقية على معظم الأثاث.. ثمة شريط زجاجي علوي يتلألأ بإضاءات عصريّة متعددة الألوان تنشر في المكان جوًا من الحيوية والمرح.. يتميز المطعم بتقديم قائمة طعام متنوعة تشمل أشهى الأطباق العالمية بلمسة إبداعية، وتتنوع الأطباق بين المقبلات الشهية، والسلطات المنعشة، والأطباق الرئيسية الكثيرة، والحلويات اللذيذة، كلها مُحضّرة بعناية فائقة وبمكونات طازجة ومحلية المنشأ.. ملابس العاملين أيضًا تعكس لك أناقة المكان، إذ يرتدي الطاقم رجالًا ونساءً زيًا موحدًا من بدلة أنيقة بألوان هادئة تنسجم مع الديكور العام، جميع ما في هذا المطعم يمنح الأجواء لمسة من التناغم والاحترافية..

بين الترحيب والحذر من عثمان، شعر زياد بتوتر طفيف وببعض الحيرة وعدم الارتياح، لكنه سرعان ما تغلب على هذه المشاعر وأبدى تأقلمًا سريعًا، وبالنظر إلى الكثير من التجارب يظهر لنا أنّ عدم الارتياح بين شخصين في أول لقاء قد يكون مفتاحًا لعلاقة عميقة بينهما فيما بعد، لم يلبث الجمود كثيرًا، بدأت الأحاديث تتدفق بين الاثنين، فقد استطاعا بطريقة أو بأخرى أن يجدا نقاطًا مشتركة، وأفكارًا يمكنهما مناقشتها والتوصل لنتائج مشتركة أيضًا، وإن كانت جميعها على سبيل المجاملة، ومما زاد هذه السهرة جمالًا في رأي زياد – لاحقًا - هو أنّها لم تطل! وأكثر ما سيطر على رأسه خلال هذه السهرة: ما الذي أعجبك في هذا الإنسان يا سارة؟! شيء من مشاعر مختلطة في أعماقه، وفي النهاية تبادلوا جميعًا أحاديث مقتضبة، ومليئة بالجمل التقليدية المعتادة لختام مثل هذه اللقاءات التعارفيّة، ثمّ تلا ذلك انسحاب هادئ تفرّقت فيه الأطراف، حتى وجد زياد نفسه رفقة ريما على شاطئ أسكودار الجميل..

- متى سينتهي انعزالك هذا؟ ومتى سنمشي خطوةً للأمام يا زياد؟ قالتها ريما، وهي تعلم مسبقًا أنه بانتظار هذا الكلام في هذه الليلة لا غيره، إنها تريد أن تضع حدًا لهذه العلاقة المنفلتة.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةوسمم اهئض

- بهدوء وبدون أي تعابير ترافق وجهه البائس: حددي موعدًا لكتب الكتاب يناسبك، وأخبريني بذلك لأستعد.

لم تكن تنتظر هذا الجواب أبدًا رغم سعيها له! فقد اعتقدت أنه سيعارض ويتهرب كما حصل قبل ذلك أكثر من مرة، فما الذي جرى؟ وما هذا الرد الناشف المختصر على موضوع له انعكاسات على الحياة الكاملة، دفعها كبرياؤها الأنثويّ لأن تقول بشيء من غضب: - ولماذا تقولها بثقل هكذا؟ كأنني أجبرك على الزواج!

- أخرج زفيره بصوتٍ عالٍ وأتبعه بقوله: لا حول ولا قوة إلا بالله! هل تريدين مني أن أقيم حفلًا بالطبل والمزمار وأغني وأرقص مثلًا!

- بغضب عارم وصوت مرتفع: اعتبر هذا الأمر انتهى هنا، ولو فرشت لي الأرض حريرًا لن أتزوجك! وغادرته مسرعةً بغير التفات إلى الخلف.. هل يقتضي المشهد هنا أن يركض خِلفها كما يحصل في المشاهد العاطفية للمسلسلات العربية ليرضيها ويعتذر ويتدارك الموقف؟.. للأسف لم يكترث زياد أبدًا! وذهب باتجاه أحد مقاعد الشاطئ وأشعل سيجارته.

أمّا عثمان فبحجّة أنه يريد إيصال سارة إلى المنزل، راح يدور في شوارع اسطنبول بسرعة دون المتوسطة طمعًا في وقت أطول معها.. على أنّ رأسه كان مشتتًا بين ما يشعر به اتّجاه سارة في هذه الأثناء، وبين صدمته الداخلية برؤيته لزياد، وما يُخفي زياد بعينيه اليائستين.. لن يستمر شتاته كثيرًا، سيتجاوزه ليمنح سارة كلّ كيانه، باغتها بعد صمت دقائق: لمن تقرأينَ من الشعراء؟

- تبسّمت: وهل تعرف شعراء العرب؟

- لا، ولكنني أعرف جيدًا تعلّق العرب بالشعر، بما يفوق بقية شعوب العالم

- صحيح.. إننا نتنفس شعرًا، وبالنسبة لي فأنا أهتم بالشعر الجميل من أيّ جغرافيا كان.

مُبتسمًا وهو يلتفت إليها: ولكنني أهتمُّ بالقصيدة..

Scanned with CamScanner

- ما الذي تعنيه؟ هل ثمة فرق بين الشعر والقصيدة؟

- يزيد بابتسامته: لا، غير أني لم أتصور يومًا من الأيام أنّ الزمان سيجمعني مع القصيدة في سيارة واحدة!

ملأ الخجل وجهها الناعم.. وتولت ابتسامتها الصامتة الإجابة عنها، فتابع: إنّ قلبي منذ عرفتُهُ لم ينبض اشتياقًا لعينيّ امرأةٍ سواكِ.

- أدارت وجهها إلى النافذة، ثمّ قالت بتردد: عثمان.. لا تفعل.. أرجوك لا تفعل! دعنا على الشاطئ، فأمثالُنا يغرقهم البحر.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم ا

19

عادت ريما وهي عالقة بين الارتياح السطحي، والحنَق العاطفي، تلك الخطوات الثقيلة التي توجهت بها نحو باب منزلها كانت تحمل الكثير من الأفكار المتضاربة، عادت وقد اختلفت في أعماقها موازين الثقة والشك، وازدادت الأسئلة نهشًا في رأسها، دخلت البيت في حالة من الهدوء، لكنّ هذا الهدوء الخانق كان باعثًا على التفكير بصوت عالٍ فيما حدث، وعلى الرغم من الارتباك والقلق، إلا أنها كانت تشعر براحة غامضة تتمثل في أنها خطت خطوة باتجاه الاستقرار، سواء كان هذا الاستقرار بالزواج والاستمرار.. أو بالفراق للأبد.

دخلت غرفتها.. الفوضى الخفيفة تُسيطر على الأمور، الكتب مبعثرة على الرفوف، وأوراق العمل مُراكمة على المكتب، كما لو أن كل شيء كان يحتاج إلى ترتيب، في الحقيقة كانت الغرفة مكانًا يمتزج فيه الجمال بالفوضى، أشياء كثيرة من حولها تُذكّرها بتناقضات حياتها، وكلما نظّمت جزءًا منها، تبقى أجزاء أخرى مبعثرة.. تشعرك الحالة العامة للمشهد، وكأنّها رسالة مضمونها أن الحياة ليست دائمًا مرتبة كما نحب.. جلست على حافة السرير، وأمسكت بمذكراتها، تسجل كل فكرة تراودها.. مرّ وقت قليل، ثمّ بلحظة جنونية، وهكذا دون أي تفكير ألقت دفتر مذكراتها وأخذت هاتفها واتصلت به.. ما إن أجاب إلا وانهمرت عليه باللعنات والدعوات والشتائم بطريقة هستيريّة تستدعي منه ردًا هستيريًا، لكنه ظلّ طوال صراخها صامتًا، لم ينبس ببنت شفة! مما عظّم حنقها عليه وزاد حدّة صراخها، إلى أن انتهى الأمر بقذفها لهاتفها اتجاه الجدار ليسقط قطعًا على الأرض.

عندما يتعلق الأمر بالأنثى، فإن خطورة العلاقات السامة تكون مضاعفة، وآثارها مدمرة على صحتهن النفسية والعاطفية أكثر من الرجال، ذاك أنّ العاطفة هي محور حياة المرأة، فإذا طُعنت من جهتها فالطعنة قد تكون قاتلة ولو كانت طعنة سطحية، فأول نتائج العلاقة السامّة على الأنثى التدهور السريع والكبير في مستوى الثقة بالنفس، مما يجعلها أكثر عرضة للاستغلال أو الإهمال في علاقاتها الأخرى، وأسوأ ما تواجهه المرأة حين تقرر الهروب من العلاقة السامة، أنها تكون عرضة للوقوع في

Scanned with CamScanner

علاقة سامّة أخرى، وذلك بسبب الحاجة الملحة للحب والاعتناء بعد تجربة قاسية، بالتالي ستكون أكثر استعدادًا لتقبّل أيّ نوع من العناية حتى لو كان مزيّفًا.. ريما وفي عمق قلبها، كانت تعلم أن العلاقة التي تجمعها بهذا الرجل ليست سوى محلول سام يتسلل ببطء إلى روحها، ولكنها لا تستطيع إلا أن تحبه، كلما حاولت الابتعاد.. اجتذبته إليها قوى لا تفهمها، وبرزت أشياء عديدة تجبرها على البقاء، فهو ليس مجرد شخص بالنسبة لها، بل كان عالمها بأكمله، لم يكن خوفها من فقدانه، بل كانت الوحدة هي التي تجعلها تشعر بالضعف، بالرغم من معرفتها الجيدة بأنها تسير في طريق مظلم لا يؤدي إلا إلى الألم، تعرف جيدًا أنها ستبقى في هذه اللعبة المؤلمة حتى تستعيد قوتها وتتخلص من سلسلة هذا الحب القاتل الذي أسرها بكلماته الحلوة وأفعاله الخبيثة، نعم، إنه يمتلك القدرة الفريدة على إذابة أي مقاومة لديها، ولكنها في هذه اللحظات تدرك أن حرّيتها تكمن في القدرة على الابتعاد، وأن الحب الحقيقي يستحيل أن يكون مع هكذا نوع من الرجال.

ماذا عن زياد إذن؟ قد حان الوقت بالنسبة إليه، فقد أخذ الأمر فوق المعتاد، إنه سمح لها بإزعاجه أكثر من اللازم! قام مُغضبًا، يكاد الشرر يخرج من عينيه، واتجه بسيارته إلى بيتها، وبسرعة مجنونة عبر الشوارع المظلمة والمتوهجة والخالية في الوقت المتأخر من الليل، باستثناء بعض السيارات التي كانت تمر بسرعة، والأضواء اللامعة لبعض المحلات الليلية التي كانت تتلألأ في الأفق، اجتاحت الرياحُ الباردةُ الشوارعَ الضيقة، مما جعل الأشجار تتأرجح بشكل مخيف وجعل أوراقها تتطاير في الهواء، يلتفت زياد لإشارات المرور بنظرة غاضبة، متوجسًا من كل تحدٍ قد يواجهه في رحلته المتهورة، وصل إلى بيتها بعد رحلة محمومة، وصل بقلبٍ ينبض بالغلّ وعينين ملتهبتين بالغضب، وعندما وقف أمام البناية التي تسكنها ريما، ألقى نظرة سريعة حوله، وكأنه يتأكد من عدم وجود أي شيء غير مألوف، ثم نزل من السيارة بخطوات ثقيلة وعصبية، دق الجرس وانتظر.. كان لا بدّ من إخفاء غضبه وارتداء الوجه البارد، بعد لحظات فتحت ريما الباب ببطء، وقفت ووجهها يعبس استياءً، وبصوتٍ غارقٍ بالحزن: ماذا تريد؟ ... أنا آسف ريما، قالها وهو يحدّق في عينيها بشدّة، ثم قال وهو يدخل إلى البيت: أنا لم أقصد أن أثيرك، أو أحزنك، وفي كلّ

Scanned with CamScanner

الأحوال نحن بحاجة إلى أن نتحدث.

***

بين غرفة المعيشة في شقتها وبين زياد علاقة خاصة، فهو مفتون بهذا التوافق بين الأناقة البسيطة وبين الدفء بغير تكلّف، وهو مأخوذ بهذه الجدران المطلية باللون الرمادي الفاتح والخالية من أي لوحات، وهناك في زاوية الغرفة أريكة جلدية بنية داكنة، مريحة ومتينة، طالما جلس عليها، لكنه لم يفعل في هذه الليلة، ونابت عنه بطانية صوفية ملقاة بعفوية، أمّا منتصف الغرفة، فكانت هناك طاولة زجاجية بأرجل معدنية سوداء، عليها بعض الأكواب الفارغة، وإلى جانب هذه الطاولة، مصباح أرضي طويل يصدر ضوءًا خافتًا ينعكس على الأرضية الخشبية غير اللامعة، مكونًا ظلالًا عشوائية طويلة وناعمة، النافذة الكبيرة مغطاة بستائر شفافة بيضاء تسمح بدخول ضوء القمر الباهت، لمسة من السحر مُضافة إلى هذا الجو الليلي الهادئ.

عند النافذة، يوجد هناك كرسي بذراعين، مريح ومبطن بنسيج مخملي أزرق داكن، وفوقه وسادة مزخرفة بزخارف ذهبية، في الجانب الآخر من الغرفة، كان هناك رف خشبي طويل مليء بالكتب، مرتبة بعناية، وفوقه بعض الأغراض الشخصية، صور مبروزة مثلًا وأشياء تذكارية صغيرة على أحد الأرفف، ثمّة مزهرية زجاجية أيضًا، تحتوي على أزهار ذابلة.. المطبخ مفتوح على الغرفة ويظهر بشكل جزئي، مع أسطحه الرخامية البيضاء والخزائن الخشبية الداكنة، على المنضدة، توجد سلة فاكهة تحتوي على تفاحة وحيدة وبعض البرتقالات، في اللحظة التي دق فيها جرس الباب، كان كل شيء في الغرفة يبدو هادئًا ومستقرًا، لكنّ الهواء كان يحمل في طياته توترًا غير مرئي، كأن الغرفة نفسها كانت تحبس أنفاسها انتظارًا لما سيحدث.

ماذا تشرب؟ قالت وهي تغلق الباب من خلفه، فأجابها وهو يجلس: لا تتعبي نفسك، ما جئت لأشرب شيئًا، هي دقائق وسوف أذهب.. لم تجبه، وذهبت باتجاه المطبخ، ثم رجعت تحمل كأسين من عصير المانجو، وجلست مقابله، كان الضوء خافتًا، وصوت أم كلثوم كان خافتًا أيضًا.. نظر إليها زياد مليًا.. وابتلع ريقه أكثر

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةئوضلا ةحوسملا

من مرّة، وتلفت يمنةً ويسرة أكثر من مرة، وبدا مضطربًا للغاية، وعاد ونظر في عينيها البراقتين اللتين كانتا تنظران إليه بوجوم وحيرة، حاول أن ينطق بما يعتمل في صدره، لكنّ الكلمات خرجت متقطعة، متعثرة، فغطى وجهه بكفيه وأخذ نَفسًا عميقًا، وفي هذه اللحظة اخترق صوتها أذنيه، وبادرته: هل أتيت إلى هنا لتسكت، أم لنتحدث؟

بل لنتحدث.. قالها وكفاه يغطيان وجهه، ثمّ ما لبث أن وقف واتجه إلى الشرفة، وأخذ ينظر في المدى البعيد.. كم يشبه هذا الظلامُ الممتد إلى آخر البصر أعماق روحه، ظل هكذا لدقيقتين، ثمّ أكمل بصوتٍ بالكاد سمعته ريما، قال وكأنّه يحدث نفسه: كنت مؤمنًا في بداية الشباب أن الحياة ستنقاد لمخططاتي، وأن الأماني سوف تتحقق بالطرق التي أختارها بعناية.. لكن مع الوقت بدأ إيماني هذا يتزعزع، إذ أنّ الطريق الوردية والمستقيمة التي نرسمها نحن في أوج الحماس والاندفاع ما هي إلا وهم، فالحياة فيما خبرته منها لا تعترف إلا بالطرق الملتوية! إنه شعور صعب، حين تجدين نفسك في مواجهة هذه الحقيقة، كلما خطوتِ خطوةً نحو هدفك، انحرف الطريق بشكل غير متوقع.. في كل مرة ظننت بها أنني قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلم ما، يحدث شيء يغير المسار.. أنا يا ريما ومنذ عرفت الحياة أسبح ضد التيار، أُجهد نفسي في محاولات ومحاولات من أجل الوصول إلى أيّ برٍّ كان، سواء عندي برّ المخاوف أو برّ الأمان، لكن ما يحصل دائمًا هو أنّ الأمواج تعيدني إلى نقطة البداية.. وأسأل نفسي دائمًا: هل ما أريد يستحق كل هذا العناء؟

التفتَ عائدًا إلى مكانه، وجلس.. أشعل سيجارةً ثمّ تابع وعرقه يسيل من رأسه وجبينه: لن أخترع لكِ أسبابًا وأكذب وأُلفّق من الأعذار ما يُقنعك بسبب رفضي للزواج، لا لن أفعل، بل سأكون صادقًا جدًا، وأقول لك إنّ أعظم ما يُخيفني من هذه الخطوة هو جهلكِ التام بي! إنّك لا تعرفين عني إلا ما أردتُ لكِ أن تعرفيه يا ريما.

لم تقاطعه، ولم تتغير نظراتُها الواجمة والمحتارة إليه، واستمرت تستمع بصمت تام.. بينما كان صوت أم كلثوم الخافت يقول: الليل.. وقسوة الساعات تصحي الليل.. الليل.. الليل..

Scanned with CamScanner

مسح عرقه بمنديل وأكمل بصوتٍ واضح وعامر بالقوة والصدق والسخرية من الذات معًا!.. قال وهو يحدق في عينيها: يؤسفني يا ريما أنني لم آتِ هذا المساء لأكون في عينيكِ شخصًا عظيمًا، بل جئتُ لأكون حقيقيًا للمرة الأولى! لقد تعبتُ من الأدوار التي لعبتها، ومن الأقنعة التي ارتديتها، ومن الابتسامات الزائفة التي طالما رسمتها على وجهي في حضرتك.. يؤسفني أنني لن أكون مثاليًا في عينيكِ هذه الليلة، بل قد لا أكون عاديًا أيضًا! فضلًا عن أن أكون البطل الذي أحببته بعدما أقنعتك بمثاليته ورجولته.. جئتكِ الليلة لأكون صادقًا.. مع إيماني العميق بأنّ النساء يعشقن الرجل الكاذب، ويهربن دائمًا من الرجل الصادق، ويؤسفني أنني سأكون صادقًا ليس من أجلك، بل من أجلي أنا.. لأنني تعبتُ ولم أعد ذا طاقةٍ تمكنني من المتابعة في التمثيل! ... وهنا عاد وقام من مكانه وراح يذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، كانت أم كلثوم في هذه اللحظة تردد «وعايزنا نرجع زيّ زمان؟ قول للزمان ارجع يا زمان» بينما تابع هو الحديث: التمثيل لم يكن في حبك، لا بالطبع، فأنا أحببتك بصدق عميق، ولكن المؤسف هو أنّ حبي العميق هذا كان دافعي للتمثيل! تخيلي.. حبي لك هو دافعي للكذب! ما أسوأها من معادلة وما أشقّها! نكذب لأننا نُحب؟ يا للتعاسة والحزن.. نعم يا حبيبتي هو ذاك، فلو أنني كنت واضحًا من البداية لما كنا معًا منذ أربع سنوات.. انظري إلى وجهي الآن، انظري بعمق.. هل هذا وجه رجلٍ غير جيد؟ هل بإمكانك أن تري وجهي الحقيقيّ كما أراه أنا من الداخل؟

نعم.. لا أنكر أنني أُحب الخير وأفعلهُ، وتعرفين أنتِ الكثير مما أقوم به من رعاية الأيتام ودعم الشباب ومساعدتهم على بداياتهم، والوقوف على الأرامل والمساكين.. تعرفين هذا جيدًا، ولكن هل تعرفين أنّ المسكين في أعماقي لم يقف معه أحد قط؟ لم يسأله أحد من قبل ما بك؟ ما الذي تعيشه؟ لم يساعده أحد في هذا الوجود على الهروب إلى ضفة النجاة.. تركوه يغرق وحيدًا، هل تعرفين لماذا؟ لأنه قدّمهم على نفسه، وقدم كل ما بوسعه ليسعدهم!

- هل جئتَ إلى هنا لتقول لي الجملة الشهيرة للعشاق الهاربين من المسؤولية: لا أريد أن أكون عبئًا عليكِ؟ قلها ماذا تنتظر؟ قل: أنتِ تستحقين رجلًا أفضل مني؟ قاطعته ريما بشيء من الغضب، ثمّ قامت إلى النافذة، وهي تتمتم بصوت مسموع

Scanned with CamScanner
CamScanner تم المسح الضوئي بـ

وفيه غصّة: هل قولها بهذه الصراحة صعب عليك إلى هذه الدرجة؟ لمَ كلّ هذه الدراما التي تقوم بها الآن؟ قلها بهذا الوضوح وانصرف.. فأنا لم أنتظر منك سواها!

قام هو الآخر ومشى باتجاهها، ووقف إلى محاذاتها، ودون أن يلتفت إليها، قال وعيناه تغيبان في الظلام الشاسع من أمامه: أنا آسف.. آسف على كلّ شيء، آسف على تلك اللحظات التي لم أفهمكِ فيها، وعلى تلك الكلمات التي قلتها ولم أقلها، آسف على نظراتي التي ربما لم تكن واضحة، وعلى صمتي الذي كان أحيانًا أعلى من أي كلام... آسف إذا كنت قد تأخرت، أو ربما تقدمت، أو بقيت في مكاني عندما كان يجب أن أتحرك.. آسف على تلك الأحلام التي حلمنا بها معًا، وعلى تلك التي تلاشت في الهواء.. آسف على ضحكاتنا، ودموعنا، وتلك الأيام التي مرت دون أن ندرك أهميتها.. أنا آسف على الرسائل التي كتبتها لك ولم أرسلها، وعلى تلك التي أرسلتها ثم تمنيت لو أنني لم أفعل.. آسف على كلّ لقاء لم يحدث، وعلى كلّ وداع لم يكن كما ينبغي.. آسف علِى كل تلك الأشياء التي كانت خارج إرادتنا.. آسف لأنني ربما لم أكن الشخص الذي توقعتِه، أو الشخص الذي كنتِ بحاجة إليه.. آسف لأنني حاولت، وربما فشلت، أو ربما نجحت بأكثر مما ينبغي.. آسف على كل تلك الأمور التي لن نفهمها أبدًا، والتي ربما لا تحتاج إلى فهم!

اشتعلت عيناها بنيران الغضب وغالبتها الدموع، وبدا وجهها الشاحب كأنما يسكنه بركان على وشك الانفجار.. كيف يمكنك أن تكون هكذا؟ ... صرخت بصوت مختنق، وهي تحاول جاهدةً أن تفهم ما لا يمكن فهمه: أنت تتحدث وكأنه لا شيء يهم، أنت تحيرني، تضللني، وتتركني هنا وحيدة مع كل هذه الفوضى، كأنني لا أستحق حتى تفسيرًا واضحًا لهذا الهراء! أنت لا تفهم، ولا أعتقد أنك ستحاول حتى أن تفهم، لكنني لن أنسى هذا، لن أنسى كيف جعلتني أشعر بالـ... وسكتت.

جمَعَت نظراتها إليه بين الاحتقار والحزن، كأنها تراه لأول مرة، وتكتشف فيه وجهًا لم تكن تعرفه من قبل.. قاومت الدموع بكل قوتها، حاولت أن تظل صلبةً أمامه، لكنّ صوتها المرتعش والماء الذي يلمع في عينيها، والرجفة المتسلطة على أعصابها.. تفضح الحقيقة.. أخذ هو نفسًا عميقًا، وأدرك أن اللحظة قد حانت لكشف الحقيقة

Scanned with CamScanner

المؤلمة.. صوته كان مزيجًا من التوتر والخوف، قال وهو يعود إلى مكانه: أنتِ محقة.. هناك أشياء لا تعرفين عنها شيئًا، أشياء يجب أن تعرفيها الآن.. سكت لحظةً وكأنه يستجمع شجاعته، ثم قال بصوت خافت وواضح: «زينب ورامي.. أخذته سعلة استمرت لدقيقتين، وهي تنظر إليه بعجب، فما علاقة زينب ورامي بما يحصل بينهما؟ معرفتها بهما سطحية، ولم يخطر ببالها من قبل أنّه سيكون هناك ضرورة لحضور اسميهما في ليلة متوترة وغريبة كهذه، فكان ذلك مدعاةً لاستغرابها الشديد، بادرته وهو ما زال يسعل: ما علاقتهما بما نحن فيه، لقد صارا في ديار الحق، فما شأنهما بنا، وما شأننا نحن بهما الآن؟

نعم، نعم، وهو يهزّ رأسه.. لقد صارا في ديار الحق، رحمهما الله.. والشرطة حتى الآن تبحث عن الذي أوصلهما إلى ديار الحقّ وأنجاهما من ديار الباطل! ولا تزال تبحث، نعم.. تبحث الشرطة حتى الآن عن الوحش المجرم الذي أتاح لهما فرصة الخلاص من هذا العالم السافل! انظري الآن إلى وجهي جيّدًا.. هل ترينَ في هذه الملامح ذلك المجرم الذي تبحث عنه الشرطة؟ ها؟ دققي يا ريما، هل ترينه؟!

تجمدت ريما في مكانها.. وكانت في هذه اللحظة كمن يحاول التنفس تحت الماء.. تصاعدت دقات قلبها بسرعة، حتى شعرت بها تدقّ في أذنيها.. وانتابها شعور آخر بأن الأرض تهتز تحت قدميها، نظرت إليه بعينين متسعتين، وجسدٍ يرتجف بشدة، فتحت فمها محاولةً التحدث، لكن صوتها خانها، وضعت يدها على معدتها التي تشنجت بشكل مؤلم، ورجعت خطوة إلى الوراء بشكل غير إرادي، وكأنها تحاول الهروب من الحقيقة الرهيبة التي ألقيت أمامها.. لم تستطع التركيز، كانت ترى صورًا سريعة ومشوشة لرامي وزينب، ربما كانت محاولات لعقلها في فهم ما يحدث، ثمّ ما لبثت أن شعرت بجسدها وقد أصبح باردًا كالجليد، وبأطرافها وهي تفقد الإحساس تقريبًا، كانت قد وصلت إلى حافة الانهيار، ارتعشت ساقاها وأوشكت على السقوط، لكنها أمسكت بكرسي قريب لتحافظ على توازنها، ها هي الغرفة تضيق شيئًا فشيئًا، والأشياء من حولها تقترب لتبتلعها! استندت بظهرها إلى الجدار وانهارت متكئةً عليه.. وحين استقرت على الأرض قالت بأنفاس متقطعة: أنتَ تمزح، قل إنها مزحة! قل ذلك أرجوك، قل.. وغطّت وجهها بيديها وأخذت تبكي بصوتٍ مرتفع..

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم ا

ساد بينهما صمت تام للحظات، تخللته الكمنجا التي تعزف خلف أم كلثوم.. الهواء نفسه توقف عن الحركة في تلك الدقيقة.. وتنهد زياد بعمق، ثم راح يسرد لها كلّ شيء، وبالتفاصيل، كأنه يعيد مشاهدة كل ما جرى في ذهنه.. وكلما استمر في الحديث، شعرت هي بالخوف يزداد قوة، حدّثها بجميع ما حدث، دون أن يفوّت حدثًا، وأخبرها أنه مجرمٌ في النوم واليقظة! ولم يدع في نفسه شيئًا له أو عليه إلا قاله.. وهي منذ سقطت على الأرض لم تنبس ببنت شفة، ولم تتوقف عن البكاء.. يا له من إحساسٍ قاتل، مخيف، مزعزع للنفس البشريّة.. إنها ولأول مرّة تجد نفسها خائفة من الشخص الذي كانت تعتقد أنه مصدر أمانها! ... أمّا هو، فسكت بعد ما أفرغ كلّ ما في صدره، وكان حقيقيًا بكلّ ما تعنيه الكلمة، واستمرت ربما بالبكاء، إلى أن خَفَتَ صوت بكائها تدريجيًا وسكتت هي الأخرى.. مرّت دقائق مليئة بالفراغ إلا من الموسيقى وأنفاسهما، هكذا إلى أن قالت له بصوتٍ حزين ومتقطع: اخرج.. اخرج يا زياد، لا أريد أن أراك مرةً أخرى، ثم أعادت ذلك بحدة وصوت أعلى.. اخرج فورًا أو سأتصل بالشرطة!

اهدئي، اهدئي.. ومن قال لكِ أنكِ سوفَ ترينني مرّةً أخرى؟ قالها وهو ينهض من مكانه بنبرة ساخرة وتهكّميّة، قالها من دون أن ينظر إليها حتى، واتجه إلى المطبخ، شرب كأسًا من الماء، ووقف على بابه المطل على الغرفة، وأكمل: بالطبع لن ترينني مرةً أخرى، فلو كان هناك احتمال كهذا ما غامرتُ وأخبرتك كلّ شيء.. في هذه اللحظة، خطر على قلبها أنه يُلمّح بالانتحار، من خلال هذا الكلام الذي يقوله.. ولكن بكل أسف كان الأمر مختلفًا جدًا، كلامه هذا كان تمهيدًا لنحرها هي! فعندما دخل المطبخ، خرج وبيده سكين لم تنتبه لها ربما، إذ أنّ رأسها كان لا يزال مغمورًا في كفيها لفداحة ما مرّت به، كأنها لا تريد أن ترى شيئًا من حولها، لن تعود حياتها أبدًا كما كانت من قبل.. هذه هي الفكرة التي عبرت رأسها.

اقترب منها ومدّ يده كمن يقدم لها مساعدته لتنهض، ومسّ بأصابعه كتفها لتتنبه، فرفعت رأسها وانفجرت في وجهه بالشتائم وهي تصرخ ابتعد عنّي يا قذر، يا مجرم! لم يمنحها وقتًا.. انقضّ سريعًا عليها بالسكين، وبطعنات متتالية عند الكتف والرقبة..

Scanned with CamScanner

لم يدع عرقًا من العروق إلا وقطعه! وما هي إلا لحظات حتى قضى عليها تمامًا، وصارت جثةً هامدة.

جلس بمحاذاتها متكئًا على ذات الجدار، مدّ قدميه وهوى بجثتها عليهما، ووضع كفّه على شعرها، وأشعل سيجارته، ثم أغمض عينيه.. كانت أوّل فكرة خطرت على قلبه، هو أنّ الطريق من بيته إلى بيت ريما توجد فيه إشارة مرور معطلة، وقد مضى على عطلها ما يزيد على شهر ولم يقم أحد بإصلاحها، حاول طرد هذه الفكرة العجيبة ولم يستطع، بل إنه بقي لدقائق يفكر بحيثيات هذا الأمر التافه! وهذا الأمر شائع معروف في النفس البشرية، وهو حضور الفكرة التافهة في اللحظة الحرجة! ولم يعلم أحد حتى اليوم سرّ هذا التناقض العجيب في أعماق النفس البشرية، فحين يطغى الألم على كل ذرة في كيان الإنسان تتسلل من طريقٍ ما إلى نفسه أفكار تافهة للغاية، تشعر وكأنها تسخر من عظمة الحدث وجلال اللحظة! تجد نفسك في منتصف موقف عصيب مُحمّلًا بكل أعباء الكون، وإذا بعقلك يتساءل عن مكان جوربك الضائع منذ أسبوعين، وربما كنتَ في جنازة أحد الأحبّاء، والدموع الحارّة تسيل من أعين الجميع، بينما تتسلل إلى ذهنك أنت فكرة عن طريقة طهي جديدة للمعكرونة شاهدتها في برنامج طبخ! ووسط أصوات الجموع الباكية من المُعزّين، يتساءل عقلك بوقاحة: هل يمكن أن تكون قطع الدجاج أفضل من اللحم المفروم في هذه الوصفة؟ وفي غرفة الطوارئ، بينما يرقد جسدك متألمًا على السرير، وتدور حولك آلات القياس وأصوات الأطباء، قد تجد نفسك سارحًا في طائر الببغاء الذي رأيته في حديقة الحيوانات قبل سنوات، وتتساءل: هل يمكن أن يتعلم ذلك الببغاء قول اسمي؟ هكذا ورغم أن الواقع يضج باللحظات الحاسمة والقرارات المصيرية، يصر عقلك أحيانًا على الترحال في متاهات الأفكار السخيفة، مستمتعًا بعرض قبيح لمسرحية عبثية لا نهاية لها! صحيح أنها مؤذية وغريبة، لكنها تأتي على هيئة استراحة قصيرة من ثقل اللحظة، تمنحك لقطات سريالية في واقع لا يُحتمل، وهي بمعنى أدق مرحلة كابوسيّة للعقل حين يعجز عن مواجهة الحقيقة، وتقبّل الواقع.

ما هي إلا دقائق أنهى بها زياد سيجارته ونظر قريبًا منه فرأى أنّ الدم ما يزال يسيل على الأرضية الخشبية، في هذه الأثناء كانت أم كلثوم تقول بكلّ يأس «فات

Scanned with CamScanner

المعاد».. أطفأ سيجارته بالدم! ثم غاب في نومٍ عميق..

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

20

عمل عثمان بجهدٍ كبير، ولكنه لم يستطع لحظة واحدة أن يُفلت من طيف سارة المسيطر على داخله حدّ الشتات، وكما هو معلوم عن حالة عمله، فإنّ الدقة والتركيز عموده الفقري، ولا يصح أبدًا لمثله الاستهتار ولو على سبيل الشرود وراء فكرة ما، فكيف بسارة التي ما برحت تمرّ هنا وهناك في زوايا الروح وشغاف القلب، بضحكتها مرّة، وبتعليق غريب صرحت به مرة أخرى، وباستحالتها التي تزيده رغبةً بها، ما كان عثمان بانتظار هذا الفخ أبدًا.. ومع ذلك فهو مستمتعٌ به! كلّ سقوطٍ مذموم، إلا ما يكونُ في الحبّ، هكذا يفكرّ الآن، وهكذا كلّ الذين تستدرجهم البدايات الساحرة، الموحية بأنّها الأبد، وهي لا تساوي من حجم العلاقة إلا مقدار ما تساويه القطرة من ماء البحر، إنَّ الغرق الذي تخشى منه سارة هو مراد عثمان! لكَ أن تُبحر على غير هدى في عواطفك، وإن كان الغرق سبيلك الوحيد إلى حبيبك فاغرق! يا له من عاشق يتلذذ بكلّ ما يكون من حبيبته ولو كان موتًا.. هذا وهما لم تبدأ رحلتهما بعد، فماذا يكون لاحقًا؟

على الصعيد العمليّ، أصبح عثمان في مأزق حقيقي.. كان على وشك استدعاء زياد إلى النيابة العامة للتحقيق، لولا المفاجأة التي حصلت بلقائهما وجعلته في حيرة من أمره، أمامه الآن خياران، أن يكشف عن حقيقته ويستدعي زياد بصورة رسمية، فيؤدي ذلك لمعرفة سارة بحقيقة عمله، وهو لا يريد لذلك أن يحصل على الأقل في الوقت الحالي، والخيار الثاني هو أن يتقرب من زياد على سبيل الصداقة فيظفر بغايته منه، فماذا يفعل؟ قرر بعد تفكير طويل، أن يستمر في صمته، وأن يترك الأمور تسير في مجراها، قراره هذا كان نابعًا من إحساسه العميق بأنّ خطوة المرحوم المحقق دينيز أوموت في عدم استدعائه لزياد لم تكن عبثًا.. سيُنحّي إذن قضيّة زينب ويتريث بالأمر.. وسوف يركز على قضيّة مقتل أوموت، إنّه حتى اللحظة لا يملك خيطًا واحدًا يدّل على القاتل، والأمور تزداد تعقيدًا، ليست هذه المرة الأولى التي تكون بها القضية على هذا القدر من الصعوبة قال في نفسه وهو يراجع تفاصيل الجريمة، حين شارف وقت الدوام على الانتهاء حمل حقيبته وخرج، تنتظره زوجته

Scanned with CamScanner

ليخرجا معاً إلى مطعم من المطاعم، لا يعلم لماذا أخبرها أنه يريد في هذا المساء أن يكونا معًا وحدهما، ربما كان الأمر في داخله نوعًا من أنواع التكفير عن خطيئة قلبه!

حينَ خرجا، حاول عثمان أن يخفي اضطرابه، بأن يُظهر اهتمامًا كاذبًا، بينما كانت زوجته تتحدث بمرح عن أحداث يومها، وعن بعض الأصدقاء والعائلة، كانت أحاديثها تمر عبره دون أن تترك أثرًا، وكلما حاول أن يجمع شتات أفكاره، كانت صورة سارة تتسرب إلى عقله كما يتسرّب الماء بين الأصابع، ينظر إليها بين الحين والآخر، يهز رأسه وكأنه مُنصت بوعي، ولكن بعينين تائهتين، مسافرتين إلى عالم آخر.. شعر للحظة بالذنب، وبشعور سيء لم يعرفه من قبل، وبغصّة كبيرة تقع بين واجبه نحوها وحبه الجديد لسارة، الذي سيطر عليه في غفلة منه.. مرّ الوقت، وفرغا من الطعام، بدأت الأمسية تقترب من نهايتها، وكلما انخفضت وتيرة الأحاديث، ازدادت حدة الصمت بينهما.. حينها، بدأت زوجة عثمان تجمع أغراضها ببطء، وتنظر إليه بنظرات متفحصة، تحاول أن تلتقط خيوط المشاعر المبعثرة في ملامحه.. شعرَت أنه ليس على ما يُرام هذه الليلة، ووخزتها الحاسّة السادسة للنساء في صدرها! فاضطربت بعض الشيء.. وقف هو وساعدها في ارتداء معطفها، وحينما لامست يداه كتفيها، أحسّت بالبرد في يديه، وأحسّت كأن هذه البرودة تعكس المسافة التي تجمدت بين قلبيهما هذه الليلة.. ابتسمت ابتسامة مصطنعة وباردة بدون أن تقول شيئًا، بينما كان عثمان يحاول جاهدًا أن يبدو طبيعيًا، مع فشله في إخفاء تشتته.. غادرا المطعم، وحين وصلا نزلت زوجته قبله، وأخبرها أنه سيذهب إلى محلّ غيار الزيت الخاص بالسيارات، ولن يتأخر.

في هذه الأثناء كانت سارة في سريرها، مغمورةً بلحافها الأبيض الناعم، وبين يديها كوب من الحليب الساخن، والشاشة من أمامها على إحدى القنوات التي تبث أغاني الزمن الجميل، كانت الأغنية في تلك اللحظة لفريد الأطرش، وكانت هي تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي، وتُغالب نفسها في البحث عن صفحة عثمان، فهي لم تطلب منه أيًا من حساباته الالكترونية.. راودتها فكرة البحث عن حسابه عبر الفيس بوك، أو تطبيق الانستغرام، لكنها لم تستسلم لهذه الفكرة، وبينما هي على هذا، وصلها اتصال منه.. وتحدّثا ما يزيد على الساعة، ظهر فيها عثمان عاشقًا متيّمًا،

Scanned with CamScanner
CamScanner تم مسحها ضوئيا بـ

ثقة ما ينزع منه مهارة ضبط انفعالاته الشعورية في حضرتها! أمّا سارة فقد كانت على قدر أكبر من التماسك، ومرّت الساعة كأنها دقيقة، بدأت محاولات سارة بعدها للنوم، ورجع هو سعيدًا إلى بيته.. حاولت وهي تستدعي النوم أن تهرب من أفكارها، ولكن عبثًا.. تذكرت ابتسامته في آخر لقاء، ونظراته المليئة بالوعود الصامتة، شعرت بحرارة تلك اللحظات تتسلل إلى أعماقها، لكن سرعان ما غلفتها سحابة من الحزن والندم، إذ كانت تدرك أن قلبها يتوه في بحر من الأحلام المستحيلة، وتتقاذفه أمواج اليأس والأمل في آن واحد.

لم يكن الحال أفضل بالنسبة إلى عثمان وهو يتقلّب في فراشه إلى جانب زوجته، كان مدركًا أنه تجاوز حدود المعقول والمشروع، وخان ثقة عائلته وأخلاقياته، لكنه لم يستطع مقاومة النداء العميق الذي ينبعث من قلبه، استلقى على ظهره وحدق في السقف، بدا كأنه يبحث عن إجابات من خلال شقوقه، وتداخلت في ذهنه صورة زوجته وأطفاله مع صورة سارة، فتولد بداخله شعور عميق بالتمزق.. كيف له أن يحب امرأتين في آن واحد؟

أغمض عينيه وحاول طرد الأفكار المربكة، لكن وجه سارة ظل يطارده.. تذكر اللحظات التي قضاها معها، حديثهما العفوي، والابتسامة التي كانت تضيء وجهها عندما تنظر إليه.. شعر بوخز في صدره، وأنه يعيش لأول مرّة في عالمين متوازيين، ظلّ يتقلّب إلى قبيل الفجر.. حتى غلبه النوم... في الصباح خرج بحيويّته الكاملة، على الرغم من قلّة نومه، كذلك الحبّ في بداياته.. مصدر لكلّ حيويّة ونشاط، وإذا كان ابن الجوزيّ يعتبر المال من العلاج ويُخبرنا أنه معدودٌ كذلك عند الأطبّاء، فليس الحبّ بأقل من ذلك، إنّه علاجٌ وإن لم يكن معدودًا كذلك عند الأطبّاء! فلا شيء في الأرض يمكنه بعث طاقات البشر الكامنة سوى الحبّ، ولا شيء يستطيع إعادة تشكيل رؤية الإنسان للعالم من حوله سوى الحب.. إنّه منبع الأوكسيتوسين والدوبامين بلا منازع!

ماذا ينتظره هذا الصباح؟ كلّ خير.. سوف يحمل له هذا الصّباح مفاجأةً عجيبة.. وصل مكتبه ليجد على غير العادة رجلًا ينتظره، لم يسبق له أن استقبل أحدًا في

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

مكتبه هذا، إلا زملاء العمل.. فمن الزائر؟ وكيف دخل المبنى، ولماذا هو هنا؟ أسئلة دارت في رأسه بشكل سريع في اللحظة التي رآه بها، صبّح عليه بتوجّس، فقام الآخر ومدّ يده مصافحًا، ثمّ جلسا ودار بينهما حوار قصير، ويظهر لمن ينظر إليهما من بعيد أنه يدور بينهما حديث غاية في الأهميّة، خرج الرجل بعدها، وبقي عثمان في حالة من التأمل والتفكير وتسجيل الملاحظات ما يزيد على نصف ساعة، ثم خرج هو الآخر، وركب سيارته إلى بيت سارة، اتفقا في اتصالهما الليلة الماضية على الإفطار معًا، وذلك استغلالًا لإجازة مدتها ثلاثة أيام أخذتها سارة من عملها، وفي طريقهما إلى أحد المطاعم فتح موضوع اللقاء الذي جمعهما بريما وزياد، وسألها دون أن يُشعرها بشيء.. ماذا تعرفين عن زياد؟ هل هما معًا منذ زمنٍ بعيد؟ أجابته سارة باقتضاب أنهما معًا منذ عدة سنوات، وأنها غير راضية عن علاقتهما، وذلك أنها لا ترتاح كثيرًا لزياد، وقد نصحت ريما بالابتعاد عنه، ليس لديها شيء ملموس أن الرجل ليس جيدًا، ولكنه إحساس في أعماقها لا أكثر.. وحين تناولا معًا وجبة الإفطار، لم يشعر عثمان بنفسه، وبكثرة أسئلته التي تتالت عن زياد وريما، بحيث استفزّ ذلك سارة، وقالت له: هل خرجنا معًا لنتحدث عن الآخرين؟ كان موقفًا محرجًا له، ولكنه تنصّل منه وأخبرها أن دافعه للسؤال هو اشتراكه معها في الإحساس اتجاه زياد، وبدبلوماسيّة يفتقدها الكثير من المحققين، قال لها: إننا نشبه بعضنا حتى في أحاسيسنا اتجاه الآخرين! التقاطة جميلة من صيّادٍ ماهر، جعلها تبتسم.. يحرص المحبّون دائمًا على اكتشاف القواسم المشتركة بينهم، وخاصّة في بداية العلاقة، ويعتبرون ذلك دليلًا على التوافق المُرجّى مستقبلًا.. ويغفل الكثير منهم أنّ سر النجاح في العلاقات العاطفية يكمن في تحقيق التوازن بين التشابه والاختلاف.

***

مرّ صباحهما الجميل سريعًا.. فكيف كان هذا الصّباح بالنسبة لزياد؟ استيقظ من نومه على صوت العصافير التي تغرد خارج نافذته.. فتح عينيه ببطء، مستمتعًا بلحظات الهدوء الأولى من الصباح، وتقلّب ذات اليمين وذات الشمال عدة مرّات، كأنه يستدعي النوم مرةً أخرى، هكذا إلى أن تحامل على نفسه ونهض من فراشه بخفة، ثم خطا نحو الحمام، وغسل وجهه بماء بارد، توجه بعد ذلك إلى خزانة ملابسه،

Scanned with CamScanner

وفتح أبوابها بروية، واختار قميصًا أبيضًا ناصعًا، صنع من قماش خشن بعض الشيء، وارتداه بعناية، ثم أخذ بنطالًا رماديًا من قماشٍ ناعم وارتداه، ثم أخذ يتأكد من استقامة الثنيات، التقط بعدها حزامًا جلديًا أسودًا، ولفه حول خصره بإحكام، ثم انتقى زوجًا من الجوارب القطنية النظيفة وارتداهما.. بحث عن حذائه الأسود اللامع، وتفحصه سريعًا قبل أن يرتديه، جلس على حافة السرير، وأدخل قدميه في الحذاء، ثم شد الأربطة بحركات متقنة، نهض واقفًا، وتأمل نفسه في المرآة للحظة متأكدًا من أن كل شيء في مكانه، وقبل أن يغادر المنزل، أمسك بمعطفه الأسود الأنيق وارتداه بخفّة،وأخذ حقيبته الجلدية من على الطاولة، واطمأن من أنه يحمل مفاتيحه وهاتفه ومحفظته، وقف للحظة أمام باب المنزل، تنفس بعمق، فتح الباب، وخرج..

على غير العادة.. في داخله هذا الصباح شيء من سعادة طالما افتقدها، ومع جهله بمصدر هذه السعادة، كان سعيدًا بها! سوف يذهب إلى مطعم شعبي في منطقة السلطان أحمد، وِسوف يُفطر مما لذّ وطاب، بعد هجره لوجبة الإفطار منذ ما يزيد على عامين، حتّى شهيّته في هذا الصباح لم تكن مغلقةً كما اعتاد.. وعلى عادة الإنسان.. يفزع من لحظات الطمأنينة والسعادة إذا جاءته فجأةً بغير سبب، أحسّ زياد بشيء من الخوف غير المفهوم، كان ناتجًا عن هذا السلام الداخلي الذي مرّ به.. حاول التغلب على هذا الخوف ومضى في طريقه، وبالفعل أفطر بنَهَمٍ كبير، وتنوّعت سفرته بأشهى ما يُكون من أنواع الأطعمة الصباحية.. وبعدما فرغَ من الإفطار توّجه إلى محلّ التحف.. العجيب في هذا الصباح هو أنّه لم تراوده فكرة واحدة سيئة، وكأن هاتين الساعتين اللتين قضاهما كانتا من نعيم الجنّة، لا همّ ولا غمّ.. كلّ شيء كان جميلًا، هكذا إلى اللحظة التي أوقف فيها سيارته أمام محلّه، وهمّ بالنزول.. هنا وهو يطفئ محرك السيّارة، لمع في رأسه مشهد مرعب، بدا مألوفًا له: رأى نفسه يُطفئ سيجارةً بالدم، في بيتٍ يعرفه! هزّ رأسه هزًّا سريعًا في محاولة لطرد هذه الصورة.. وذهبت عنه الصورة فعلًا، لكنه بقي في مقعده.. ما هذا؟ قال في نفسه.. أغمض عينيه قليلًا، ثمّ فتح باب السيّارة ونزل.. ما أن أغلق الباب إلا ولمع في رأسه من جديد مشهد آخر، حينَ كانت ريما تخرج وبيديها كأسين من المانجو، نفض رأسه وتساءل: هل كنت عند ريما البارحة؟ أخذ نفسًا عميقًا ثم دخل المكتب، نادى على

Scanned with CamScanner

الخادم ليحضر له كأسًا من الشاي، وأخرج من الدرج بعض الأوراق الخاصة برحلة التهريب القادمة عبر غابات بلغاريا، فيها معلومات العوائل وخطة العبور، وجميع التفاصيل المتعلقة بالرحلة.. وبينما يقلّب الأوراق إذا برأسه يلمع فيه مشهدٌ آخر: رأى نفسه يقف إلى محاذاة ريما أمام النافذة! سَرت في جسده قشعريرة، وأغمض عينيه في محاولة للتأكد هل زار ريما البارحة؟ إنها وبعدما حصل الموقف بينهما إثر اللقاء الذي جمعهما بعثمان وسارة، ذهبت مغضبةً، وكلّ ما حصل بعد ذلك أنها اتصلت به وانهمرت عليه باللعنات والدعوات والشتائم، وظلّ صامتًا حتى أغلقت المكالمة، وغاب هو في نومٍ عميق.. فمن أين تأتي هذه المشاهد لرأسه؟ وهو يحاول استجماع رأسه عرض له مشهد آخر، وهو يخرج من مطبخ ريما وبيده سكين! هبّ واقفًا أمام مكتبه بطريقة سريعة ومضطربة، وافق ذلك دخول الخادم وبيديه الشاي، فحاول زياد الظهور بمظهر من يبحث عن ورقة من الأوراق، ثمّ عاد وخرّ على كرسيّه دفعةً واحدة!

ما الذي يحصل؟ متى رأيتُ ريما، هل هذا حلم لعين آخر؟ لم يعد يثق في نفسه، فهو عالق بين اليقظة والنوم، فتح هاتفه ليرى هل تحدثا معًا بعد تلك المكالمة؟ فلم يجد شيئًا يدلّ على ذلك، فدخل إلى تطبيق الواتساب، فلم يجد منها جديدًا، وبينما هو ينظر، اخترق رأسَه مشهد آخر، حين قال لها: إنني لم آتِ هذا المساء لأكون في عينيكِ شخصًا عظيمًا! وعندما عبرت هذه الكلمات أذنيه، فتحت الطريق أمام رؤياه لتتابع من جديدٍ أمام عينيه.. بدأ جبينه يتصبب عرقًا، وأخذ قلبه يخفق بشدة، أنفاسه تتسارع مع كل مشهد من مشاهد رؤياه، تجتاحه رغبة في الصراخ، لكن صوته يختنق في حنجرته، قام بكلّ ما للجنون من معنى وهوى بيديه على كلّ ما حوله من التحف الثمينة النادرة، والرخيصة المزيّفة، وراح يكسر كل ما تصل يده إليه.. واستمر كذلك حتى وقع على الأرض وانفجر باكيًا بكاءً هستيريًا، حتى غاب عن الوعي.. بقي كذلك مدّة، ثمّ لما عاد إليه وعيه، عاد ببطء، كانت الدنيا من حوله مشوشة.. تشبه الرماد المتطاير إثرَ اندلاع حريقٍ هائل، أغمض عينيه بقوة، في محاولة منه لتصفية الصور الملتبسة التي تعصف بذهنه، ولكنه لم يستطع إزالة الضبابية التي تحجب رؤيته..

Scanned with CamScanner
CamScanner تم مسحها ضوئيا بـ

رفع يده إلى رأسه، ولمح أطراف المحل وحجم الدمار الهائل الذي أحدثه والقطع الأثريّة المكسرّة والملقاة هنا وهناك.. نظر في محاولة أخرى لتأكيد وجوده في الزمان والمكان، وسعيًا في التماس بعضًا من الهدوء في ضجيج فوضاه الداخلية.. حاولت ذاكرته تجميع اللحظات الأخيرة قبل فقدان الوعي، ولكن أكثر الصور كانت مشوهة، دقائق قليلة وتبلورت بعض الصور في عقله، انتابته موجة جديدة من القلق.. هل ما حدث كان حقيقة؟ أو أنني الآن في حلم أيضًا؟ ... مدّ يده اليمنى إلى الأرض مستندًا عليها يحاول النهوض بينما الدوار يملأ رأسه، وتبدو استعادة التوازن وثبات الحواس أمورًا لا تزال صعبةً عليه.. يبتسم بخجل لذاته! فهو يدرك صعوبة الوضع، ولكنه يصمم على التغلب عليه، بدأ في تحريك أصابع قدميه ببطء، وهو يراقب حركتها بتركيز شديد، كأنه يتعلم من جديد كيفية المشي! بصعوبة بالغة بدأ في الوقوف، تأرجح قليلًا قبل أن يستقر بتوازن هش على قدميه.. رفع رأسه ببطء، مجاهدًا دوار رأسه الذي يهدده بالسقوط مجددًا، يستمر في الوقوف، استند إلى مكتبه، ومشى ببطء - أيضًا - إلى كرسيه، ثمّ خرّ عليه جالسًا.

أشار بيده للخادم المذهول مما رأى فبقي متسمّرًا في مكانه، أن اخرج من هنا.. فخرجَ فورًا، كان هاتف زياد أمامه على المكتب، تُرى ما الذي سيكون لو اتصل بريما الآن؟ هل ستكون ريما بخير؟ تساءل بخوف شديد، إنه محاصر بين الرغبة الملحة في معرفة حالتها وبين خوفه العميق من مواجهة الحقيقة المحتملة.. ينظر إلى الهاتف بتردد وريبة، كأنه يراقب عدوه اللدود، يعرف أن القرار الذي سيتخذه الآن سيكون ذا تأثير كبير على مسار الأحداث، لكنه لا يستطيع التحرك، فالخوف الذي يسيطر على قلبه يجبره على الثبات في مكانه.. انتفض في مكانه، وانهار في بكاء آخر، ما هذه اللعنة التي حلّت عليّ، ما هذه اللعنة، ما هذه اللعنة، راح يردد ذلك لعدة مرات متتالية، ويضرب بيديه المكتب.

***

قبل مدّة ليست ببعيدة سأل نفسه: ما هي احتماليّة أن أكون القاتل الحقيقي؟ كان ذلك بعد ما أكدت له الدماء على السكين يقينًا أنه قتل رامي بيديه، أصيب بعدها

Scanned with CamScanner

بنوبات هلع متتالية خلال أيامٍ قليلة، وراح هذا السؤال عن أنه قاتل يراوده بصيغ مختلفة ليدمّر كلّ ما عداه من احتمالات أخرى.. لم يكن بينه وبين الاكتئاب الحاد إلا أن يستسلم، وما جعله يقاوم هو أنّه بالرغم من وجود تطابق حاد للرؤيا مع الواقع، بل وأدلّة واقعية أيضًا، لا يزال يؤمن أنه لم يفعل ذلك إلا في المنام، وباحتمالات كثيرة وغير مقنعة لا تزال تتجول في رأسه، إذن فلديه الآن موتان، فلأيّهما يكون الاستسلام؟ بالطبع للرؤى، فلن يقبل أن يكون مجرمًا أمام نفسه البتّة، وليته مجرم عادي، إنه قتل زينب صاحبة أول عاطفة صادقة طرقت باب قلبه، وقتل رامي، الشاب الطيّب الساذج، يستحيل أن يقبل هذا بشكل من الأشكال، وقرر وقتها أنه سيستمر من طبيب إلى آخر، ومن شيخٍ يقرأ عليه إلى آخر أيضًا، وسيخوض كلّ الطرقات التي تسحق احتمال واقعيّة إجرامه في نفسه، وسيدافع عن إنسانيته بالمزيد والمزيد من الأعمال الخيرية! لكنّه وهو منهار تمامًا على مكتبه يقول لنفسه: أنا مجرم ولا يوجد احتمال آخر!

مرّ القليل من الوقت استعاد به شيئًا من هدوئه، وبعد تردد وخوف كبيرين، بدأ يُحدث نفسه بأن يذهب إلى بيت ريما ليتأكد بنفسه، وراح يستعرض في ذهنه السيناريوهات المحتملة التي قد يواجهها، محاولًا تحضير نفسه لكل التوقعات، ورغم التردد الذي كان يسيطر على تفكيره، شعر بأنه لا يستطيع البقاء في حيرة من أمره، وعليه أن يذهب لا محالة، وقال لنفسه: هذا شيء لا يمكن اجتيازه بسهولة.. أخيرًا قرر ألا يتجاهل هذه الرؤيا، وأن يتخذ إجراءً فوريًا، لم يكن قادرًا على تحمل فكرة أنه أصبح خطرًا على جميع من هم حوله!

كانت طريقه إلى بيت ريما مثقلةً بالقلق، توقف أكثر من مرة ليتأكد من قراره، وكلما اقترب من البيت كانت دقات قلبه تتسارع، وكأنها تحثه على التراجع، ولكنه مضى قُدمًا.. قبل أن يصل بقليل، خطرت له فكرة: لماذا أتأكد؟ لمَ لا أذهب إلى الشرطة فورًا وأسلّم نفسي، وهل الأمر يحتاج لتأكيد؟ لقد أصبح واضحًا لي وضوح الشمس أنني مجرم، نعم.. يجب أن أقبل هذا، أنا سفّاح في النوم واليقظة معًا! فلماذا أذهب الآن وأرى ريما غارقة بدمائها، هل أنا مازوخيّ لأعذب نفسي بهذا المشهد الشنيع؟! ... وفعلًا غيّر مسار سيارته باحثًا عن أقرب مخفر للشرطة.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوض ةحوسمم

في هذه اللحظة وصله اتصال من رقم غريب، أراد أن يرفض المكالمة، ففتح الاتصال بالخطأ وتورّط!

- مرحبًا أخ زياد

- أهلًا، مَن؟

- أنا رضا أوموت، أخذت رقمك من صديق مشترك، أرغب بلقائك، وذلك بشأن عائلة تريد العبور إلى الضفة الأخرى.

فهم زياد المقصود بالضفة الأخرى فورًا، أحدهم يريد تهريب عائلة من تركيا إلى اليونان أو إلى صربيا، فطلب من رضا أن يتصل به لاحقًا ليتفقا على وقت مناسب من أجل اللقاء، ولكنّ رضا أظهر إصرارًا شديدًا على اللقاء السريع، ورمى بعض التلميحات، كانت بينها كلمة فهمها زياد فورًا، كلمة كان يستخدمها ككلمة سر قبل سنوات، حين انتظم مدةً قصيرة في إحدى المافيات، ثم انفصل عنها وديًا، مع استمرار أخذه الحماية منهم مقابل المال، عندما قال رضا الكلمة، فهم زياد أنّ الأمر غاية في الأهميّة، ولكنه نظر للحظات في حالته، إنه في طريقه إلى الشرطة ليعترف بثلاث جرائم قتل، فهل ثمّة شيء له أهميّة الآن؟ همّ بالرفض، ولكنّ شيئًا في أعماقه دفعه لا إراديًا للقبول، فاتفقا على اللقاء في أحد الأماكن بعد نصف ساعة، وهي المدة التي يستغرقها الطريق.

زقاق ضيق مرصوف بالحجارة.. كانت واجهته الزجاجية الكبيرة تطل على الشارع، فتسمح للضوء الطبيعيّ بالتدفق إلى الداخل بحريّة، المكان عاديّ.. فالجدران مزينة بأعمال فنية معاصرة لفنانين محليين، والأثاث من الكراسي المعدنيّة والطاولات الخشبية المُرخّمة بحيث يحسبها الناظر من بعيد رخامًا، لونها داكن، والأضواء المعلقة من السقف تهبها دفئًا وهدوءًا، مما يجعل الزبائن يشعرون أنّهم في مكان مميز، والجو العام في المقهى كان مزدحمًا بعض الشيء، لكن بطريقة مريحة، حيث تتعالى أصوات الحديث والضحكات بهدوء في الخلفية، ممزوجة بألحان موسيقى تركية معاصرة.. حينَ جلسا، تحدّث رضا بشكلٍ فجّ، وبدون مقدّمات أخذ يلوم زياد

Scanned with CamScanner
ممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على غبائه وقلّة عقله، وزياد ينظر بدهشة، ورضا يوبّخه بغير اكتراث لردة فعله، بينما ينتظر هو بهدوء مُصطنع ليعلم ما الذي يحصل، إنّه يدرك أنّ رضا أحد أفراد المافيا وإن كان لا يعرفه ولم يلتق به من قبل، ولا يُمكنه بالطبع أن يُصعّد الأمر مع أحد من مثل هؤلاء، سأله برويّة.. ماذا هناك؟ فانطلق رضا يشرح لزياد بشيء من العصبيّة، أنهم لا يزالون يقفون خلف ظهره ويحمونه بحسب الاتفاق بينهم، ولاستمراره بالدفع دون انقطاع، ولكن الأمر تطور، فهم مسؤولون عن حمايته فيما يتعلق برحلات التهريب، أمّا حمايته الشخصية فليس ثمّ اتفاق بينهم، ومع هذا فقد قاموا بحمايته دون أن يعلم، تكرّمًا منهم وحفظًا للود، ويتوجّب عليه الآن أن يبدأ الدفع لحمايته الشخصيّة، أثار هذا الكلام زياد، وظهرت على وجهه علامات المفاجأة، لكنّه ظلّ منصتًا بهدوء وتركيز، حتى شرح له رضا، ظهوره في كاميرات المراقبة الخاصّة بجريمة قتل زينب، وحضور اسمه في ملف التحقيق الخاص بالمحقق دينيز أوموت، ثمّ انتقال الملف بعد موت المحقق، إلى محقق آخر اسمه عثمان أوغلو، ثمّ سأله هل تعرف من عثمانَ أوغلو؟ فأجاب بهدوء وشرود: قبل أن تسألني عن عثمان، أنتم كيف عرفتم بقتلي لزينب؟ ابتسم رضا ابتسامةً فيها من الخبث ما في الشمس من ضوء! وأخبره أنهم يعلمون بقتله لرامي أيضًا! فضحك زياد لا إراديًا، كأنّ عقله توقف عن العمل للحظة، وسأل رضا مبتسمًا بيأس: هل قتلتُ غيرهما؟ دعك من هذا، قالها رضا بغضب، وأعاد عليه: هل تعرف من هو عثمان أوغلو؟ هزّ زياد رأسه بالنفي، فأقبل عليه رضا، واقترب من أذنه، وأخبره من هو عثمان أوغلو، انتفض زياد في مكانه.. يا للغباء! قالها بصوتٍ مسموع، لقد سهرت معه على طاولةٍ واحدة وأنا لا أعلم! ... التفت إلى رضا وسأله عن سبب تغاضي عثمان عنه وهو يعرفه، ورآه في الكاميرات؟ وعن سبب تغاضي المحقق دينيز أوموت عنه من قبل؟ فنهره رضا، وطالبه بعدم السؤال عن التفاصيل، وطمأنه بأنّه صباحًا زار المحقق عثمان أوغلو في مكتبه في النيابة العامّة، وقام بلملمة الأمر، وأنه يتوجب على زياد الآن أن يتصرّف بهدوء وكأنه لا يعلم شيئًا عن عثمان، بالإضافة إلى ذلك، طلب منه أن يتجهز بعد أيام للقاء زعيم المافيا، فهزّ رأسه بالقبول إذ لا يملك قرارًا بالرفض في مثل هذه الحالة، تبسم رضا بتهكّم، وغادر.. انتهت الشكوك بالنسبة لزياد، هو الآن مجرمٌ أمام نفسه وأمام التاريخ!

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةيئوضلا ةحسملا

ما تزال فكرة أن يسلم نفسه للشرطة قائمة في نفسه، ولكنه الآن يقف على خطّ النار، فلو سلّم نفسه، لن ينجوَ في سجنه من المافيا، فهو لا يملك خيار أن يتصرف دون العودة لهم، خصوصًا بعدما طلب رضا منه أن يستعد للقاء الزعيم، هذا ما لم يكن بالحسبان... بقي في مكانه يفكر قريبًا من نصف ساعة، وعثمان؟ قال في نفسه.. ما أخبثه! يُخفي عن سارة مهنته، ويدّعي أنه محام، وليته محقق شريف، إنه معنا في ذات الدائرة! ... نهض من مكانه مسرعًا مُشتتًا، وركب سيارته قاصدًا بيت ريما، سوف يذهب ليرى بعينيه ما الحال هناك.. بدأت الشمس في هذا الوقت تتوارى خلف الأفق، ملقيةً بظلالها الطويلة على شوارع إسطنبول المزدحمة، كانت الأزقة تعج بالحياة، الأطفال يلعبون، والرجال يشربون الشاي على الأرصفة، والنساء يتبادلن الأحاديث بين المحلات الصغيرة.. يقود زياد سيارته مستغرقًا في حالة من الهدوء المتبلد واللا مبالاة، تتنقل عيناه ببطء بين المشاهد دون أن تسجل تفاصيلها في ذاكرته، وكأنما هناك طبقة شفافة تحجب عن عينيه تفاصيل العالم، لم تكن أصوات الباعة المتجولينَ، ولا رائحة التوابل والقهوة، ولا حتى بريق الشمس الغاربة على مياه البوسفور قادرة على اختراق غلاف اللا مبالاة الذي أحاط به، تحركت السيارة بانسيابية بين الأزقة الضيقة، لكن قلبه بقي ساكنًا، ليس ثمّة شيء باستطاعته إيقاظ شغفه أو إثارة اهتمامه، وتلاشت جميع التفاصيل في خلفية ضبابية، بينما مضت السيارة في طريقها، كأنها تسير تلقائيًا دون توجيه حقيقي.

الحياة زهرة شوكية تلمسها عامدًا لتدميك! مرّت هذه العبارة في رأسه، لا يعرف أينَ قرأها، ولكنّها حضرت في اللحظة التي قرر بها الذهاب إلى بيت ريما، لماذا يذهب؟ أليس يعلم موقنًا أنّه سيراها غارقةً بدمائها؟ فلماذا يُرغم نفسه على الذهاب والنظر إليها وهي على هذا الحال؟ لماذا يخاطر والأمر مضى عليه وقت منذ الليلة الماضية، وقد تكون الشرطة هناك! لا أجوبة منطقيّة، ودافع الفضول الذي يحثّه على الذهاب قد يودي به، يعرف هذا جيّدًا ولكنه استمر.. وحين صار في شارع بيتها، نظر من الجانب الآخر فلم يرَ أيّ شيء يدلّ على اضطراب في الشارع، ففي مثل هذه الحالات تحدث جلبة كبيرة، ولا يخلو الأمر من سيارات شرطة وإسعاف، ومحققين وجوّ عام متوتر، لكنه حين مرّ لم يكن ثمّة شيء.. ولا هو تجرأ على الوقوف، إنما بقي

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ضوئيا ممسوح

بعيدًا وتابع المسير البطيء بسيارته، زاد فضوله جدًا، ولم يجد بدًا من الاتصال بها، ففعل سريعًا، ولكن لم تُجب.. حاول عدة مرات، دون رد.. ذهب وعاد في شارعها عدة مرات، ولم يجد أدنى جرأة تمكنه من النزول والتأكد.. بقي هكذا مدة، ثمّ رجع إلى بيته.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

21

نزدري السعادة المتأخرة، كما نزدري ورقةً نقديةً وجدناها فجأةً، بعدما أضعنا ثروةً كاملة!

عندما نصل إلى مرحلة الزهد، نكون قد تخلصنا من الأعباء النفسية التي قد ترتبط بالتعلق المفرط بالأشياء والأشخاص، هذا الزهد لا يعني بالضرورة الفقر أو الحرمان، بل هو حالة من التحرر النفسي من الحاجة المستمرة للمزيد، عندما نزهد نفهم أن السعادة ليست في الكثرة، بل في القلة التي تحمل معنى.. في هذه الحال، نجد أن الأشياء الصغيرة تأخذ قيمة أكبر... فنجان القهوة الصباحي، نسمات الهواء الباردة، ضوء الشمس الذي يتسلل من نافذة، ابتسامة عابرة من غريب، كل هذه الأمور تصبح مصادر للرضا، ذاك أنّا لم نعد نبحث عن شيء أكبر أو أعظم.. يصبح لدينا مَيل للاكتفاء بما هو موجود، يمنحنا الزهد منظورًا جديدًا للحياة، يجعلنا نفهم أن السعادة ليست متعلقة بألامتلاك، يمنحنا كذلك فرصةً لأن نجد الجمال في الأمور العادية، وأن نكتشف الروعة في التفاصيل التي قد يتجاهلها الآخرون، السعادة التي تأتي من طريق الزهد هي سعادة الحكمة والنضج.. إنها تنبع من معرفة الذات أولًا، ومن قبول الحقيقة كما هي.. عندما نزهد، نتعلم العيش بصدق مع أنفسنا، نقبل ضعفنا، ونفهم أن الحياة ليست محض الوصول إلى قمةٍ ما، بل الاستمتاع بالرحلة نفسها.. ومع ذلك قد يكون من الصعب قبول فكرة السعادة المتأخرة، خاصةً عندما نترعرع في ثقافة تعلمنا فيها أن النجاح والسعادة يجب أن يكونا معًا دائمًا، لكن متى أدركنا أن السعادة رحلة داخلية، وليست وجهة نهائية، سنبدأ في استيعاب فكرة مجيئها في أي وقت، إنّ تحقيق ما نحب مرتبط ارتباطًا وثيقًا بصبرنا على ما نكره..

هكذا كانت أفكار ريما قبل عام، كما أنها صرحت بذلك في منشور لها عبر فيس بوك، بقيت بعده أسبوعًا كاملًا وهي تناقش أصدقاءها الافتراضيين عبر التعليقات، تلك إحدى مُتعها الكبيرة.. أن تثير موضوعًا وتقضي وقتًا في الأخذ والردّ عليه، ها هي اليوم تستيقظ والحنَق يملؤها، بعد ليلةٍ أطفأ زياد بريقها بموافقته على الزواج كارهًا.. لا تزال اللحظة في رأسها حين شتمته على الشاطئ وعادت، وحين حدثته

Scanned with CamScanner

بعدها ورمت هاتفها على الجدار غضبًا، فوقع على الأرض، ولم يُصب بكثير أذى.. انفجرت بعد ذلك ببكاءٍ طويل، إلى أن غلبها النوم... كان أوّل إحساسٍ خالج نفسها حين فتحت عينيها هو الثقل.. شعرت بثقل في قلبها وكأن الظلام الذي أحاط بها ليلة أمس لم يغادر.. أخذت نفسًا عميقًا، استعدادًا لمواجهة يوم جديد، نهضت وجلست على حافة السرير، فشعرت ببرودة الأرض تحت قدميها العاريتين، ارتجفت قليلًا ثم قامت بخطوات متثاقلة نحو النافذة وفتحتها لتستقبل نسيم الصباح النقي، علّه ينفض عنها غبار الحزن.. نظرت إلى السماء الزرقاء الممتدة بلا حدود، فوجدت في اتساعها بعض السكينة.. ذهبت إلى المطبخ، وأعدت كوبًا من القهوة، ثمّ عادت وجلست على كرسي قريب من النافذة، نظرت من حولها، وهي تشرب قهوتها فرأت البيت هادئًا ومبعثرًا، تأملته برويّة.. كل شيء ينتظر منها خطوة أولى لتُعيد للحياة نظامها.. نهضت بعزيمة متجددة، واتجهت نحو الحمام لتغسل وجهها، انتبهت أنها لم تغسله فور استيقاظها، نظرت إليه في المرآة، وابتسمت قليلًا.. ثمّ عادت لغرفتها، ورفعت هاتفها عن الأرض، تصفّحت مواقع التواصل الاجتماعي بعض الوقت، ثمّ شعرت بشهيّة للكتابة.. ففتحت المذكرات وكتبت:

كنت دومًا أرى السعادة طيفًا بعيدًا، كنجمةٍ تتلألأ في سماءٍ معتمة، أملًا نسعى إليه بكل جهدنا، ونلهث خلفه بقلوبنا وجوارحنا.. لكنني اليوم، أجدني أتساءل: هل هناك - على هذا الكوكب - حقا ما يسمى «السعادة»؟ في طفولتي، كانت الحياة مليئة بالألوان والأحلام، كنت أشعر أنّ العالم بأسره يبتسم لي، ويعدني في صبيحة كلّ يوم، بغدٍ أفضل! ظننت حينها أن السعادة هدف يمكننا الوصول إليه إن نحن كافحنا بما فيه الكفاية.. والظنّ في مثل هذه الأحوال كلّهُ إثم! فمع مرور الأيام، ومع كل تجربة عشتها، بدأت تتكشف لي الحقيقة المرّة.. لقد رأيت الناس من حولي يطاردون سرابًا اسمه السعادة، ينفقون أعمارهم في البحث عنها في المال.. في النجاح.. في الحب.. وجميعهم في نهاية المطاف يعود فارغًا إلا منَ الخيبة!

لقد أصبح العالم بالنسبة لي مسرحًا كبيرًا، يتقن فيه الجميع أدوارهم، يضحكون ويتبادلون الابتسامات، ولكن هناك، خلف الكواليس تكمن الحقيقة المؤلمة.. كم من مرةٍ رأيت البسمة تزول سريعًا لتكشف عن وجهٍ منهك، وعينين تفيضان بالأسى؟ كم

Scanned with CamScanner

من مرةٍ سمعت ضحكاتٍ تتلاشى لتترك خلفها أصداء الحزن؟

إنني اليوم أؤمن أن السعادة ليست إلا وهمًا خُدعنا به حتى نستطيع تحمل قسوة الحياة.. لا أعلم، ربما تكون السعادة موجودة في تلك اللحظات القصيرة، كنسمة هواءٍ باردة في يومٍ حار، أو لحظة تأملٍ هادئة.. ولكن هل تكفي تلك اللحظات لتغطية هذا الظلام الممتد على رقعة الواقع؟ هل يمكننا حقًا أن نبني حياتنا على تلك الومضات العابرة وحسب؟ أجد أنّ نفسي تميل إلى قبول الحقيقة المؤلمة، ولذا أرفض تناول المُسكّنات التي تصرفها صيدلية الحياة، مُسكّنات السعادة..

لقد تعبت من هذا البحث المستمر، ومن هذه المطاردة التي لا تنتهي.. قد يكمن الحل في قبول الحزن كما يكمن في قبول الفرح، وفي التعايش مع الألم بدلًا من الهروب منه.. من يعلم، ربما كان الإيمان بعدم وجود السعادة هو السبيل الوحيد إليها!

بعد العصر نشرَت ريما هذا النص، وبالتحديد في الوقت الذي كان زياد يحوم فيه حول بيتها، ويتصل بها دون مُجيب.. لم يره إلا حين عاد إلى بيته، ومن العجب أن يكون هذا المنشور عن وهم السعادة هو السعادة كلّها بالنسبة إليه! دقائق قليلة من النشوة العارمة، والفرح العظيم، ما لبث بعدها أن طرق باب عقله السؤال التالي: قتلت زينب ورامي في المنام، فكان ما كان في الحقيقة، وقتلت ريما في المنام فلم تمت! هذا يعني أنّ الأمر لا يعدو كونه رؤيا فعلًا، وضع يده على وجهه ومسحه محاولًا استيعاب ما حصل، وفُتح باب جديد من الأفكار، لقد كان في طريقه إلى الشرطة ليسلم نفسه، يا للغباء والتسرّع! شعر أنه وبرغم هذه الدوامة التي هو فيها نجا بمعجزة حقيقية، ماذا سيفعل بشأن ريما الآن؟ أشياء كثيرة اختلجت في نفسه لتزيده رَهقًا على رَهق.. ومع هذا بقي سعيدًا، ولم تمنعه أمطار الأسئلة التي تسقط على رأسه من معاودة الاتصال بها، بل زاد على ذلك وقام على غير عادته بالتفاعل على المنشور بالإعجاب والتعليق معًا، كأنه يحاول التكفير عن خطيئة لم يرتكبها، يا له من رجلٍ بائس!

رأت ريما تعليقه وتجاهلته، كانت على وشك الخروج، غابت الشمس، وهي على موعد مع سارة.. تحتاج إلى جرعة كبيرة من الفضفضة هذا المساء.. ستخرجان معًا

Scanned with CamScanner

إلى «بشكتاش» الساحرة، هناك حيث شاطئ أورتاكوي الرائع.. ستشربان القهوة في أحد المقاهي المطلة على الماء، لتستمتعا بضوء القمر، وليكون للحديث وقته المفتوح.. وبالفعل جلستا على ضفاف مضيق البوسفور، وتحديدًا في النقطة الكونيّة التي تجمع الشرق بالغرب، طاولات المقهى مرصوصة بعناية لتمنح كل زائر نصيبه من المشهد البانورامي الخلاب.. حيث تعبر السفن السياحية والتجاريّة، العملاقة منها والصغيرة معًا في منظر غاية في الروعة.. في هذا المقهى، يتوقف الزمن قليلًا ليمنحك فرصة الهرب من صخب الحياة اليومية..

مرّت ليلتهما بشكل حزين بعض الشيء، سيطرت على أكثرها مخاوف سارة من علاقتها بعثمان، ودموع ريما على ما ضاع من ثقتها بزياد.. وعادتا بقناعة تامّة أنه لا حياة على وجه الأرض يمكن أن تكون خالصةً من كلّ شائبة، وهذا الاستنتاج مترسّخ وقديم لدى كل البشر، لكنّه في هذه الليلة حضر بينهما تأكيدًا، ولم يغادرهما حتى بعدما غادرتا كلّ واحدة إلى بيتها.

***

مرّت الأيّام.. ووجد زياد نفسه واقفًا تحت ضوء المصباح الخافت، ينظر في المرآة ستعدادًا للذهاب إلى اللقاء المُنتظر مع زعيم المافيا.. كانت أصابعه ترتجف بخفة وهو يضبط ربطة عنقه، ربما كانت تستشعر ثقل اللقاء الذي يقترب، نظر في وجهه مليًا، أحسّ أنّ وجهه المشدود كقوس صار على وشك الانطلاق! التقط معطفه وألقاه على كتفيه، بدا وكأنه يتدثر بدرع هش! كل خطوة نحو الباب كانت أثقل من أختها، كأنما الأرض تمسك بقدميه، وتحاول أن تثنيه عن الذهاب، يتصارع الخوف داخله مع بقايا الشجاعة التي يتشبث بها، بينما تتناوب الأفكار في ذهنه وتهمس له بأسئلة لا إجابات لها، ثقة وميض من العزيمة لا يزال يضيء أنفاقه المظلمة، ويدفعه نحو المصير المحتوم.. حانت اللحظة، وخرج ليواجه قدره..

ها هو رضا بانتظاره، وضع كيسًا أسودًا على رأس زياد وانطلقا.. لا يرى زيادُ شيئًا، ويقدّر الوقت تقديرًا، ربّما مرّت نصف ساعة قبل أن ينعطف رضا بالسيارة نحو طريقٍ شعر زياد أنه ضيّق ووعر، وأصبحت فيه سرعة السيارة أقل بكثير مما كانت

Scanned with CamScanner

عليه، هكذا لعشر دقائق ثم وقفت السيارة، وقال له رضا انزع الكيس عن رأسك، ريثما استعادت عيناه النظر الواضح تدريجيًا، رأى بعض المباني القديمة والتي بدت متآكلة تحت ضوء القمر الشاحب، تقف السيارة أمام بناء متهالك، واجهته متصدعة ونوافذه مغطاة بستائر ثقيلة متهدلة، نزل زياد من السيارة وتابع خطوات رضا.. هناك أنوار خافتة منبعثة من مصابيح قديمة تتدلى من أسلاك متآكلة بالكاد تنير الممر الضيق الذي يقود إلى الباب الأمامي، ألقى رضا نظرة خاطفة على زياد، مشيرًا برأسه نحو الباب للمتابعة.. كانت الجدران من حوله متصدعة، تكسوها طبقات من الطلاء المتقشر، وفي الزوايا تراكم الغبار واتخذت العناكب منها بيوتًا وبمحطات إقامة دائمة.. عندما اقتربا من الباب الثقيل، أشار رضا برأسه لزياد أن افتح الباب وادخل، لاحظ زياد كيف أن قبضة الباب الحديدية كانت باردة كالجليد، دفع الباب ببطء... غرفة واسعة، أثاثها فخم لكنه قديم ويعكس الأناقة الباهتة لعصر مضى.. الإضاءة خافتة، يجلس زعيم المافيا في منتصف الغرفة من وراء الطاولة، على كرسي ضخم يشبه العرش، وعيناه تتلألآن ببرود، توقف زياد عند العتبة للحظة، استجمع فيها بعض شجاعته، ثم تقدم بخطوات ثابتة داخل الغرفة، قبل أن يقطع المسافة بينهما، تجمدت خطواته عند رؤية وجه مألوف يجلس على الكرسي أمام الزعيم، كانت المفاجأة واضحة في عينيه، يُظهرها ضوء المصباح الخافت على ملامحه المندهشة، عثمان أوغلو؟! ماذا يفعل هنا؟ على الجانب الآخر، كانت المفاجأة لا تقل وقعًا على عثمان، الذي نهض من مكانه ببطء، وعيناه مثبتتان على زياد، «زياد؟!» قالها بصوت يحمل مزيجًا من الصدمة والريبة.. ومدّ يده مصافحًا، مدّ زياد يده وهو يهزّ رأسه، تلاقت نظراتهما في حوار صامت، مليء بالتساؤلات، وأخذت الأفكار تنهش ذهن زياد وهو يحاول أن يستوعب وجود هذا الرجل أمامه الآن في هذه الجهة المظلمة، لا في جهة العدالة التي من المفترض أنه ينتمي إليها!

حاول عثمان قراءة تعابير وجه زياد أيضًا، كانت الدقائق تمر ببطء، والجو مشحون بالتوتر والأسئلة غير المعلنة، كيف تقاطعت طرقهما في هذا المكان بالذات؟ لا يُعقل أن يكون هذا اللقاء صدفة.. قبل أن يجد أحدهما الإجابة، قطع زعيم المافيا الصمت بصوت عميق ومهيب: يبدو أن لديكما ما تتحدثان عنه، لكن الوقت يداهمنا،

Scanned with CamScanner

فلنركز على ما جئنا من أجله… ظلت أعين زياد وعثمان معلقة ببعضهما، تدرك أن هذا اللقاء يحمل في طياته الكثير من الغموض والأسرار التي سوف تُكشف.

بدا زعيم المافيا وهو في كرسيه الفخم كأنه حاكم لمملكة سرية.. كان رجلًا في منتصف العمر، لكن السنين لم تكن رحيمة بملامحه.. له وجه حاد، ذو زاويتين بارزتين، تكاد عظام خديه تبرز من تحت بشرته الشاحبة، عيناه أشبه ببحيرتين مظلمتين، تعكسان برودةً وعزمًا، وتتفحصان كل تفصيل وكل حركة بحذر ودهاء، شفتاه رقيقتان، بالكاد تتحركان إلا لشرح شيء مهم، أو لإصدار أوامر قاطعة، شعره أسود تتخلله خصلات رمادية، ومصفف بعناية إلى الخلف، مما يُبرز جبهته العريضة، وعقله المدبر الذي كان واضحًا في كل تفصيل من ملامحه.

ألقى زياد نظرة سريعة على الزعيم، محاولًا إخفاء ارتباكه، لكنه لم يستطع أن يبعد عينيه عن تلك العينين اللتين تراقبانه باهتمام مبالغ.. في تلك الغرفة المظلمة، كانت مشاعره أمواجًا عاتية، وعقله يعج بالشكوك، محاولًا توقع ما سيحدث، فالرجل الذي كان يجلس أمامه لم يكن مجرد زعيم مافيا، بل كان كتلة من السلطة والقوة مجسدة في هيئة بشرية، مع هذا لم يخلُ زياد من شعور بالفضول، يدفعه لمعرفة ما سيكون، خمّن أن هذه اللحظة قد تحدد مصيره، وأنه يجب عليه أن يحافظ على توازنه وهدوئه مهما كانت الظروف.. أما الزعيم، فقد كانت مشاعره مختلفة تمامًا، كانت محكومة بحسابات دقيقة، تزن كل كلمة وكل تصرف بميزان القوة والسيطرة، وكان هادئًا، مرتاحًا في مكانه، تشع منه هالة من الثقة والسيطرة، في أعماقه.. كان مرتاحًا لرؤية زياد يدخل بخطوات حذرة، كاشفًا عن توتره، وكانت عيناه تخفيان خلف برودهما تفكيرًا عميقًا وخططًا مدروسة، وتحملان شعورًا بالسيطرة التامة على الموقف.. في هذه اللحظات المشحونة، كانت أحاسيس عثمان وحتى الآن عالقة بين المفاجأة والقلق.. منذ رأى زياد يدخل الغرفة، وهو متجمد، ما زال عثمان يحاول استيعاب وجود زياد في هذا المكان، وما زال قلبه يخفق بشدة، كأن وجود زياد أدخل عنصرًا غير متوقع في معادلة معقدة بالفعل! كاد الفضول أن يفتك به.. فما الذي قد يكون جلب زياد إلى عرين الأسد؟ هل لديه دور يلعبه في هذا اللقاء أم أنه مجرد ضحية؟ عليه إذن أن يكون مستعدًا لأي مفاجأة قد تنجم عن وجود زياد في

Scanned with CamScanner

هذا المكان غير المتوقع.

Scanned with CamScanner
CamScannerب ةحوسمم اهئ

22

الملل ضيف غير مرحب به، ومع هذا لا يكفُّ عن المجيء! بل قلّ ما جاء منفردًا.. إنّه محمّل دائماً بالضيق واليأس، وبهُموم تحتلّ أروقة الوقت، تُغري الإنسان بالكسل، وتُعيق خطاه نحو التغيير، بمرور الأيام، يتحوّل الملل إلى سجن للروح، قضبانه من الفتور، وزنازينه من ذكريات عزيزة على النفس، ولا مكان فيه للأماني والأحلام.. عالم مخيف من الرتابة والاختناق.. وفي لحظات الانتظار الطويلة بيئة خصبة قد لا يجد المللُ أعزّ منها ولا أجود.. فحيثما كان الانتظار كان الملل، وحين يكون الوقت كالجبل العملاق الجاثم على صدورنا، نبحث عن ملاذ في عوالم الخيال، نبني في أذهاننا صورًا جميلة لما سيكون عليه الحلم عندما يتحقق، نصوغ في خيالنا لحظات السعادة والفرح التي ستملأ حياتنا عندما نبلغ غايتنا المنشودة.. وهذا مما يزيد الانتظار قُبحًا على قبح! وقديمًا قال الشاعر: وربَّ أُمنيةٍ أحلى منَ الظّفر.. فكم حلم انتظرناه ورسمنا له سعادات عظيمة، فلمّا وصلناه لم نجد له ربع ما كنّا نرسم في أعماقنا..

Telegram:@mbooks90

لم تعد ريما تريد شيئًا من الحياة، ولم تعد للأحلام في نفسها حظوة ولا مكان.. وبهدوء، رسمت خطوط الانعزال بينها وبين العالم الخارجي، واعتذرت بأسلوب لطيف عن الرد على جميع الاتصالات الواردة من أصدقائها، معبرة عن حاجتها لفترة من الانعزال والتأمل العميق.. فعلت ذلك من خلال منصة فيس بوك حين نشرت نصًّا قصيرًا صادقًا، وضّحت فيه حاجتها الماسّة لخلوة طويلة مع ذاتها والملل! شاكرةً فهم الأصدقاء المقربين ودعمهم، وها هي الآن.. مرّ عليها ما يزيد على شهر وهي في ضيافة الصمت والوحدة، مستسلمة للظلام واليأس.. لا أحلام تُنتظر، ولا واقع مُستطاع!.. وزياد، كأنّها فرصة كان بانتظارها، منذ شهر لم يرسل ولم يتصل!

تحاول الخروج من عزلتها، وذلك بعودتها لتصفّح مواقع التواصل فقط دون النشاطات الأخرى، كان أوّل ما رأت، منشورًا لأحد الأشخاص في منصة X بعنوان «قدَر الدوائر المغلقة، أو زمن المُنغصات الجميلة» مررت عينيها سريعًا، ثمّ ما لبثت أن عادت للمقال، فالأسى يبعث الأسى، والشجى يبعث الشجى، كما قال متمم بن

CamScanner ب حوضم ةقئاضوسملا
Scanned with CamScanner

نويرة، لقد لمحت في أول المقال ما يشي بأنه وجبة انهيارٍ دسمة! فأغراها ذلك لأن تقرأ.. يقول الكاتب:

وأنا متقوقع على نفسي ليومين متتاليين، لم أفارق فيهما مقعدي إلا اضطرارًا، ولم أستطع فيهما أن أقرأ أو أكتب، أو حتى أن أتصفح مواقع التواصل بالشكل المعتاد، شيء ما جعلني أفقد رفاهية الاستمرار في عمل شيء ما، مهما كان محببًا إلى قلبي، فأطول عمل أبدأ به، أفقد تماسكي في متابعته بعد دقائق..

العزيمة، تلك العصا السحرية التي لا يمكن لبشر أن يخطو خطوةً باتجاه النجاح إلا وهو متكئٌ عليها.. لماذا تضيع منا في أشدّ لحظات احتياجنا لها؟ وما السرّ الذي يمنح الحزن هذه القوة الخارقة في أن يكبلنا بغير قيود روحًا وجسدًا؟... وراء القهوة قهوة أخرى، ووراء الشاي شايٌ آخر، وشرود في ما يكون وما لا يكون، ووحدة في غربة، وعزلةٌ في ناسٍ كُثر.. أشياء نعيشها جميعًا، ولكلّ واحدٍ منّا طريقته... في هذا الجو المعقد وصلني اتصال من صديق سوريّ.. كان من جملة ما قاله لي: لقد وضعت رأسي تحت الغطاء وأنا في السرير اليوم، وأخذت أتخيل أنني أوضع في قبري والتراب ينهال من فوقي في ظلامٍ مَهيب.. أكون صادقًا معك، لقد شعرت بالكثير من الراحة!

في نفس الفترة، ومن صديق آخر اتصل بي، هذه المرة كان يمنيًا.. قال في جملة ما قال: إنني أنظر في وجه ابنتي الصغيرة، وفي نفسي أقول: لو أنها لم تكن، لما ترددت في الموت لحظة!... أمّا في الاتصال الذي كان مع صديق سعودي فقد دار الحديث عن سرعة الأيام، والكرب العام على الجميع، ماذا لو أنّ هذه الأيام السوداء تسير ببطء كما كانت قبل عدة سنوات فقط؟ إننا نلحظ أن تسارع الأيام لم يعد تسارعًا وحسب، بل إنه لم يعد باستطاعتنا اللحاق بهذه السرعة الخيالية لأعمارنا، إنّها بهذا الشكل رحمة على البعض ونقمة على الآخرين..

لم يتفق معي صديقي الذي اقترب من الحصول على الجنسية الأمريكية، بعدما شُخص بالاكتئاب عدة مرات، وبالنوع الحادّ منه مرة من المرات، لم يتفق معي أنّ التعاسة فقط لأولئك الذين في المشرق، يقول إنّ في الغرب أضعاف مضاعفة، فقلت له: هل عندكم دوائر مغلقة أيضًا؟... الوطن العربي من بابه إلى محرابه دائرة مغلقة يا

Scanned with CamScanner

حبيبي!... هكذا أجاب صديق كويتي سألته نفس السؤال، وأضاف: وفي الدائرة دوائر ودوائر..

يبدو أنّ لكل إنسان يعبر هذا الكوكب نصيبًا من السبع العجاف التي مرّت على أهل مصر في زمان يوسف عليه السلام، قد تأتي عامةً، وربّما أتت خاصّة، والنقطة السوداء، ذلك العمق المخيف يؤسفني أنه حتميّ على الجميع، لا بدّ من عبوره، والنجاة من الله... من صديق لصديق.. ومن قصّة لقصة أخرى.. تختلف البُقع الجغرافيّة والجحيم واحد! فماذا يريد هذا الإنسان البائس حتى يعيش سعيدًا؟ لقد تكبرنا كثيرًا على زمان المُنغصات الجميلة حتى بكينا عليه! حين يستيقظ أحدنا مستعجلًا للذهاب إلى عمله مثلًا، وإذا وصل سيارته انتبه أنه نسي مفاتيحها في البيت! حين يصل أحدنا للبيت بعد دوام طويل فتقول له أمه أو زوجته: نريد كذا وكذا من السوق! حينَ كان أحدنا يملك من السعة أن يتصل على برنامج إذاعي ويُبدي رأيه في موضوع تافه أو مهم، فتعارضه المذيعة ويشعر بعد نهاية الاتصال بضعف حجته فيتعكر لدقيقتين، حينَ يقوم أحدنا بإعداد فنجان قهوة وما أن يضعه على الطاولة حتى ينسكب بشكلٍ ما فيفسد عليه مزاجه لعشر دقائق يعزي بها نفسه بأن دلق القهوة خيرا! بالمناسبة هل تعرفون من هو خير؟ خادم في أحد القصور، قدّم القهوة لضيف من ضيوف الأمير، فتعثر ودلقها عليه، فقال الحضور: دلقَ القهوةَ خيرا!

لست متأكدًا من وجود أشخاص يعيشون حتى الآن في زمن المنغصات الجميلة، فالدوائر من حولي كلّها في زمن العجز والقهر والسواد.. وإن كان يوجد فإني أوصيهم بأن يستمتعوا بمنغّصاتهم الجميلة قبل الدخول في دائرة النقطة السوداء، فربّما بكوا على ذلك الزمان كما بكينا.

لم يكن المقال وجبة انهيارٍ دسمة بالنسبة لريما وحسب، بل كان مائدة مليئةً بالسوداوية، وافقت مزاجها العام! ومع هذا فإنها ستعود قريبًا إلى حياتها كما كانت، ولكن لن تسمح بعد اليوم لأي رجل أن يقترب من حيّزها العاطفي.. وسوف تسمح هذه الليلة لسارة أن تزورها بعد الانقطاع الطويل.. لكنّ سارة في هذا اليوم كانت على ما لا يُرام وهذا ما لا تعرفه ريما.. ففي الليلة الماضية التقت سارة بعثمان في مقهى

Scanned with CamScanner

صغير يقع على زاوية شارع هادئ وتقليديّ في اسطنبول، جلسا في ركن منعزل إلى حد ما، وكان المقهى فارغًا في ذلك الوقت إلا قلّة قليلة، ونادل أو نادلين على الأكثر، أخذت المحادثة شكلًا طبيعيًا ودودًا في البداية، منطلقةً من يوميهما ومجريات الأحداث فيه.. وبعد وقت ليس بالطويل، لاحظت سارة تغيّرًا غير معتاد في نبرة عثمان، كمن يحاول التمهيد لشيء مهم.. وعندما قرر أخيرًا أن يفتح الموضوع، أمسك يدها بلطف، ونظر في عينيها بجدية قائلًا: سارة، هناك شيء مهم يجب أن أخبرك به، لم أكن صريحًا تمامًا بشأن عملي... أنا لست محاميًا، بل.. وأخذته سعلة خفيفة، تابع بعدها: في الحقيقة أنا أعمل محققًا في النيابة العامّة.

تغيرت ملامح سارة بشكل واضح.. وانتقلت بسرعة من الفضول إلى الصدمة ثم الغضب المشوب بالحزن وهي تحاول استيعاب ما قاله عثمان.. منذ البداية، كان صريحًا معها بشأن زواجه، وهذا جعلها تحترمه لصدقه في هذا الأمر الحساس.. ومنحها ذلك شعورًا عميقًا بالأمان، فمن يكون على قدر من المسؤولية بحيث يخبر حبيبته أنه متزوج وهما في أوّل العلاقة، فهذا رجلٌ آمن في نظرها، لذلك شعرت بفاجعة تهزّ داخلها حين اعترف لها بحقيقة عمله، ولم يكن الأمر سهلًا.. أوّل ما تبادر إلى ذهنها: لمَ أخفى هذا الجانب من حياته؟ ولماذا يخبرني به الآن؟ رأت في هذا الفعل ما يبعث على الاضطراب، وفوق ذلك.. كيف يكون صريحًا في أمر معقد وحساس مثل زواجه ويخفي عنها شيئًا أساسيًا مثل مهنته؟ شعرت بالحيرة الشديدة، وبادرته: لماذا تخبرني بهذا الآن، وقد احتفظت به لنفسك طوال المدة الماضية؟ ما هي الفائدة من معرفتي إياه الآن؟ حاول أن يشرح لها أن الأمر لا يتعلق بعدم الثقة بها، بل كان دافعه الرئيسي هو حمايتها، ذاك أن طبيعة عمله قد تعرضها للخطر، وربما إذا علمت بطبيعة عمله، سيجعلها ذلك تعيش في خوف دائم عليه.. لم يقنعها كلامه، وهزّت رأسها تستعجل بذلك انتهاء تبريره غير المقنع، لم تستطع تمالك دموعها وطلبت منه أن يأذن لها بالذهاب من باب اللباقة، وقامت دون أن تنتظر إذنه، غادرته فورًا.. كان من الصعب عليها استيعاب أن تلك الأوقات التي قضتها معه كانت مبنية على خداع، وإن كان في تفصيل عملي ليس حساسًا، تساءلت عما إذا كانت هناك أمور أخرى يخفيها، وشعرت بأن أساس علاقتهما قد تزعزع بعض الشيء،

Scanned with CamScanner

فالذي يسمح لنفسه بالخداع تحت أي ذريعة رجلٌ غير آمن بالنسبة إليها.

حين أخبرت ريما ما جرى بينهما، ضحكت ريما، وقالت بسخرية: ليته يحقق مع زياد النذل، بتهمة قتل أحلام إنسانة بريئة! هنا انتفض رأس سارة، وقالت: هل تعلمين يا ريما، لاحظت في عثمان اهتمامًا زائدًا بزياد، وحرصًا ظاهرًا على معرفة الكثير مما يتعلق به!... هزت ريما رأسها، وقالت بسخرية: الرجال فضوليّون في غالب الأحيان، ربّما خشي على قلبك من زياد، فللمحققين نظرة، لعلّه رأى من نظرات زياد إليك ما لم يعجبه! وضحكت بصوت عالٍ.. هذا الحديث المقتضب جعل سارة تستعيد بشكل سريع نظرات زياد لها، لم تعلّق بشيء، ومضت الليلة.

***

لم يكن الأمر سهلًا على عثمان، فعمله محققًا وظيفة تحتم عليه ارتداء أقنعة متعددة.. وقف أمام النافذة، متأملًا غروب الشمس، تلك اللحظة، كانت تشبه قلبه.. بدت سارة بعيدةً جدًا عنه، ربّما أبعد من هذه السماء التي ينظر إليها، ها هو الآن يدفع ثمن تأخره في الاعتراف، فكيف سيصالحها الآن ويُرجع المياه إلى مجراها؟ ثمّ ماذا لو علمت بما هو أشدّ من هذا؟ كيف لو أطلعها على المهمة التي كُلّف بها من زعيم المافيا هو وزياد!؟ يا الله! هذا هو الكابوس الحقيقي، وأخذ يتخيل رد فعل سارة إذا علمت الحقيقة، كيف سيبرر لها تورطه فيما يُعتبر خيانةً أخلاقية وقانونية؟ كيف سيشرح لها أن الإنسان في بعض الأحيان مضطر أن يساوم ضميره من أجل الوصول إلى العدالة، أو على الأقل ليضمن سلامته الشخصية! ... انتابته حالة من الفزع، لمجرد التفكير بهذا، إنّها دوامة لا تنتهي.. هناك الكثير من الأشياء يجب أن لا تعرفها المرأة التي تُحب! هكذا يفكر عثمان، بما لا يختلف عن فكر كثير من الرجال، لم يكن لديه مجال للرفض، فالرفض يعني الموت.. بهذا تسير الأمور في العالم المُظلم، ومهما كان عظيمًا ونزيهًا لن يتنازل عن حياته، من أجل القانون!

كانت المهمة خطيرة ومعقدة، تتطلب منه ومن زياد التسلل إلى أخطر أروقة الجريمة المنظمة، حيث لا مكان للخطأ.. كلفهما الزعيم بتهريب شخصية كبيرة ومتورطة بأعمال مخالفة للقانون من تركيا إلى اليونان، كانت تلك الشخصية تتمتع

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ضوئيا بالمسح

بنفوذ واسع وسجل حافل بالجرائم، والنجاح في تهريبها كان يعني مكافآت ضخمة، أما الفشل فكان يعني نهايتهما! ... زياد وانطلاقًا من خبرته في التهريب، وعلمه بخبايا الطرق والممرات السرية التي لا يعرفها أحد، كان يتعامل مع هذا النوع من العمليات كجزء من حياته، وكانت قدرته على التملص من السلطات لا مثيل لها! كذلك عثمان، فقد كانت لديه خبرة واسعة في العمل الجنائي والتحقيقات السرية، ويعرف أيضًا كيف يتسلل دون أن يثير الشبهات، لكنَّ المهمة هذه المرة كانت مختلفة، وكانا يدركان خطورة الشخص الذي يتوجب عليهما تهريبه، خطوة خاطئة قد تؤدي إلى كارثة، ودّ عثمان لو أنّه يملك الشجاعة للهروب من هذه المهمة، أو شجاعة إخبار سارة بذلك على الأقل، ولكنّه فاقدٌ للشجاعتين! ... ومضت الأمور يومها بينهما، هناك وفي إحدى الحانات المظلمة في اسطنبول، تناقشا حول تفاصيل المهمة، وفي يوم العملية تحركا بحذر شديد، التوتر كان ملموسًا في الهواء، وكل لحظة كانت تبدو كأنها الأخيرة، في زقاق مظلم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، كان زياد يقف منتظرًا بجوار قارب صغير مجهز بتقنيات التمويه المتقدمة.. اقترب عثمان بخطوات ثابتة، ومعه الرجل الذي يُعتَبر مفتاح اللعبة الكبرى، تبادلا نظرات سريعة، ثم انطلقا بلا تردد..

كان الصمت سيد البحر والموقف، والأعين ترقب كل حركة، كل همسة، يتنفس عثمان بصعوبة، محاولًا إبقاء أعصابه تحت السيطرة.. جلس في مقدمة القارب، وفي رأسه كل الاحتمالات الخطرة التي قد تكون في هذه المهمة العصيبة، كل دقّة في قلبه كانت بمثابة دقة على طبل من طبول الحرب، شعوره بالمسؤولية كان ثقيلًا، وإدراكه أن أدنى خطأ قد يجرهم جميعًا إلى الهاوية كان جاثمًا على صدره.. على عكس زياد، فقد بدا ثابتًا بعض الشيء، وأكثر ثقةً بنفسه، أمسك بالدفة بيدين متجعدتين من الملوحة والخبرة الطويلة.. وعلى رغم ثباته الظاهر، كانت عيناه تتحركان بسرعة، تلتقطان كل حركة في الأفق، وانطلقا.. مع كل موجة ترتفع وتضرب القارب، كان عثمان يشعر ببرودة العرق تتسرب من جبينه.. التفت إليه زياد في لحظة هدوء، ورأى في عينيه انعكاس قلقه، مع هذا لم يتبادلا أي كلمة.. اللحظات في ذلك الوقت أثمن من أن تضيع في الحديث، كان البحر هائجًا، والأمواج تتلاطم حول

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةوضوحمل

القارب كأنها تحاول إعاقة هذه المهمة، قاد زياد القارب بسرعة وثقة، وانشغل عثمان بمراقبة الرادار بحذر شديد.. فجأة، ظهرت على الشاشة نقطة مضيئة تقترب بسرعة «إنهم قادمون» همس عثمان بشيء من الرعب الذي لم ير مثله في حياته! تلاحقت أنفاسهما.. وبدأ الوقت بالتسارع، وراح ضغط الدم في عروقهما يتصاعد، ثم بسرعة وبدقة عالية، قام زياد بمناورة حادة، مستغلًا معرفته بالتيارات البحرية والممرات الصعبة، انزلق القارب بين بعض الصخور كالشبح، متجنبًا دوريات خفر السواحل بأعجوبة، الأنفاس محبوسة، والقلوب تخفق بقوة.. هكذا حتى تمكن زياد بمناورته الحاذقة من التفوق على الخطر، في لحظة شعر عثمان فيها أنّ قطعة زجاج تمشي على حافة شرايينه! ابتسم زياد، وعيناه تلمعان بشيء من الرضا والتحدي: هذا هو عالمنا، أن تعيش دائمًا على الحافة!

تنفّس الرجل الذي كُلّفا بتهريبه الصعداء! بعدما تبعثر شعره الأسود، واصفرّ لون وجهه، ظلّ يراقبهما بحذر شديد، ويحاول قراءة نواياهما من خلال تصرفاتهما ونظراتهما، وهو يعلم أنه لا يملك خيارًا آخر، وكلما اقتربوا من الساحل اليوناني، زاد شعوره بالرهبة.. في الوقت الذي يبدو فيه البحر كعدو يتربص به، وكل موجة تضرب القارب تزيد من توتره.. بمعطفه الأسود الطويل، مع قبعة شتوية سوداء أيضًا.. وحقيبة صغيرة تلتصق بكتفه كما لو كانت جزءًا منه، وربما حمل داخلها وثائق مهمة وأسرارًا لا ينبغي أن يطّلع عليها أحد.. وقف الرجل بعدما نجحوا في الهروب من خفر السواحل، وأخذ يتأمل البحر في هذا الظلام المرعب.. هكذا إلى أن اقتربوا من وجهتهم، وعندما وصلوا أخيرًا إلى الشاطئ، لم يشعر بالراحة، بل زاد قلقًا على قلق.. كان الليل لا يزال حالكًا وباردًا، وحين وقف القارب على الساحل اليوناني، نزل الثلاثة جميعًا وتوجهوا بسرعة إلى سيارة مخبأة في مكان مهجور.. لم ينته الخطر بعد، وخلال الرحلة من الساحل إلى أثينا، كانت كل لحظة تمر كأنها فصل جديد من الكابوس، تتخبط فيه مشاعرهما بين الخوف والأمل، أمّا ضيفهما العزيز فمنذ ركبوا السيارة وهو يتصبب عرقًا رغم برودة الليل، وكل منعطف خلال الطريق كان بالنسبة إليه فخًا، وكل صوت خارجي كأنه إعلان عن خطرٍ وشيك، عبروا القرى النائية والمزارع المهجورة مستخدمين الطرق الخلفية لتجنب نقاط التفتيش، وأظهر زياد

Scanned with CamScanner

في ذلك براعةً منقطعة النظير، مما استدعى إعجاب عثمان به! ففي أحد المنعطفات كادوا أن يصطدموا بدورية شرطة، لكن زيادًا بمهارته الفائقة انحرف بسرعة إلى طريق جانبي مظلم، واستطاع الهروب بحرفيّة عالية... عند الوصول إلى أثينا، كانت الشقة الآمنة تنتظرهم، أدخلوا الرجل بسرعة.. وعندما أغلقا باب الشقة الآمنة، ساد الصمت للحظة، ثم انطلقت ضحكة قصيرة من زياد.. تنفسوا الصعداء أخيرًا، لكن عثمان لم يستطع إخفاء توتره: لقد كانت الهاوية قريبةً جدًا منّا، قال بصوت مبحوح! ... هذا الوصول لم يجعل ضيفهما في مأمن، فما زال شعور القلق يتصاعد في داخله، فليست هذه الليلة إلا محطة في رحلة طويلة ومليئة بالمخاطر لا تزال تنتظره.. جلوسه على الأريكة، وهو يحدق في الفراغ، أظهر كم كان متهالكًا في أعماقه، وإن بدت عليه محاولات التماسك.

كيف سيخبر عثمان سارة بهذا كلّه؟! لن يفعل، لا يريد أن يخسرها، ومع هذا يوقن في نفسه.. أنها ستكون لحظة ما، في يومٍ ما.. سينفجر فيها كل شيء! الطريق ليس سهلًا.. والجروح تحتاج إلى وقت لتلتئم.

Scanned with CamScanner

23

منذ الطفولة.. لم يكن الليل صديقًا لزياد، فالعتمة تفتح أبواب عقله على مصراعيها لأفكار سوداء وصور مرعبة، ومنذ الطفولة أيضًا لم يكن باستطاعته النوم بسهولة، يمرّ أكثر الليل وهو يحاول تجاهل الظلال التي تُخيّل إليه على الجدران، وأصوات الهسهسة من حوله، لم يخش شيئًا محددًا، بل كان يخاف من كل شيء... كبر زياد وكبر معه خوفه من الليل.. بل تفاقم الخوف فيه إلى أن صار الليل بمثابة عقوبة لا يعرف سببها، في الظلام تكون الأفكار أكثر وضوحًا وأكثر إيلامًا.. في مراهقته حاول عدة مرات أن يتحدى هذا الخوف، خرج إلى الشوارع ليلًا، طامعاً أن يجد في صخب الليل الحيّ ما يلهيه عن أفكاره، ويبعث فيه القوّة، لكنه لم يعد من هذه المحاولات إلا بالخيبة والمزيد من العزلة، يفضح الليلُ هشاشته، ويجرح كبرياءه.. وحين اختار طريق التهريب، كان مدركًا أن الليل سيصبح جزءًا أكبر من حياته.. فقد كانت العمليات غالبًا ما تتم في جنح الظلام، بعيدًا عن أعين السلطات، لكن الليل لم يكن مجرد غطاء للسرية، بل شاهدًا صامتًا على المعاناة التي يقترفها زياد على أعينه، وربما كان شريكًا في الكثير من جرائمه.

بعد حادثة زينب ورامي، لم يعد الليل مجرد وقت يطارد فيه زياد النوم، بل أصبح فترة من المحاكمات النفسية، والعناء المستمر.. يُدرك أن هذا العذاب الليلي وجزء يُدفع من ثمن اختياراته، لكن ذلك لم يخفف من وطأته، ربّما منحه الليل وهو طفل شيئًا منه ولو قليلًا ليرتاح فيه، أما الآن فالليل لا يرحمه، ولا يمنحه أي فرصة للراحة.. لا توجد نهاية لهذا الصراع.. سيظل الليل جزءًا دائمًا من حياته لا يمكنه الهروب منه.. ها هو الآن يتصبب عرقًا كأنما خرج لتوه من تحت الماء، تطارده صور زينب ورامي، يشعر بوجودهما معه في كل مكان، يراقبان كل خطوة يخطوها.. فقد شهيته للطعام، وأصبح جسده هزيلًا، يعيش على السجائر والقهوة، ويكافح كي يُبقي نفسه مستيقظًا قدر الإمكان خوفًا من الكوابيس، وهو يعلم أن هذا الحل مؤقت، وأنه لا يمكنه الهروب من النوم إلى الأبد.. علاقاته الاجتماعية تدهورت أيضًا، لم يعد يستطيع التواصل مع الناس بشكل طبيعي، بات غريبًا عنهم وعن نفسه.. إحساسه

Scanned with CamScanner

بأن الجميع يراقبونه يكاد يقتله، حتى أولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن قصته، يخيّل إليه أنهم يعرفون كلّ شيء.. لقد فقد الثقة في كل الحلول التقليدية، إنه لا يؤمن الآن بأن هناك طريقة للتخلص من هذا الألم النفسي الذي يمزقه من الداخل، وباتت حياته سلسلة من الأيام المتشابهة، مليئة بالعذاب والندم.. كلما نظر إلى المرآة رأى شخصًا غريبًا، شخصًا علكه الألم، وغطاه الشحوب، لا أثرَ لذاته التي كانها يومًا، صار رجلًا محطم الروح، يكافح للبقاء بأيّ وسيلة.

فجأةً بدأت الأمور تتداخل في رأسه بشكل مثير، وتحولت بعض أفكاره إلى خيوط متشابكة يصعب فكها.. كانت وساوسه تتزايد وتتشعب، مستغلّةً حالته النفسية الهشة والمتردية، عبرت سارة رأسه بسرعة خاطفة، سارة هي السبب وراء تدهور علاقتي بريما! بهذا حدّث نفسه، ثم تذكر في خياله الأيّام الجميلة، حين كانت الأمور بينه وبين ريما تسير بسلاسة وروعة، هكذا إلى أن بدأت سارة تتدخل في حياتهما.. وكان ذلك بحسب تخمينه من باب صداقتها العميق لريما، لم يكن يثق بها، وكان يشعر دائمًا بأنها تبث سمًا خفيًا في رأس ريما، وربّما كانت تتحدث عنه بسوء وتزرع الشكوك في قلبها، كانت سارة دائمًا حاضرة بشكل أو بآخر في كل نزاعاتهما.. تزايدت الوساوس في رأس زياد، وبدأت تتحول إلى قناعات راسخة.. وفي دقائق معدودة، أصبح مقتنعًا أن سارة هي سبب خسارته لريما! تطور الأمر سريعًا وصارت سارة وحشًا في رأسه، بل أكثر من ذلك، شعر للحظة بأنهما قد تتآمران عليه معًا! وأنه عاجز عن إيقاف هذه المؤامرة، وبينما هو يتقلّب في سريره، نهض فجأةً وأخذ يذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، الضغط يتزايد في رأسه، لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا وهو على هذه الحال، قرر أنه سيواجه سارة فورًا ويجب أن يُنهي هذه الدوامة التي كادت أن تقضي عليه..

ارتدى ملابسه بعشوائية وخرج مسرعًا، الوقت متأخر جدًا، والمدينة نائمة.. لا يهتم زياد بالوقت، كلّ شيء في رأسه يدفعه الآن وبشدة نحو بيت سارة، إنّه مُسيّر بقوة لا يستطيع مقاومتها.. الشوارع خالية إلا من بعض القطط الضالة وأصوات الرياح الباردة والجارحة لسكون الظلام، بالنسبة إليه.. لا مفرّ من المواجهة، ويجب أن يعرف الحقيقة مهما كان الثمن.. لم يكن الأمر بالنسبة له مجرد انتقام، بل كان يشعر

Scanned with CamScanner

بأنه يقوم بعمل بطولي، إنه الآن يقوم بتحرير حياته من الشر، والشر تمثله في هذه اللحظة: سارة.

أراد شيئًا أكثر تعقيدًا وذكاءً من جريمة تقليدية، أراد هذه المرة شيئًا يليق بمستوى وساوسه! الوصول إليها، والخروج من شقتها أقل لفتًا للأنظار في هذا الوقت، اقترب كثيرًا من بيتها، وعندما وقفت سيارته في الشارع الذي تسكن فيه سارة، اتصل بها.. تملكتها الدهشة وراودها القلق، ماذا يريد زياد في هذا الوقت؟ تعرف جيدًا أنه قد يقوم بتصرفات مستهترة في بعض الأحيان، لكنها لم تتوقع أن يتصل بها في مثل هذا التوقيت المتأخر.. لحظة الصمت القصيرة التي تلت الرنين المفاجئ للهاتف كانت كافية لتبعث عدة أفكار ومشاعر متناقضة ما بين قلبها وعقلها، أول ما تبادر إلى ذهنها، أنه يتصل بشأن الصلح مع ريما، وأنه يريد منها التوسط بينهما، لكن هل بلغ من الحماقة والتهور ألا يقدر الوقت المناسب! ربّما.. قالت في نفسها، وبعد ثوانٍ سريعة من حيرةِ أردّ أو لا أردّ؟ فتحت سارة الخط.

- بصوتٍ هادئٍ ومتوتر: سارة، أنا هنا، أسفل بيتك، أريد... فقط بضع دقائق من وقتك، إذا سمحتِ، أعدك أنها دقائق، للحديث بشأن ريما.. الأمر طارئ بالنسبة إليّ، أرجو المعذرة.

- شعرت بالارتباك والحيرة: ألا يمكننا تأجيل ذلك حتى الغد؟ مرّ ما يزيد على شهر من فراقكما، ما هو الطارئ الآن، لا أفهم!

- أرجوكِ سارة، سأخبرك بكل شيء.. اسمحي لي بذلك.. أقدّر تفهمك.. اعتبريني أخًا، ويمرّ بأزمة يحتاجك بها.. قالها ببطء وتقطّع...

- حسنًا زياد، أعطني دقائق، وسأكون جاهزة لاستقبالك.. عَكَسَ صوتُها تردّدَها وارتباكها، ولكنها قررت إعطاءه الفرصة للحديث، على الرغم من مشاعرها المتضاربة.

***

تعيش سارة في شقة صغيرة وأنيقة في أحد أحياء اسطنبول الهادئة، ديكور منزلها يعكس ذوقها الرفيع، الأثاث الحديث، الألوان الدافئة، والنباتات الخضراء

Scanned with CamScanner

التي كانت تزين الزوايا وتمنح المكان الكثير من الحياة، حاول زياد أن يبدو ودودًا وعفويًا.. حين جلسا في غرفة الجلوس، كانت الكتب تملأ الرفوف والصور العائلية تزين الجدران، بدأ الحديث بمقدمات عن ندمه الشديد، والتعبير عن حبه العميق لسارة، والتمثيل البارع في إظهار نفسه مكسورًا بسبب فراقها، وراح يماطل قليلًا في دراميّة عالية، مُتحيّنًا اللحظة المناسبة.. وحين رأت سارة أنّ الحديث قد يطول، استأذنته بلطف لتحضر كوبين من الشاي، وبالفعل عادت بعد قليل وقدمت له كوبًا، ووضعت كوبها على طاولة صغيرة أمامها، وبعد أقل من دقيقتين، وبالتحديد مع أوّل رشفة لزياد، طلب منها قطعتين زيادة من السكر وكأسًا من الماء.. تلك كانت اللحظة المناسبة لعمل جريمة مأساويّة لا تكون له يد بها! اقترب من كوبها بسرعة خاطفة، وأضاف مادّة مخدرة قوية وشديدة الفعاليّة ولا تغيّر طعم الشاي، بل تمتزج به، مادّة تعمل ببطء على تهدئة أعصابها وإفقادها الوعي، كانت حركاته دقيقة ومدروسة، ولم يترك مجالًا للصدف... مرت نصف ساعة، ثم ساعة.. وهو يشرح ويبكي ويزيد ويُعيد.. هكذا إلى أن بدأت سارة تشعر بخمول شديد وغريب دفعها إلى أن تطلب منه وهو في خضمّ حديثه أن يغادر.. وأخذ هو يمارس كلّ ما يملك من برودة الأعصاب! ... في المقابل لم تستطع هي المقاومة، وبدأ المخدر تأخذ مجراها في دم سارة، إلى أن فقدت وعيها تدريجيًا، وحين غابت تمامًا عن الشعور، وتأكد زياد من ذلك، حملها إلى الحمام، حيث قدّر أنّه المسرح الأفضل لنهاية دراميّة حزينة!

الحمام كان صغيرًا وأنيقًا، بلاط أبيض وأرفف مرتبة بعناية تحمل مستحضرات التجميل، ملأ زياد حوض الاستحمام بالماء الساخن ووضعها بداخله، ثم وصل سلك مجفف الشعر بالكهرباء من خلال مقبض إلى جانب الحوض.. وألقى بالمجفف في الماء، مما تسبب في صدمة كهربائية فورية، قضت عليها في دقائق معدودة.. تأكد زياد من أن كل شيء سيبدو كحادث عرضي ومأساوي أثناء الاستحمام، ابتسم وهو ينظر إليها، ثم التفت إلى المرآة وقدّم لنفسه تحيّةً عسكريّة! استغرق بعدها بالقليل من الضحك وقال: الآن.. فلتأخذ الأمور مجراها الحزين مثلما شاءت!

اتجه إلى باب البيت، خرج مسرعًا.. تعثّرت قدمه، فوقع من أعلى الدرج.. وفي هذه اللحظة تمامًا، استيقظ من نومه! ... كالعادة.. اندفع بكل قوته واقفًا محاولًا التقاط

Scanned with CamScanner

أنفاسه واستعادة توازنه، تأكد أنه ما يزال في سريره، جبينه يتصبب عرقًا.. كل تفاصيل الحلم الوحشي تلوح أمام عينيه، وكأنها لحظة حقيقة وليست مجرد أحلام غير مفهومة، الارتباك والضياع، والانفعالات المتناقضة بين الوعي والحلم.. اجتاحته موجة من الهستيريا والفزع أيضًا، ضيق في التنفس، وتسارع في نبضات القلب، بدأ بمحاولاته الاعتيادية لتهدئة نفسه، هرول إلى الحمام، فتح الماء البارد على رأسه.. بقي مدة ثم خرج، وأعد قهوته، وراح يذكّر نفسه أن الجريمة مجرد كابوس، والأمر لا يعدو كونه حلمًا مقيتًا كما حصل في حلم ريما، لا يُمكن أبدًا أن يكون شبيهًا لما حصل مع زينب ورامي! لا يُمكن... لا يُمكن... لا يُمكن... بدأ يصرخ وينطح رأسه بالجدار وهو يردد: لا يُمكن.. حتى فقد الوعي!

Scanned with CamScanner
CamScanner

24

كان عثمان جالسًا في غرفة الجلوس بشقته الفخمة في منتصف الليل.. يوم إجازته، وزوجته اليوم في زيارة أهلها.. وهذا الوقت مخصص للاسترخاء.. رنّ هاتفه الخاص بالطوارئ، قام بالرد على المكالمة دون أن يعير الأمر اهتمامًا، فهو معتاد على التعامل مع المسائل العاجلة، لم يتساءل عن نوع الطارئ الذي يحتاج إلى التعامل معه حين فتح الخطّ، وكالعادة، ثمّة حالة مستعجلة يجب عليه التدخل فيها، هكذا أخبر من النيابة العامّة.. وعليه أن يراجع بريده الاكتروني من أجل التفاصيل، وبهدوء قام بفتح الرسالة التي تتضمن تفاصيل البلاغ، في هذه اللحظة كان في يده كوب من اليانسون الساخن، وقعت عينه على اسم سارة، ففزّ قلبه من مكانه، فقط لأنّه تذكر حبيبته.. هزّ رأسه في محاولة لطرد الفكرة.. وبدأ يقرأ من البداية.. تجمد للحظة، وتغيّر لونه بسرعة عندما قرأ الاسم الثلاثي «سارة يونس البكر» صدمة التأكد أسقطت كوب اليانسون على الأرض، بدأ ينتفض في مكانه.. والدنيا من حوله بدأت تدور، هبّ واقفًا من فوره، ومشى خطوتين فسقط! ... قام مذعورًا وببطءٍ شديد، بالكاد يتنفس.. أمسك بمفاتيح السيارة بيدين مرتجفتين، وانطلق.. غمرت ملامح الاضطراب والجنون وجهه، وتسارعت نبضات قلبه بشكلٍ مخيف، وهنا وجدت أفكار السوء بيئة خصبة قلّما وجدتها في رأس بشر! ... يُسرع بسيارته أكثر، ويسبّ ويشتم كلّ من يخرج في وجهه معرقلًا سرعته، هكذا حتى توقفت السيارة أمام البناية التي تسكنها سارة، ونزل يركض كالأهوج، ومع كل خطوة يزداد اضطرابه وتوتره.. عندما دخل المنزل، نزل عليه شيء من الهدوء.. وبدأ يتلفّت ويسأل أين هي؟

أمامه الفرقة المُكلّفة من مديرية الأمن في موقع الجريمة، والمكونة من ضابط ومجندتين، وطبيب شرعي.. فأشارت له إحدى الجنديّات صوبَ الحمام.. ثمّ التفتت إلى الضابط تخبره أنّ كاميرات المراقبة جميعها غير موجودة في المبنى، ورجّحت أنّ يكون القاتل قام بنزعها... مشى عثمان بروية وخوف إلى أن وصل إلى حوض السباحة.. رأى سارة وقد غمرتها المياه بشكل مروع.. رأى كيف سلبها الموت بعض محاسنها.. مع أنّ وجهها بدا هادئًا وسليمًا، وبدت نائمة ليس إلا، ولكن للموت أثره

Scanned with CamScanner

الواضح لا محالة.. أعمت الصدمة عينيه، وتسارعت أنفاسه بما يُشبه نوبة هلع شديدة، وكادت الأرض تتلاشى من تحت قدميه.. شعر الطبيب الشرعي بأن المحقق عثمان أوغلو يفقد توازنه فاقترب منه وأمسك بيده.. أحس الجميع أنه يعرفها جيدًا.. بينما بقي هو ينظر إليها بصدمة وحزن عميقين، ولم يستطع إلا أن يسقط على ركبتيه، لا قوة للتحرك أو التصرف، اقترب منه الضابط، وطلب بلطف أن يخرج من الحمام بينما تهدأ أعصابه، وبالفعل خرج إلى الصالة وجلس هناك، واضعًا وجهه في كفّيه، وغرق ببكاءٍ طويل..

كانت الشرطة قد بدأت بالفعل في جمع الأدلة، لكن عثمان وبحدسه الذي لا يخيب.. كان يعرف أن هناك شيئًا أكثر من مجرد حادث.. نظر حوله إلى الشقة التي كان يعرفها معرفةً لا بأس بها، ثم عاد بعدما استجمع شيئًا من قواه، ودخل الحمام مرّةً أخرى.. وقعت عيناه على التفاصيل الصغيرة، تلك التي ربما لم يلحظها أحد غيره... تأمل مجفف الشعر الموصول بالكهرباء إلى جانب الحوض، وشعر على الفور أن هناك شيئًا غير طبيعي.. عاد سريعًا إلى غرفة الجلوس، فرأى كوبين.. إذن لم تكن وحدها في المنزل.. أمسكَ بالكوبين فشمّ رائحة خفيفة لمادة مخدرة، تعرف عليها سريعًا بحكم خبرته، كل شيء كان يشير إلى جريمة مخططة بعناية.

أخذ عثمان عينات من الشاي ليرسلها إلى المخبر من أجل التحليل، وهرول إلى هاتف سارة، وبحث مباشرةً عن آخر المكالمات والرسائل.. الرسالة الأخيرة من زياد، بدأت الأمور تتضح أمامه، زياد كان هنا! وهو يعلم جيدًا أنّ زياد قادر على تنفيذ مثل هذه الجريمة ببرود، ولكن ما هي دوافعه؟! وقف مشدوهًا للحظات ثمّ غادر وملامح الحزن تأكل من وجهه.. ليست مهمته الآن تتمحور في حل لغز جريمة فقط، بل الانتقام لحب حياته الذي لم يشبع منه بعد.. وهو خارج من بيتها أدرك أن المواجهة مع زياد ستكون حتمية، وأنه لن يتراجع حتى ينتقم لسارة.. بداية رحلة مظلمة جديدة! ومليئة بالانتقام والتشفّي، فماذا يكون في نهايتها؟ لا شيء يمكن أن يكون كما كان من قبل.. يمشي عثمان والاضطراب شديد على محياه، والأسى يقطر من رأسه على هيئة حبّات من العرق، أما الغضب فعقدَ ما بين عينيه عقدة صارمة، وأما صدره فيغلي غليًا كلما تذكر ملامح وجه سارة الرقيق، وعينيها الممتلئتين بالحياة،

Scanned with CamScanner
تم المسح الضوئي بـ CamScanner

كيفَ أغلقهما بيديه إلى الأبد وهي غارقة بالموت!.. كان يشعر بثقل الفقدان يزيد جثومًا على صدره.. يمشي بملامحه المتعبة وبنفس تحمل أثقالًا من السهر والتفكير والشتات، لم يكن يستطيع التركيز على أي شيء سوى الانتقام.. مشى في الشوارع الباردة ليلًا، محاولًا ترتيب أفكاره.

بعد ساعتين كان عثمان في مكتب التحقيقات الجنائية، جلس وحيدًا، ومحاطًا بملفات القضايا وأدلة الجرائم، حاول التركيز، لكن ذهنه كان مشتتًا.. صور سارة وموتها المأساويّ لا يغيب عن عنه ويعود إليه بلا توقف.. أخذ نفسًا عميقًا وحاول أن يرتب ما في أعماقه، يعلم أن هناك شيئًا أكبر ينتظره، بدأ بمراجعة كل تفاصيل الجريمة مرة أخرى، الشاي، المادة المخدرة، مجفف الشعر، رسائل الهاتف.. كل شيء كان يشير إلى زياد، لكن كان هناك جزء من عقله، لا يستطيع تصديق أن يصل زياد إلى هذا المستوى من الشر، ولم يستطع العثور على دافع واحد يجعل زياد يتورط بهذه الورطة.. لا بدّ من دليل قاطع، شيء لا يدع مجالًا للشك... وبينما هو على هذه الحال، وفي لحظة من اليأس القاتل، استلقى عثمان على كرسيه وأغمض عينيه.. تذكر أول لقاء له مع سارة، تذكر كل لحظة سعيدة قضياها معًا، وكل وعد قطعه لها.. غاب في بكاءٍ جديد.. لقد تحوّل كل شيء إلى رماد.. انتفض في مكانه، ثمّ نهض.. قرر أنه لا يستطيع الانتظار أكثر، سوف يذهب إلى زياد، سوف ينظر إلى عينيه، لا بدّ من اللقاء وجهًا لوجه، ولكنه سينتظر الصباح، لن يستسلم للتسرع، هذا ليس من طبعه في شيء.. سيستمر رغم حالته الصعبة في الحفاظ على ما يعتقد أنه صواب في خطواته للوصول إلى الحقيقة.. ذهب واستلقى على الأريكة الطويلة في مكتب زميل من زملائه.. ستكون المواجهة صعبة للغاية، وخطيرة جدًا، لكنه مستعد لكل شيء من أجل روح سارة التي لن تهدأ حتى يتحقق العدل، ويُنتقم من قاتلها.

***

أخذ عثمان مسدسه من مكتبه، وأخفاه تحت معطفه، وقف أمام المرآة للحظة، نظر إلى عينيه المتعبتين، وقال بصوت منخفض: سارة، سأنتقم لك، هذا وعد. خرج من المكتب، متجهًا إلى مواجهة قد تُغير حياته إلى الأبد.. إلى محل التحف الخاص

Scanned with CamScanner

بزياد، بخطوات ثقيلة، ولكنها مليئة بالعزيمة... الشوارع هادئة في تلك الساعة الصباحيّة، فقد ذهب أصحاب العمل إلى أعمالهم، وطلبة المدارس أصبحوا في مدارسهم، وتلاشى الازدحام الخانق، وبدأت الأمور تأخذ مجراها الاعتياديّ.. كان الجو باردًا، لكن جسده كان نارًا من الداخل، أفكاره كانت متشابكة، وقلبه ينبض نبضًا متسارعًا، وكل نبضة كانت تذكره بالفقد.

يمرّ خلال طريقه إلى زياد بعدة محطات مألوفة، أماكن كان يتردد عليها سابقًا، منها ما كان برفقة سارة، ذكريات كثيرة كانت منثورة على الطريق أمامه، وهو يقترب من مواجهة غير محببة ولكنها حتميّة.. ثِقَلُ المسدس تحت معطفه يذكره بجديّة الموقف، قد لا تنتهي هذه المواجهة بشكل سلمي، لكنه الطريق الوحيد إلى الحقيقة، ومهما كانت العواقب.. حين وصل توقف للحظة أمام الباب المغلق.. نزل من سيارته، واقترب من المحل، نظر من خلال النافذة الزجاجية، فرأى زيادًا وهو يُقلّب قطعة فنية بين يديه، غير مدرك لوجوده.. دفع عثمان الباب ببطء، فتردد صدى الجرس الصغير الذي يعلو المدخل في أرجاء المحل.. رفع زياد رأسه ونظر نحو الباب، تعلو وجهه علامات الدهشة والترقب، وقعت عيناه على «عثمان؟» وبسرعة حوّل تعابير وجهه بحيث يبدو غير مكترث.. أخذ عثمان نفسًا عميقًا وتقدم بخطوات ثابتة نحو زياد.

- بصوتٍ حادّ وواضح، وبلا مقدّمات تُذكر: نحتاج إلى الحديث.. يا زياد، الآن.

- تغيرت ملامح زياد، وعادت إلى الدهشة، وشيء من الحذر، قال وهو يضع القطعة الفنيّة جانبًا، وبصوتٍ تظهر فيه نبرة الاستغراب: عن ماذا تريد أن نتحدث؟

- باغته عثمان بحركة سريعة جدًا، حين أمسكه من ياقة قميصه وسحبه بقوة حتى التصق أنفهما ببعض، وقال بنبرةٍ منخفضة، ومشحونة بالغضب: عن سارة، وما فعلته بها.. ثمّ دفعه بشدة إلى الخلف.

- قام زياد مذعورًا من مكانه، فضحته نظراته المليئة بالخوف.. وقال بصوتٍ مرتعش: لا أعرف عن ماذا تتحدث، صدقًا لا أعرف يا عثمان.. ثمّ حدّق في عيني عثمان للحظة.. لم يحتمل حالة الخوف التي اعترته فجأة، لم يكن قطّ جبانًا.. هذا

Scanned with CamScanner

الشعور السريع قلب حاله، فلم يلبث أن أخذته العزّة بالإثم، وذاك أهون عليه من أن تُهانَ ذاتهُ على عينيه! فقال بصوتٍ حادّ: لقد كان حادثًا.. وأدار رأسه باتجاه النافذة.

- قاطعه عثمان بغضب: حادث؟ أنت تعلم جيدًا أنه لم يكن حادثًا، كنتَ هناك، ثمّ صرخ عثمان بصوتٍ غاضب: زياد، أنا أعلم كل شيء.

- تراجع زياد خطوة إلى الوراء، لكنّ عينيه لم تفارق عيني عثمان.. أنت لا تملك دليلًا.. والشرطة ستعتبرها حادثة مأساوية، وفي أسوء الأحوال، سيضعونها في ظهر السيد مجهول! قالها زياد بسخرية.. مما استفزّ عثمان فأشهر مسدّسه لا إراديًا وصوّبه نحوه، وبصعوبة بالغة قاوم رغبته في إطلاق النار.. بقيا هكذا لحظات، إلى أن قال عثمان: ربما لا أملك دليلًا الآن، لكنني سأجد.. سأجعلك تدفع الثمن، يا زياد، ولو خسرتُ كلّ شيء.

في تلك اللحظة، شعر عثمان بثقل ما كان على وشك فعله، كان يعلم أن قتله لزياد لن يعيد سارة، فتراجع في اللحظة الأخيرة.. خفض مسدسه ببطء، وعيناه تشتعلان بالغضب.. وهو يكرر: سوف تدفع الثمن، زياد، سوف تدفعه.. ولكن ليس الآن، ولا بهذه الطريقة، ثق بأنني سأحرص على أن تقضي بقية حياتك في السجن، وفي ألعن سجن يمكن أن تتخيله نفسك، سأحرص أن يكون سجنًا للبهائم!... شعر زياد بارتياح مؤقت، ابتسم ابتسامة ساخرة: هل تظن أنك تستطيع يا عثمان؟ ... لن تجد شيئًا.. هزّ عثمان رأسه بثقة: سنرى.. لديك أيام قليلة، استمتع بها ما استطعت.. أدار وجهه نحو الباب وانسحب من المحل، تاركًا زياد خلفه بوجهه الشاحب وابتسامته المصطنعة.. يعلم عثمان أن المهمة لن تكون سهلة، لكن عزيمته في ذلك الموقف كانت قوية.. لقد اتخذ قراره: سيستخدم كل خبرته، وكل مورد لديه ليودَع زيادًا السجن، ولو كلّفه الأمر أن يُسجن معه في زنزانة واحدة! ... تمتم في نفسه وهو يركب سيارته: هذه البداية فقط، ولعبة القط والفأر قد بدأت للتو يا زياد.

غادر وترك زيادًا في أسوأ حال.. فمنذ الليل وزياد يقنع نفسه أن الذي حدث لم يكن سوى كابوس يشبه ذلك الذي رآه بريما.. لكنّ الحقيقة كانت أكثر قسوة، لقد أخبره عثمان قبل قليل أنه قتل فعلًا.. إذن لم تمت سارة في حلمه.. بل في الواقع،

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

قتلها بيديه.. نظر يمنة ويسرة، شيء ما يُشعره بوجود سارة في كل ركن من أركان المحل، كأن روحها تحوم حوله، ووسط هذه الفوضى العقلية، بدأت تطرأ على ذهنه فكرة أخرى أكثر إزعاجًا... ريما وما يعرفه عثمان، عثمان أصبح خطرًا حقيقيًا عليه، وفي أي لحظة يمكن أن يكشف الحقيقة لريما.. بدأت الريبة تزداد في داخله بسرعة، وأصبح تفكيره أكثر اضطرابًا، كان يعلم أنّ ريما إذا علمت بالحقيقة، فسينهار كل شيء.. ولن يعود للصح أيّة فرصة، لم يكن يريد أن يخسرها مرة أخرى، حتى ولو كانت مجرد ماضٍ في حياته، عليها أن تظل بعيدة عن هذا الجحيم الذي خلقه بيديه!

إنّه مستعد الآن لفعل أي شيء من أجل حماية سره المظلم.. لن يكون الأمر سهلًا، أخذ نفسًا عميقًا، وأغلق عينيه للحظة.. في تلك اللحظة، لم يكن هناك فرق بين النوم واليقظة.. كل ما كان يعنيه هو أن ينجو بأي ثمن.. فما هو الحل؟ ... فتح عينيه قليلًا ونظر إلى التحف المحيطة به.. تلك الأشياء العتيقة والهشة لا تزال تذكره بمدى هشاشة حياته، وكيف أنه معلّق بخيط رفيع.. يجب عليه الآن اتخاذ القرار الصعب للحفاظ على توازنه.. بدأت تدور بين عينيه فكرة التخلص من عثمان، لم تُتعب الفكرة نفسها كثيرًا ليقتنع بها.. سوف يفعل، وبأسرع وقت.. لقد حكم عثمان على نفسه بالموت.

Scanned with CamScanner
CamScanner ـب حوسمم

25

غادر عثمان محل زياد والغيظ يضرم في أعماقه نارًا، لا يعلم إذا كان سيره بهذا الاتجاه عن محض إرادة منه، أم أنه منساق خلف قوى داخلية أكبر منه ولا يمكنه تفسيرها.. وجد نفسه يتجه دون تفكير مسبق إلى بيت ريما، كأنما كان مرغمًا على ذلك... حالته النفسية لم يسبق له المرور بمثلها، وصل إلى باب بيت ريما، لا يدري ما إذا كانت هذه الخطوة صحيحة، أم ستزيد الطين بلّة.. وقف أمام باب بيتها ما يزيد على ساعة.. إنها لحظة مصيرية تنتظر منه الكثير من الشجاعة والصدق ... يحمل في داخله حملًا ثقيلًا لا يمكنه تحمله بمفرده، كيف يخبرها بموت صديقتها المقربة سارة؟ كيف يعبر عن هذه الخسارة الكبيرة دون أن يزيد من آلامها؟ وسط هذه المشاعر المتقلبة والمليئة بالتساؤلات، بدأ عقله الذي يسبح في دوامة من التفكير يعمل بجد.. محاولًا فهم جميع الجوانب المحتملة لهذا الموقف الحساس، أخذ يُرتب الأفكار والكلمات بشكل يترجم بوضوح ما يدور في داخله.. هكذا حتى تحولت حالة الارتباك إلى تركيز مركزي، حيث بدأ يتصوّر كيف سينقل هذ الخبر إلى ريما، وكيف سيحدثها عن الشكوك التي تراوده اتجاه زياد بأقل قدر ممكن من الإثارة والارتباك.

سيخبرها بأسبابه الوجيهة التي دعته إلى الشك بزياد، سيعترف لها أنه يعرف زياد خارج إطار العلاقة التي تعرفها ريما، سيقول لها أن زيادًا يعمل في الإطار الأسود، وأنّ عثمان يعرف عنه ما لا تعرفه ريما ولا سارة ولا غيرهما.. فكر لثانية، هل يخبرها أنهما اشتركا معًا في عملٍ مخالف للقانون ليؤكد لها شكوكه بزياد؟ لا.. لن يفعل، فهذا سيجعل ريما بشكل أو بآخر تفقد ثقتها به، عليه ألا يُخاطر بفتح باب لأحاديث صعبة قد تغير مسار الأمور للأسوأ.. مرّت هذه الأسئلة في رأسه وهو يمشي من سيارته، إلى باب بيتها... ضغط الوقت يتزايد، ولا بدّ من طريقة مثلى للتعبير عن شكوكه بدقة وحذر، دون أن يثير الشكوك نحوه، أو يؤثر سلبًا على علاقته معها.

قامت ريما بجميع واجباتها المنزلية منذ الصباح الباكر، نظفت المطبخ، ورتبت البيت، وأعدت بعض الشاي الأخضر، لتشربه في شرفة المنزل المطلة على حديقتها الصغيرة، الهواء عليل مع نسمة باردة، وأشعة الشمس اللطيفة تداعب أوراق النباتات

Scanned with CamScanner
CamScanner ب حوسمم ضوئيا

والزهور التي كانت ريما تعتني بها بحب.. أمّا في هذه الأثناء التي توافق نزول عثمان من سيارته متجهًا إلى باب بيتها، تستعد ريما وقد فرغت من روتينها الصباحي المعتاد لتناول وجبة خفيفة قبل البدء بأعمالها اليومية.. لم تكن على استعداد نفسي لصدمة ولو كانت غير ذات أثر كبير، فكيف بموت سارة؟ بالكاد استطاعت أن تستعيد قوتها النفسية بعد الفراق المؤلم عن زياد.. فهي منذ انفصالهما تحاول جاهدة أن تلملم شتات روحها وتعيد بناء حياتها شيئًا فشيئًا.. وبالرغم من فشلها بالتخلص منه تمامًا.. لكنّها الآن تعتقد أن الأمور بدأت تأخذ منحى إيجابيًا باتجاه الخلاص، وأنها أخيرًا تسير نحو السلام الداخلي.. لم تكن تعلم أن القدر سيجري عليها بما هو أشدّ مرارةً وأعتى.. ربّما عبرت رأسها يومًا من الأيام كلّ فواجع الدنيا، ومثلها مثل الكثيرين، ربّما عانت بفترات متقطعة من وسواس «خوف الفقد» ومع هذا، فهي لم تفكر ولو لثانية واحدة في حياتها أنها قد تفقد صديقتها المقربة ودعمها النفسي الوحيد على ظهر هذا الكوكب، وبطريقة أقلّ ما يُقال عنها أنها مأساوية.

من يمكن أن يكون الزائر في هذا الوقت؟ قالتها ريما بتعجب وتساؤل، بعدما انقطع سكون البيت بصوت طرقات قوية ومتلاحقة على الباب.. الطّرقُ يزداد إلحاحًا كلما اقتربت ريما من الباب، مما جعل قلبها ينبض بسرعة أكبر.. وبدون أن تسأل من الطارق.. فتحت الباب، لتجد عثمان واقفًا أمامها.. وجهه مشحون بالقلق والحزن، وعيناه تعكسان توترًا غير معتاد، بدا كأنه يحمل أخبارًا ثقيلة على كاهله، وبأنه في حاجة ماسّة لأيّ كاهلٍ آخر يحمل معه هذه الأثقال، لم يسبق لها قطّ أن رأته بمثل هذه الهيئة المضنية..

-عثمان! ماذا يحدث؟ قالتها بصوت مرتبك ومليء بالاستغراب والقلق..

- تردد عثمان للحظة، ونظر إلى الأرض قبل أن يرفع عينيه لمواجهتها.. هل يمكنني الدخول؟ هناك شيء مهم أريد التحدث معك بشأنه..

شعرت ريما بأن شيئًا عظيمًا قد حدث، هيئته المنهكة، وكلامه الثقيل أخافا قلبها.. أشارت له بالدخول وهي تحاول كتم مخاوفها، دخل ببطء، وجلس على الأريكة، بينما بقيت هي واقفة تنظر إليه بترقب.. وتحاول قراءة شيء من تعابير وجهه، إذ

Scanned with CamScanner
CamScanner ـب ةئوض ممل اهحسم

كان صمته يزيد من شعورها بالقلق والريبة.. وبعد لحظات من الصمت والوجوم، رفع عثمان رأسه ونظر إليها بعينين غارقتين بالأسى.. تنحنح وقال بصوتٍ منخفض وواضح: ريما، الأمر ليس سهلًا.. ولا أعرف كيف أقوله، اعذريني فأنا الآن فاقد لكلّ ما أملكه من قدرات دبلوماسيّة امتلكتها من قبل.. هناك شيء يجب أن أخبرك به عن سارة.

شعرت ريما بأن الأرض تميد من تحت قدميها، وأيقنت أن حياتها ستنقلب رأسًا على عقب في غمضة عين.. ماذا هناك؟ قل؟ ما الذي حصل لسارة؟! انطق عثمان، انطق لا تقتلني بصمتك، ما الذي حصل لسارة! بدت عليها علامات الهستيريا من قبل أن يقول عثمان أي شيء.. فالذي قدّم به كان كافيًا لتستشعر ريما المصيبة، هنا كان عثمان يمسح دموعه بصمت، محاولًا التماسك، لم يكن قادرًا على السيطرة على عواطفه، لكنّ الألم الذي يشعر به كان أكبر من أن يخفيه.. وحين استجمع نفسه ليقول، انفجر بالبكاء! ولا إراديًا وضع وجهه بين يديه وعلا صوت نشيجه.. عاود المحاولة، في أن يلتقط أنفاسه ليتمكن من الكلام، لم يستطع.. كانت العبرات تخنق كلماته.. نطق أخيرًا بصوت متهدج: ماتت... سارة ماتت يا ريما!

تجمدت ريما في مكانها، غير قادرة على استيعاب ما سمعته.. بدهشة وذهول،وبعينين تتسعان في صدمة لا تُصدق.. خرّت ريما على الأرض وهي تضربُ وجهها مفجوعةً، غير واعيةٍ لما تفعل.. صدمتها بموت سارة كانت أكبر من أي شيء يمكن أن تتحمله بعد كل ما مرت به... موت سارة، الذي جاء دون سابق إنذار، كان كفيلًا بتحطيم ما تبقى من ثباتها النفسي، ليتركها في حالة يُرثى لها.. بل لتُردّ لأسوأ بكثير مما كانت عليه.. هذا ولم يخبرها عثمان بعد، بأنّ موت سارة بفعل فاعل وليس حادثًا مأساويًا بغير مسبب، فكيف إذا أخبرها أنّ زيادًا هو المتهم الأول في نظره؟ كيف سيحتمل قلب هذه المسكينة كلّ هذه الطعنات؟ هو أمرٌ لا مفرّ منه.. مسح عثمان دموعه وقام باتجاه النافذة بحيث كان ظهره لريما، أخذ نفسًا عميقًا، ثمّ بدأ صوته يهدأ تدريجيًا، مع بقائه محملًا بالحزن: هناك شيء آخر يا ريما يجب أن أخبرك به، وهو أصعب للأسف مما قلته للتو!

Scanned with CamScanner

- ما زالت ريما متجمدة في مكانها، تنظر إليه بعينين تملؤهما الدموع ويسيطر عليها الترقّب، كأنها تستعد لتلقي ضربة أخرى.. ماذا تقصد؟» سألت بصوت مرتجف..

- أخذ عثمان نفسًا عميقًا مرة أخرى، ثم قال ببطء: لقد كنت في موقع الحادث، وهناك أمور لم تبدُ لي طبيعية، الظروف المحيطة بوفاة سارة تبدو غامضة جدًا، بالنسبة لي على الأقل، وحتى الآن، وبرغم عدم صدور تقرير الحالة من اللجنة المختصّة، -أقول بالنسبة لي على الأقل- لم يكن هناك أي علامات تدل على حادث طبيعي، الطبيب الشرعيّ قال: إنه من الممكن أن تكون الوفاة نتيجة لأزمة قلبية، لكنني.. لكنني أشك في ذلك.

- بادرته ريما وعقلها في حالة من التخبّط: ماذا تعني عثمان؟ هل تظن أن هناك أحدًا وراء موتها؟

- التفت إليها وهو يهزّ رأسه ببطء، وبنظرة جادة ومشحونة بالقلق.. قال: هناك إشارات ظهرت لِي تؤكد احتمال تدخل خارجي.. وللأسف، لا أعرف كيف أقولها.. عاد وأدار ظهره للنافذة: للأسف ريما، - أكرر: للأسف الشديد - أعتقد أنه قد يكون لزياد يد في الأمر!

- شعرت ريما بصاعقة كبيرة تعصف بكيانها، لم تكن تتوقع تطور الأمور إلى هذا الحد.. نعم! زياد؟ مستحيل! ماذا تقول، إنك تهذي! كيف يمكن أن يكون لزياد علاقة بما حدث؟

- أخذ عثمان لحظة التقط فيها بعضًا من أنفاسه، ثم أقبل بوجهه عليها مرّةً أخرى: بعد فراقكما.. كنت أراقبه عن كثب، كان تصرفاته مُريبة، وربّما تردّدَ على أماكن مشبوهة.. منذ أن علم أن سارة كانت تدعمك وتساندك بعد انفصالك عنه، بدأ يُظهر عداءً غير مبرر تجاهها.. وسارة أخبرتني في بعض المرات أنها شعرت بوجود أحدٍ ما يُراقبها، ولم يكن ليخطر على بالها أنه زياد.

- ارتجفت ريما من رأسها حتى أخمص قدميها: ولكن هذا غير معقول! أنا أعرف زيادًا جيدًا، لا يمكن أن يفعل شيئًا كهذا.. ثمّ ما الذي يجعلك أنت تراقبه؟

Scanned with CamScanner

- أجابها بجدية: ريما، ثمة شيء آخر ستعرفينه الآن.. أنا لست محاميًا، أنا أعمل محققًا في النيابة العامة!

- صاحت ريما وهي تضرب رأسها بيديها: لا.. لا.. سأفقد عقلي.. أنا متأكدة من ذلك! ماذا سيحتمل رأس ريما ماذا سيحتمل.. وانهارت بالبكاء.. كانت لحظةً قاسيةً للغاية، عدّة ضربات متتالية على رأسٍ واحد!

- سامحيني، أرجوك يا ريما سامحيني.. لقد أخفيت عملي حتى عن سارة، ولم أخبرها بحقيقته إلا من مدة قريبة.. أرجوكِ هذا لا يغير من واقعنا شيئًا الآن، فلا أريد لثقتك بي أن تهتزّ، ليس هذا الوقت مناسبًا لذلك! ... ذهب إلى المطبخ وتناول كأسًا من الماء البارد وقدمه لها، وتركها عدة دقائق بعد شربها الماء حتى تهدأ.. ثم وبدون أن ينظر إلى عينيها قال: زياد شخص معقد، وعلاقته بك ومجرياتها كانت دمارًا عليه.. هكذا أُخمّن، من الممكن أن يكون شعوره بخسارته لك، دفعه إلى ارتكاب هذه الجريمة.. أنا لا أملك دليلًا قاطعًا بعد، لكنّ إحساسي يقول إن زيادًا لم يتقبل خسارته لك، وقد يكون انتقم بطريقة غير مباشرة.

خيم الدوار على رأسها، كل شيء كان يدور في ذهنها بسرعة، وبدأت تفاصيل كثيرة من الماضي تتقاطع مع كلمات عثمان.. تلك المكالمات الغريبة التي تلقتها سارة، وأخبرتها عنها، وشعور سارة الدائم بأنها مراقبة، هذه أمور تعرفها ريما.. والآن تبدو أكثر من مجرد مخاوف أو مصادفات كما اعتقدت ريما من قبل.

- ماذا سنفعل الآن يا سيادة المحقق! سألت ريما بصوت ساخر بعض الشيء، يعبّر عن الحالة التي كانت تستحوذ على عقلها، وبالكاد كان مسموعًا.

- بجدّية وهدوء: سنبحث عن الحقيقة.. سنجمع الأدلة ونتحقق من شكوكنا، لن ندع موت سارة يمر دون معرفة ما حدث بالضبط، سارة كانت صديقتك المقربة، وحبيبتي.. يجب أن نعرف الحقيقة لأجلها، وأن ننتقم لها... مزيج من الألم والغضب، هكذا بدت ملامح ريما.. ولم تجب بشيء.. عمّ الصمت لدقيقتين، قال بعدهما عثمان: هناك شيء آخر يجب أن تعرفيه.

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

- انتفضت ريما في مكانها: أعوذ بالله من هذا اليوم! أعوذ.. بالله! قالتها بحنق وغلظة، ثم أردفت بغضب: ماذا هناك أيضًا؟

- هزّ عثمان رأسه، وبصوت منخفض قال: قبل أن آتي إليك.. كنت عند زياد!

- اتسعت عيناها بذهول وهي تلتقط أنفاسها بصعوبة.. ماذا؟ تقول إنّك كنت عند زياد؟! هل جئت إليّ اليوم لتقتلني يا أنت!

- اهدأي! قال عثمان بصوت ثابت، ثمّ أخذ نفسًا عميقًا، وبدأ يروي ما جرى... نعم، ذهبت إليه مباشرة بعد أن خرجت من بيت سارة.. كنت مغموزًا بأثر الفاجعة، ومليئًا بالغضب والألم.. لم أستطع التحكم في نفسي، عندما وصلت إلى محل التحف الخاص به كان في حالة صدمة، لكنه حاول أن يتصرف بشكل طبيعي..

- وماذا حصل؟ سألته بقلق..

- لم أقل شيئًا في البداية، نظرتُ إليه فقط، محاولًا أن أجد في وجهه أي ثغرة نفسيّة، أو علامة على الحقيقة.. كان متوترًا، وتهرّب من نظراتي أولًا.. ثم فجأة، لم أستطع التحمل أكثر.. سحبت مسدسي ووجهته نحو رأسه.. كنت للحظة سأنهي حياته، بالكاد.. بالكاد استطعت ضبط أعصابي! ... أردت أن أنتزع منه اعترافًا بكل شيء، وإن كان اعترافه لي لا يُجدي شيئًا، ولكن أردت أن أعلم على الأقل إذا ما كان له يد في موت سارة..

- شهقت ريما واضعةً يدها على فمها بذهول: عثمان، لا يمكن أن تكون فعلت ذلك!

- أومأ عثمان برأسه ببطء: كنت في حالة من الجنون والغضب لا يمكنني وصفها لكِ.. صرختُ في وجهه، وطلبتُ منه أن يعترف، أنكر طبعًا.. ولكن ما لبث أن اعترف بذلك! وأردف ساخرًا: القضيّة ستُسجّل ضد مجهول! تحدّث بثقة عجيبة، لا أعرف على ماذا يستند ليكون بهذا الفجور وهذه القوة..

يعرف عثمان بالطبع أنّ زيادًا يستند على زعيم المافيا، الذي سبق وأمّنه من السجن، ويعرف عثمان أيضًا أنّ زيادًا متورط بجرائم قتل سابقًا، ولكنه لا يستطيع فعل شيء حيال ذلك، فهما بالنهاية يعملان لصالح رجل واحد! ولا ينسى حين

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ضوئيًا ممسوح

جاءه رضا إلى المكتب في النيابة العامة، وطالبه بصيغة الأمر، أن يُنحيَ ملف مقتل المحقق أوموت، وملفيّ زينب ورامي جانبًا، كخطوة تمهيديّة لجعل الملفات الثلاثة ضد مجهول!

بعد كلّ هذه الصدمات، جفّت دموع ريما. وقالت بصوتٍ تقطّعه الغصّة: إذا كان اعترف لك فعلًا، فما يمنعك الآن وأنت محقق في النيابة العامة أن تسحبه من رأسه وتضعه في السجن؟

- تنحنح عثمان غير مستغرب من سؤالها الصعب: ما يمنعني يا ريما أنه لا دليل ملموس بعد في يديّ، اعترافه لي خارج النيابة العامة لا يكفي، لقد فاتني أن أسجل اعترافه على الأقل! ... وذهب إلى المطبخ بحجّة إحضار كأس ماء، محاولة للهرب من تبعات هذا السؤال.. ثمّ عاد وهو يقول: أيضًا لم يعطِني تفاصيل كاملة، كلّ الذي قاله إنّ ما حصل سيُعتبر حادثًا مأساويًا، وسيُقيّد ضد مجهول في نهاية الأمر.. هذا الكلام يمكن اعتباره اعترافًا ضمنيًا، لكن لا يمكن الأخذ به، كنت على وشك أن أفعل شيئًا لا يمكن الرجوع عنه، لكن في اللحظة الأخيرة، تراجعت.. لم أستطع أن أكون قاتلًا، حتى من أجل الانتقام لسارة، لم أستطع..

- ابتلعت ريما ريقها بصعوبة، وشعرت برعشة تعتري جسدها: ماذا سنفعل الآن؟

- نحن بحاجة إلى العثور على دليل يثبت تورطه.. هناك بشكل مبدأي سجلات مكالمات، ورسائل، تدلّ على أنه آخر شخص تواصل معها قبل الحادث.. وهذا يقتضي استدعاءه والتحقيق معه، ولكنه لا يعتبر دليلًا كافيًا.. فموت سارة بشكله الظاهر يدلّ على حادث غير مُدبّر بغضّ النظر عن آخر مَن تواصل معها أو زارها حتى..

- أومأت ريما برأسها الثقيل جدًا، سأفعل كل ما بوسعي لمساعدتك، عثمان.. لن أدع موت سارة يمر هكذا بدون عقاب!

وفجأةً نهضت بطريقة سريعة وجنونيّة، وفي عينيها غضبٌ عارم، ومشت بسرعة نحو الباب، مصممة على مواجهة زياد بنفسها... صاح عثمان وهو يقف أمام الباب بسرعة ليمنعها: ريما! ماذا تفعلين؟

Scanned with CamScanner

- لن أتركه يُفلت بفعلته.. سأذهب إليه الآن، الآن وفورًا سأواجهه.. يجب أن يدفع ثمن ما فعله بسارة!

- أمسك عثمان ذراعها محاولًا تهدءتها: ريما، توقفي! لا يمكنك الذهاب إليه الآن بهذا الشكل، زياد شخص خطير ومجرم محترف، صدقيني لن يتردد في إيذائك إن شعر بالتهديد..

- توقفت وعيناها تفيضان بالدموع والأسى: لقد قتل سارة، عثمان! لا يمكنني أن أظل هنا وأنتظر بينما هو حر طليق.. يجب أن أواجهه وأجعله يعترف بأي طريقة..

- شد عثمان على ذراعها بلطف وحزم، لعلها تدرك خطورة الوضع: ريما، أنا أفهم مدى ألمك وغضبك، وأشاركك الشعور نفسه، لكنَّ التصرف باندفاع لن يساعدنا.. زياد ليس شخصًا يمكننا مواجهته بدون خطة.. نحن بحاجة إلى التحرك بذكاء وهدوء..

- بدأت ريما تهتز بين يديه، وانفجرت بالبكاء: أنا لا أستطيع، عثمان.. لا أستطيع تحمل فكرة أن يكون هو السبب في موت سارة ونحن هنا لا نفعل شيئًا!

- مسح عثمان على كتفها برفق لتهدأ: أعلم، والله أعلم يا ريما.. لكن يجب أن نكون أقوى من ذلك، يجب أن نفكر بعقلانية ونعمل على جمع الأدلة التي تدينه.. إذا واجهناه الآن بدون أي دليل، قد ينجو بفعلته ويهرب بطريقة ما..

- ماذا تقترح أن نفعل إذن؟

- سنبدأ بالبحث فورًا، سنتحقق من أي شيء يربطه بموت سارة، سوف أتعاون مع محقق خاص إذا لزم الأمر، وعلينا أن نتحرك بحذر، لأن زيادًا لن يتردد في استخدام العنف لحماية نفسه، أعرفه جيّدًا..

- أومأت برأسها مدركةً صواب كلامه.. ورددت: حسنًا، حسنًا، علينا أن نبدأ فورًا.

شعر عثمان ببعض الارتياح لأنه نجح في تهدءتها وإقناعها، ما أبشعه من شعور، أن تكون حبيبته المقتولة، وهو بأمس الحاجة لمن يربت على كتفيه، ولكنْ كان قدره أن يربت هو على كتف ريما! ... دقائق من الصمت، ثمَّ في هذه اللحظات المصيرية،

Scanned with CamScanner

شعر عثمان بهاتفه يهتزّ في جيبه تنبيهًا لوصول رسالة نصية، سحبه فورًا ونظر إلى الشاشة، رسالة جديدة من رقم غير معروف.. فتح الرسالة بقلق، وعيناه تتسعان وهو يقرأ النص: عثمان، إذا كنت تريد معرفة تفاصيل ما حصل، فتعال وحدك إلى المقبرة القريبة من بيتي بعد منتصف هذه الليلة، واحذر أن تتذاكى معي، كن وحدك هناك.. زياد.

نظر عثمان إلى ريما بقلق، وقرأ الرسالة مرة ثانية، ولكن بصوت عالٍ...

- عقدت حاجبيها بقلق وخوف: عثمان، يبدو أنه أخطر بكثير مما ظهر لنا، وقد يكون الأمر فخًا.. لا يمكنك الوثوق به..

- هزّ عثمان رأسه ببطء، مؤكدًا خطورة الموقف: أعلم، ريما.. لكن قد تكون فرصتنا الوحيدة لإيقاعه.. ولذا لن أفوّتها، ويجب أن أكون حذِرًا للغاية..

- شعرت ريما بالغضب والخوف في آن معًا: لا يمكنني السماح لك بالذهاب وحدك، إنه خطر جدًا!

- اصطنع عثمان شيئًا من الثقة: لا تقلقي، هذه المخاطرات من جوهر عملي، وأنا معتاد على أمثالها، سأذهب وحدي كما طلب، لكن سأترك لك تعليمات تفصيلية حول ما يجب فعله في حال لم أعد!

- نظرت إليه ريما بعيون مليئة بالقلق، وهي تعلم في داخلها أنه مصمم على المضي قدمًا: حسنًا، لكن لا تثق به مطلقًا، وإذا شعرت بأي خطر ابتعد فورًا..

- أومأ عثمان برأسه، وأخذ نفسًا عميقًا: سأكون منتبهًا لكلّ شيء، اطمئني.. وسأعمل على أن يكون لدينا خطة بديلة، هذه فرصتنا لمعرفة الحقيقة، والانتقام لسارة، لن أفوّتها مهما كان.

Scanned with CamScanner

وصل زياد إلى المقبرة القديمة والقريبة من بيته.. والمكان القريب في اسطنبول هو ما يستغرق وصولك إليه دون السّاعة! ذاك أنها مدينة ضخمة حدّ الفزع.. كانت المقبرة بأشجارها العتيقة والعالية المتشابكة بحيث تحجب ضوء القمر، ممتدةً أمام زياد كلوحة حزينة تجسد معاناة الإنسان الحيّ قبل الميت.. يسير فيها ببطء تحت سماء ملبدة بالغيوم، يلامس الهواء البارد وجهه، ويلسعه شبح الظلام الدامس، ويزيد من رهبة الموقف.. يظهر التعب جليًا على ملامحه، وكل زفرة تخرج منه تحمل معها جزءًا من روحه المتعبة.. يمشي وذاكرته لا تختلف عن هذه المقبرة شيئًا فهي الأخرى ليست إلا مقبرة!... أطرافه ترتجف، ينظر إلى شواهد القبور، يقرأ التواريخ، يقف عند بعضها متأملًا، ثمّ يغادر لغيرها في مشهدٍ يبعث على الرهبة والصمت.. بقي وقت على مجيء عثمان.. وقف زياد بين القبور، وأشعل سيجارته متجاهلًا حرمة الموتى.. لقد جاء إليهم مرتديًا ملابسًا أنيقة تعكس ذوقيًا لا تتمتع دواخله به في الحقيقة!

بدلة سوداء مصنوعة من أفخر أنواع الأقمشة، فُصّلت على مقاس كتفيه بدقّة لا متناهية، والقميص الأبيض الناصع يبرز تحت الجاكيت، وربطة عنق حريريّة بلون داكن يكمل مظهره الرفيع، ويمنحه مثالية عالية.. حذاؤه الجلدي اللامع يعكس الضوء الخافت من القمر، وكل خطوة يخطوها تصدر صوتًا خافتًا على الأرض الرطبة.. حتى أزرار أكمامه الفضية كانت تلمع في الظلام إذا مسّها ضوء القمر بشكلٍ أو بآخر، وباختصار.. حظي زياد هذه الليلة بلمسة من الفخامة قلّ نظيرها، عززت من مظهره الكلاسيكي.

وقف بتلك الأناقة وذلك البذخ والإسراف البيّن، يُقلّب بصره بين شواهد القبور.. ويرفع رأسه نحو السماء الملبدة بالغيوم، ثمّ يعود ويهوي به إلى الأرض.. هكذا حتى وجد نفسه يتحدث إلى الموتى بصوت جهوريّ.. مليء بالحزن واليأس والعاطفة:

أيها الموتى، أنتم محظوظون إذ نبذتم هذا العالم خلف ظهوركم، وانتهت معاناتكم معه إلى الأبد.. لا أعلم.. لا أعلم، ربّما بدأتم معاناةً أخرى! لا يعنيني كثيرًا.. لكن على

Scanned with CamScanner

الأقلّ أنتم الآن في عالم الحقيقة أيًا كانت.. وأُخمّن أن أحدًا منكم لا يريد العودة
Telegram:@mbooks90
إلى هذه الحياة، وهذا الجحيم اليومي.. ولهذا كنت رحيمًا ببعض مَن عانوا هنا.. فأخذت بأيديهم إلى هذه الراحة الأبدية.. لأحررهم من هذا العذاب الذي لا يطاق!... أيها الموتى، انظروا إليّ الآن.. وستدركون حجم الحظّ الذي تمتعتم به إذ فارقتم هذه الدنيا التي تحمل الكثير من أمثالي! وبدأ يقهقه ضاحكًا من نفسه.. ثم عاد بعدما أخذته سعلة خفيفة: أيها الموتى.. سأحارب حتى النهاية.. لا تجيبوني بشيء، صمتكم هو الجواب.. أغمض عينيه قليلًا، وتخيّل وجوه الموتى، مُستشعرًا صمتهم الذي يعبر عن فهم عميق لأحزانه: لقد تحررتم من معاناة الحياة الدنيا، أنتم أحرار جدًا أيّها الموتى!

أنهى زياد خطبته الرديئة، ثمّ تلفّت ببطء عن يمينه وشماله مترقبًا قدوم عثمان، ومستثقلًا برود الوقت، لم يلبث كثيرًا على هذا الحال.. ها هو عثمان يتقدم نحو المقبرة بخطوات ثابتة وهادئة، مرتديًا معطفًا أسود طويلًا يبلغ أسفل ركبتيه، مع ياقة مرتفعة تحمي رقبته من البرد.. أسفل المعطف يرتدي بدلة داكنة أنيقة، وربطة عنق سوداء، مما منح مظهره هيبةً وغموضًا.. سمع زياد بوضوح خُطى قدميه مع أنّها أشبه بالهمس.. اقترب عثمان من وسط المقبرة، هناك حيث كان زياد ينتظره.. توقف للحظة، واستنشق الهواء البارد مستشعرًا ثقل اللحظة.. قلّب عينيه بين القبور بحثًا عن زياد، كان ذلك مرافقًا صوت الرياح التي تتلاعب بالأوراق اليابسة على الأرض.. كان زياد على مقربةٍ منه.. كان أوّل ما لفت نظر عثمان أنّ زيادًا يرتدي كفوفًا جلديّة سوداء، وفي يده اليمنى حقيبة جلديّة سوداء أيضًا، قد لا يبعث هذا الأمر على الريبة في مواقف وأماكن مختلفة، لكنّه في هذا الموقف، أثار الشكوك لدى عثمان، ودفعه للحذر بشكلٍ أكبر، ربما أقنع نفسه أنّ الكفوف التي يلبسها زياد كانت بسبب البرد، وبهذا كانت الحقيبة وحدها باعثه على الشك.

لم يتوقّع عثمان أن أحدًا يراقبه من بعيد.. هناك حيث كانت ريما تقف! ... تبعته بخفة وهدوء.. متسللةً بين الظلال والأشجار الكثيفة، جاءت وهي ترتدي معطفاً زيتي اللون يغطي معظم جسدها، وشالًا أسود يلتف حول رأسها ليخفي ملامحها.. حتى تبدو للناظر في الظلماء مجرد طيف يتحرك بهدوء في سواد الليل، ولتراقب

CamScanner ب ةضوحمم ضوحها

المشهد بصمت، كانت قريبة بما يكفي لتسمع أصواتهما، وبعيدة بما فيه الكفاية لتظل غير مرئية.. توارت خلف شجرة ضخمة، وهي تحمل بداخلها مزيجًا من الفضول والخوف... ما أن رأى عثمانُ زيادًا حتى تقدم صوبه.. وحين وقف في مواجهته، ألقى نظرة سريعة على القبور المحيطة.. ثمّ قال: نحن هنا مجددًا يا زياد، تحت جنح الظلام.. ولكنها المرّة الأولى التي تجمعنا مع الأموات!

- ابتسم زياد ابتسامةً باهتة، ونظر عن يمينه وشماله بطريقة دراميّة، ثمّ عاد بنظره إلى عثمان: لولا الظلام لما عرفنا النور، ولولا الضياع ما أدركنا لذة الوصول... لن أطيل عليك كثيرًا، أعرف.. أعرف أنك متلهف لمعرفة تفاصيل ما حدث..

هنا تحركت ريما محاولةً ألا تصدر أي صوت.. وعيناها تتبعان بتركيز كل حركة، تريد أن تسمع بوضوح أكثر، وهي تعلم أنها لو اكتشفت، فإن وجودها سيثير الشبهات، ويُغير مجرى الأمور، لذلك بالغت في الحرص أن لا يشعرا بها.

تابع زياد حديثه بنبرةٍ هادئة ولكن مشحونة بالتوتر: عثمان.. أنا هنا اليوم لأعترف، لقد فكرت طويلًا.. ووجدت أن هذا هو الحل الوحيد.. سأعترف بكل شيء، لكن لدي شرط..

- ابتسم عثمان بشيء من الاحتقار: مجرم وتشترط أيضًا؟

- ليكن.. قالها زياد بهدوء، سكت بعدها سكتةً خفيفة، ثمّ أكمل: أعلم أن الأمور وصلت إلى نقطة لا يمكن الرجوع منها.. ويجب علينا أن نواجه الحقيقة.. أكرر.. إنني مستعد للاعتراف بكل شيء، سأعترف ليس فقط بقتل سارة، وبقتل غيرها أيضًا..

- قاطعه عثمان بصوت منخفض: كنت واثقًا من كونك مجرمًا عتيقًا، ولا يمكن لمثلك أن يكون مجرمًا لمرة واحدة فقط!

- لم يكترث زياد بما قاله عثمان، ومضى كأن لم يسمع شيئًا: هل تريد معرفة شرطي؟

- هزّ عثمان برأسه: قل، ما هو؟

Scanned with CamScanner

- اقترب زياد منه خطوة، وقال بنبرة حادة: أن تعترف أنت أيضًا.. أنك مجرم مثلي، بل وأخطر مني!

- لا إراديًا التفت عثمان للجهة الأخرى بحيث أعطى ظهره لزياد، غير مدرك خطورة ذلك، ربما كانت ردّة فعل للجسد خارجة عن المنطق، وقال بصوتٍ مرتفع: زياد أنت تعرف جيّدًا أنني رجلٌ شريف، والبعد بيني وبين الجرائم هو البعد بين المشرق والمغرب، فلا تضيّع وقتنا في ترّهاتك هذه!

- بهدوء ضرب زياد كتف عثمان من الخلف ضربتين بأطراف أصابعه: انظر في وجهي يا عثمان، ضع عينك في عيني.. هل مباشرة الجريمة بنفسك هو ما يجعلك مجرمًا؟ التسهيل لها لتقع، والتغاضي عنها لمصالح شخصية، أليس جُرمًا؟

- التفت إليه عثمان وهو يقول في نفسه: يا له من وغد! ... ماذا تريد زياد؟ قل من الآخر ودعك من التلميح..

كانت المفاجأة كالصاعقة جعلت الزمن يتوقف في عيني ريما.. شعرت بأن الأرض تدور من حولها بسرعة جنونية، مع أنّها ظلت واقفة كتمثال عاجز عن الحركة.. لم تصدق ما سمعته من زياد.. بدا الأمر أمامها كالخيال، ما قاله زياد لم يكن من فراغ، أحسّت لدقائق أنها أمام مجرمَين، وأحدهما يريد الإطاحة بالآخر ليس إلا تخلصًا منه لأسباب يعلمانها هما وحدهما، وسارة لم تكن إلا حجّة لكليهما.. وربما كان موتها نوعًا من أنواع تصفية الحساب بينهما! مَن يعلم؟! ... كلّ هذا مرّ سريعًا ببالها وهي ترى وتسمع من حيث لا يعلمان.. شعرت بأن قلبها يكاد ينفجر من شدة الدهشة، لقد دخلت عالمًا لم تكن تعرف بوجوده.. لمعت أعينها بدموع لم تستطع حبسها.. أحست بالخوف، بالحزن، بالاضطراب، وبنوع من السكينة الغريبة في آن واحد! مشاعر متعددة قد لا توصف بشكلها الدقيق، ثمّة نوع من الأحاسيس لا يمكننا الحديث عنه، إننا نحسّه وحسب... أخذت نفسًا عميقًا، واستجمعت أعصابها، لتركز فيما يقولانه بشكل أكبر، أصبحت روحها إذ ذاكَ أخف، ورأت أنها مستعدة الآن لمواجهة الحقيقة مهما كانت مؤلمة... هنا كان النقاش يزيد حدّةً بينهما، وازداد صوت زياد قوةً وإصرارًا: لم يعد الهروب خيارًا يا عثمان.. لقد حان الوقت.. إن اعترفنا معًا، فإننا على

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

الأقل سنكون صادقين مع أنفسنا ومع العالم!... أمّا أن أدخل السجن وحدي، وأنت تنعم بالحرية، فهذا عين الظلم! ... إن كنت شريفًا بحق عليك أن تعترف بالحقيقة، لا أن تتظاهر وتتبجح بها بين الناس، وأنت أعدى أعدائها! تستُرُك على جريمة قتل المحقق أوموت، وجريمتي قتل زينب ورامي بأمر الزعيم، أليس هذا إجرامًا، انظر في عيني يا عثمان، أقول لك هذا مع علمك أن دلائل قتل زينب ورامي كلها تشير إليّ، وإن كنت أنا بنفسي لا أعرفها إلا منامات أفسدت عليّ حياتي، فماذا عنك؟

حادّةً كالسكاكين كانت كلمات زياد.. انفجر عثمان أمامها كبركان خامد منذ آلاف السنين وثار فجأة.. احمرّ وجهه بشدة.. واشتعلت عيناه بنيران من الغضب... تقدم خطوة نحو زياد، وصرخ بصوت يزلزل الصمت الثقيل المحيط بهما: كيف تجرؤ؟! كيف تجرؤ على قول ما قلت، فعلًا، فعلًا يا زياد.. المجرم يرى جميع الناس مجرمين مثله!

خرجت هذه الكلمات من أعماق قلبه، محملةً بكل ما كتمه طوال هذه السنوات.. اقترب منه أكثر، حتى كاد أن يلمسه، ويده ترتجف من شدة الانفعال، مع هذا قال بصوت خافت: زياد.. هل ستعترف بقتل سارة، وتترك عنك اللف والدوران؟ أمْ أمضي في سبيلي وتنتظر أنت أسوأ مصير لك؟

لم تتبين ريما ما قاله عثمان في هذه اللحظة، وبدا لها زياد غير قادر على الرد، بينما وقف زياد صامتًا لثوانٍ.. أمّا عثمان فقد شعر بأنه قد تحرر من عبء جبلٍ كان يرزح تحته طوال حديث زياد المُستفز.

الهروب من الحقيقة ليس أمرًا غريبًا، بل هو جزء أصيل من الطبيعة البشرية، وتتجسد صعوبة مواجهة الحقيقة في التحدي الذي تفرضه هذه الحقيقة على السلام النفسي الهش الذي يبنيه الإنسان حول نفسه.. وقد يتطور الأمر عند البعض ليكون مجرد التفكير في مواجهة الحقيقة أمرًا مثيرًا للرعب في نفسه، ولذا يفضل الكثير من الناس البقاء على قيد الوهم طيلة أعمارهم... الوهم، رغم هشاشته، يمنحهم شيئًا من الراحة الزائفة، ويوفر لهم بناء عالمٍ يمكنهم التحكم فيه وتشكيله بما يتناسب مع رغباتهم وأحلامهم.. لا أحد يحبّ أن يكون ضعيفًا، والاعتراف بالأخطاء أمام النفس

Scanned with CamScanner

أو المجتمع يعني قبول المسؤولية.. وقلّما تجد أحدًا لديه الاستعداد التام ليكون مسؤولًا بحق، تلك مهمة ليست بالسهلة.. الاعتراف مؤلم، ولا شيء أهون من التبرير الدائم للنفس، والبحث عن الأعذار لكل تصرف خاطئ، وإلقاء اللوم على الظروف أو على الآخرين ... أيضًا.. الخوف من مواجهة الحقيقة ينبع من خوفنا من التغيير، فالحقيقة تتطلب منا أن نواجه عواقب أفعالنا.. من أجل هذا نفضّل الهروب... ومع ذلك، فإن الهروب من الحقائق أيضًا له ثمنه.. فأن تقضي عمرك هاربًا، يعني ذلك أنك لن تعرف معنى للاستقرار.. وأنك سوف تبقى في حالة مستمرة من التعب، كلما طال الهروب، زاد العمر ثقلًا، حتى يصبح الإنسان عاجزًا عن فعل أي شيء.. مسكين مَن يظنّ الهروب حلًا، إنه لا يحل المشكلة، بل يؤجلها، وغالبًا ما يزيد من تعقيدها.

لقد رسم زياد بما قاله دائرةً من نار حول عثمان، لم يكن مستعدًا لها، ومع هذا أظهر عثمان ذكاءً في التملّص منها.. ولكن هيهات! إنه يواجه زيادًا، أستاذ المناورة والمكر، الذي لم يعرف العالم أمهر منه في قلب الطاولة على الخصم.. لولا أنه أراد لهذا الحوار أن ينتهي كما خطط، لباغت عثمان بما يُلجمه من عظيم الحُجّة.. لكنّه اختار الاستمرار بما رسم لهذه الليلة.. لا بأس، لنضع هذا الأمر جانبًا، قالها زياد بهدوء وأشعل سيجارةً، عبّ منها مرّةً أو مرتين ونفخ دخانها بينهما، ثمّ قال:

- على جميع الأحوال، أنا قررت أن أُنهي هذا الجحيم الذي أعيشه، سواءً قبلت أن تخطو معي هذه الخطوة أم أحببت أن تبقى على الضفّة الأخرى، ضفّة الجبناء، الذين يفضلون مواجهة الموت على مواجهة الحقيقة.. أحبّ أن أخبرك أنني مستعد، ولكن لي طلب منك هذه المرة وليس شرطًا، فإن قبلت به، سرنا معًا فورًا إلى النيابة وقدمت اعترافي، وإن لم تقبله.. أيضًا سوف أذهب معك وأُقدم اعترافي بشكل رسمي.

- تأمله عثمان لحظات ثمّ قال: ما هو طلبك؟

تُراقب ريما بصمت وقلق الحوار الملتهب بينهما.. أحسّت أنّ هذه الليلة ستكون البداية لنهاية مؤلمة، ولكنها حتميّة من أجل الشفاء!... ظلال الأضواء المتسربة من هنا وهناك كاسرةً حدّة الليل كانت تلف المكان، والريح الباردة تعصف بأوراق الشجر،

Scanned with CamScanner

وكأنها تشارك في زيادة توتر الموقف! ... تتابع ريما بكلّ ما أوتيت من تركيز ما يظهر على وجهيهما من تعابير.. بدا عثمان عصبيًا بأكثر مما يتوجبه الموقف، وأكثر كلامه كان قائمًا على الصراخ، أما زياد، فقد بدا أكثر هدوءًا، وبينهما.. كانت الحقيقة القاسية تتجلى بكل وضوح ووجع... في الواقع، ريما - على رغم ما تشعر به من خوف - هي التي كانت تواجه الحقيقة في هذه الليلة بكلّ شجاعة.

تقدم زياد نحو عثمان خطوة.. لا يفصل بينهما الآن إلا شبر من الأرض.. رفع زياد حقيبته اليدوية، وفتح السحّاب بهدوء، لحظات.. وإذا به يُخرج منها تحفة ثمينة، قطعة فنية نادرة.. جميلة وفاخرة جدًا... «خوذة إيميسا» إحدى خوذ فرسان الرومان التي تعود إلى أوائل القرن الأول الميلادي، وتُعرف كذلك باسم «خوذة مدفن حمص الملكي» الخوذة مصنوعة بالكامل من الحديد ومغطاة بطبقة من الفضة، وتتكون من قسمين: القسم العلوي وهو غطاء للرأس تظهر عليه آثار خيوط قماشية كانت تغطيه، ويحيط به إكليل على شكل أوراق غار صغيرة، يليه غطاء للرقبة من الخلف، مزخرف بزخارف نباتية، أما القسم الآخر فكان غطاءً للوجه، صُنع بعناية ليُظهر التفاصيل الحقيقية للوجه، وتدل السمات الفنية لهذه الخوذة على أنها ذات قيمة عالية.. يعود تاريخ العثور عليها بحسب تصريحات الشرطة السورية إلى عام 1936م، وعثر عليها في المدفن الملكي، أمّا القبر الذي عُثر على الخوذة فيه فيعود إلى الأسرة الملكية التي حكمت إيميسا، - حمص حاليًا - في القرنين الأول قبل الميلاد والأول الميلادي.. كانت أعمال التنقيب تجري آنذاك تحت إشراف هنري سيريغ والأمير جعفر عبد القادر الحسني ودانييل شلومبرغر، بعد اكتشافها تم ترميم الخوذة بدقة في المتحف البريطاني، ويُفترض أن تكون محفوظة الآن ضمن مجموعة المتحف الوطني في العاصمة دمشق.. فكيف وصلت إلى زياد؟ ولماذا أحضرها إلى هنا؟ ... نظر عثمان.. عرفها فورًا، لقد رآها مرّةً في مكتب الزعيم، وربّما سأله عنها.. تأملها في يد زياد للحظة، وزياد يقلبها بيده دون أن يقول شيئًا.. ثمّ بادره: ما هذه؟

- خوذة أثرية، تُسمى خوذة إيميسا.. وهي تساوي ثروة كبيرة، لو قضيت خمسين عمرًا قد لا تجني بعضها!

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

- ولماذا جلبتها معك؟ ما شأني بها؟ ... قال عثمان ذلك، مستغربًا بحق.

- ابتسم زياد ابتسامة سخرية، ومدّها لعثمان: أريدك أن تحتفظ بها نيابةً عني.. سأعترف بكل شيء، وستكون هذه القطعة أمانة لي عندك، سوف تتعهد لي الآن بحفظها من أي سوء، وسوف تتعهد لي أيضًا أنك ستمثل أمام المحكمة وتطالب بتخفيف الحكم عني لتعاوني في التحقيق.. حتى لو حُكم علي بالمؤبد، سأخرج في النهاية، وستكون هذه التحفة ملكي.. هل أنت موافق؟

- ما الذي يجعلك متأكدًا من أنني سأعيدها لك عندما تخرج من السجن؟ قالها عثمان متعجبًا وهو يتناولها من يد زياد بحذر ويتأملها..

- ابتسم زياد، وانفرجت أسارير وجه: أثق بك، فبالنهاية نحن نعمل في مجالٍ واحد، تبعًا لرجلٍ واحد.. وأخذ يقهقه بالضحك مما أثار عثمان، لكنّه كتم غيظه، وطلب الحقيبة من زياد ليضع التحفة فيها، حتى ينطلقا معًا إلى القدر المحتوم بعد ذلك.. لم يتردد زياد، وأعطاه الحقيبة فورًا.

ريما التي سمعت من بعيد كلّ شيء، تنظر الآن إلى عثمان بعينٍ جديدة، الآن هو بغير قناع، وزياد كذلك.. أحسّت ريما في هذه اللحظة بفقدان ثقة شامل اتجاه الوجود بأسره! وبفقدان الأمان، ربّما كانت الأقنعة توفر لها شعورًا بالراحة والأمان.. والآن قد زالت، صدمة عميقة.. واختلاط عشوائي في المشاعر، رعب، قلق، شعور كبير بالزيف والخداع.. في الوقت ذاته، تملّكها شعور بالتحرر.

وضع عثمان «خوذة إيميسا» في الحقيبة، بعد أن بقيت في يديه قرابة دقيقتين.. وحين أغلق سحّاب الحقيبة عليها، شعر بوخز خفيف في يديه، يكاد لا يُحسّ، عيناهُ لم تفارق زيادًا أثناء وضعه التحفة في الحقيبة، فابتسامة زياد الغريبة وقهقهته قبلها أقلقتاه.. حينَ أحسّ بالوخز يشتد سريعًا، نظر إلى زياد بعيون متسائلة، بينما بدأ السمّ عمله بالانتشار السريع جدًا في جسده، لقد وقع في الفخ غير مدرك أنّ الخوذة كانت تحتوي على سم قاتل.. واجهه بيديه العاريتين! ... بدا زياد في حالة ارتياح غريبة ونادرة.. يعلم أن السم سيأخذ تأثيره في غضون دقائق قليلة.. نظر إلى عثمان وقال بهدوء: عليك أن تشكرني يا عثمان.. لقد أتحت لك الآن اجتماعًا عاجلًا بسارة،

Scanned with CamScanner

أعلم حبّك الشديد لها!

أخذت ملامح الألم والخوف تظهر على وجه عثمان بسرعة ملحوظة.. دوار خفيف، ثم تسارع في ضربات القلب، أدرك أن شيئًا ما ليس على ما يرام.. حاول أن يواجه زيادًا بعيونه على الأقلّ، إذ شعر بلسانه يرتبط ولا يسعفه في قول شيء.. ولكن الألم لم يُمهله.. ينظر زياد إليه بلا رحمة، يُتابع حركاته الأخيرة بترقب بارد.. بل يظهر على ملامحه شيء من الاستمتاع! ... دقائق قليلة فقط من الحياة أمام عثمان، ومع مرور كل ثانية كانت مشاعر المتعة لدى زياد ترتفع.. لقد خطط لكل شيء بعناية وحذر شديدين، لضمان أن يظل سره مظلمًا ولا يصل إلى ريما!

مسكينٌ أنتَ يا زياد! ها هي ريما تخرج من خلف الشجرة وهي تصرخ: لا.. بأعلى صوتها! ... وها هو زياد تصيبه الفاجعة كما لم تصبه من قبل حين رآها.. وها هو عثمان يسقط على ركبتيه محاولًا التشبث بآخر أنفاسه، ركضت ريما مسرعةً إليه، طمعًا بأن تدركه، ولكن هيهات.. ما أن وصلت إليه إلا خرّ على الأرض صريعًا، ولفظ آخر أنفاسه.. جحظت عيناه، وسال ريقه على تراب المقبرة ... حين وقفت أمامه ريما، فقدت شعورها بقدميها فورًا، وخرّت على ركبتيها في منظرٍ تقشعرّ لهُ الأبدان.. ممسكةً بيده، والدموع تتدفق من عينيها.. تناديه بصوت متهدج: عثمان! عثمان!... وتهزّه من كتفه بشدّة، وليس ثَمّ مُجيب.

Scanned with CamScanner
تم المسح الضوئي بـ CamScanner

يضع فوهة المسدّس على رأسه

ويقتُلُهم جميعًا!

هايكو الحرب - ترجمة آزاد اسكندر

Scanned with CamScanner
تم مسحه ضوئيا بـ CamScanner

القاضي ينطق بالحكم:

باسم العدالة والقانون، وبعد مراجعة كافة الأدلة، والنظر في القضية رقم 29891، لعام 2024... وبحسب قائمة العقوبات التابعة لقانون الجرائم في الجمهورية التركية، تبين لأعضاء هيئة المحكمة الموقرين أن المتهم ارتكب سلسلة من الجرائم البشعة.. واعترف المتهم بجرائم قتل الآتي أسماؤهم: زينب، رامي، سارة، وأخيرًا عثمان وريما. كانت هذه الجرائم تحمل في طياتها الكثير من القسوة والعنف، مما جعل المحكمة تنظر إليها ببالغ الجدية والصرامة، وعليه فقد حكمت المحكمة على المتهم زياد عبّاس بالسجن لمدة 369 سنة، منها 127 عامًا مع الأعمال الشاقة، وإن هذه العقوبة برأي أعضاء هيئة المحكمة تتناسب مع حجم الجرائم والآثار النفسية القاسية التي خلفتها على أهالي الضحايا، وعلى المجتمع كاملًا، ومع ذلك، وبعد الاطلاع على التقارير الطبية الصادرة عن وزارة الصّحة بتشخيص المتهم بمرض خطير يُعرف باسم «وهم النوم واليقظة» ويُصنّف تبعًا للأمراض العقلية والنفسيّة معًا، ولمّا اطّلعت المحكمة أيضًا على الجهد الكبير الذي قام به فريق الأطباء، وذلك بسبب الصعوبة البالغة في تشخيص هذا المرض لندرة وقوعه، رأت المحكمة ضرورة أخذ حالة المتهم الصحية بعين الاعتبار، وبعد مرافعة المحامي «رضا أوموت» ومداولة الحكم بين الأعضاء، اتفقت الهيئة على أنّ هذا المرض يُخرج المتهم عن وعيه تمامًا، فيتصرف حال اليقظة بغير إرادة منه، وبغياب تام عن الحقيقة، فالجسد مستيقظ، والعقل نائم! وعليه قررت المحكمة تخفيف الحكم على المتهم زياد عبّاس إلى ثلاث سنوات، على أن يتمّ بعد انقضاء فترة العقوبة ترحيل المتهم إلى بلده الأم.. وإن العدالة تأخذ بعين الاعتبار ليس فقط العقوبة، بل أيضًا العلاج والرعاية اللازمة للمرضى النفسيين والعقليين، فنأمل أن يجد المتهم العلاج المناسب في المصح العام خلال قضاء فترة حكمه، صدر الحكم غير قابل للنقض، ويُرفع للجهات المختصة من أجل التنفيذ.. رفعت الجلسة.

وهم النوم واليقظة هو اضطراب نادر، يتميز بعدم قدرة المريض على التفريق بين حالة اليقظة وحالة النوم.. يبدأ الأمر كما يحصل للجميع، حين يمشي إنسان ما في نومه، أو يتحدّث ويضرب بيديه الهواء وهو على فراشه، وشخيره يملأ المكان..

Scanned with CamScanner
CamScanner تم المسح الضوئي بـ

ولكنه في حالات نادرة جدًا يتطور، وقد يحصل العكس، فيكون مستيقظًا إلى جانبك، وتتحدثان، في الوقت الذي يكون فيه الشخص نائمًا، ويظهر له الواقع كأنه حلم، مما يجعله غير متحكم بتصرفاته لغياب الوعي، فيعيش المريض في حالة من الضياع بين الواقع والخيال، بطريقة تجعل من الصعب عليه تمييز الحدود بينهما.. ومن غرائب هذا المرض أنه لا علاقة مباشرة له بالهلوسات، ورؤية أشخاص لا وجود لهم وبناء عوالم موازية غير حقيقية، كما يحصل عادةً بالنسبة لأغلب الاضطرابات المتعلقة بمرض الفصام، أمّا أعراض «اضطراب النوم واليقظة» فأهمها: الارتباك الزمني، إذ يجد المريض صعوبة في معرفة الوقت الحقيقي، ويشعر بأنه يعيش في أوقات مختلفة في نفس اللحظة.. كذلك من أعراضه: التداخل الحسي، وعدم التمييز بين الوهم والحقيقة، ومن أشدّ ما يفعله هذا الاضطراب بالمريض هو جرّه إلى الاكتئاب الحاد نتيجة فقدان السيطرة على الإدراك والوعي، ويفقده القدرة على إدارة تصرفاته بعقلانية.

بعد النطق بالحكم، ارتسمت على وجه المحامي رضا أوموت ابتسامة خبيثة! تنم عن انتصار شخصي أكثر من مجرد نجاح مهني.. كانت زوايا فمه مرفوعة بشكل دقيق، وله نظرات تعكس سعادة داخلية عميقة.. من الجهة أخرى، خرج زياد من قاعة المحكمة محاطًا بحراسة مشددة، وهو يبدو منهكًا ومشتتًا.. كانت خطواته بطيئة ومتثاقلة، وبينما هو كذلك.. نظر إليه رضا نظرة مليئة بالخُبث والتفاؤل الزائف! وفور وصول زياد إلى باب المحكمة الخارجي، كانت هناك سيارة إسعاف خاصة لنقله إلى المصح العام للأمراض النفسية.. قام الحراس بمساعدته في الصعود إلى السيارة، حيث استلقى على النقالة بملامح متعبة ومتحطمة.. ثم أغلقت الأبواب وانطلقت السيارة بهدوء، تاركةً خلفها ضجيج المحكمة وصدى الحكم..

وقف رضا بعنفوان وهو يرى سيارة الإسعاف تتحرك، يحدّث نفسه مخاطبًا زياد الذي لا يسمعه: هذا لتعرف يا زياد أننا نحمي كل الذين يقدمون لنا خدمات جليلة، ولا نتركهم وحدهم حتى ولو لم يعد منهم فائدة، تذكر يا صديقي أن هذا هو ما نفعله دائمًا لمن يخدم مصالحنا.. ومضى بابتسامته الخبيثة التي لم تفارقه، مؤكدًا لنفسه في نفسه، أن العدالة بالنسبة له ليست سوى لعبة يعرف قواعدها جيدًا.

Scanned with CamScanner

في سيارة الإسعاف لم يفارق رأس زياد ما حصل في المقبرة تلك الليلة.. فبعد أن سقط عثمان ميتًا بفعل التحفة المسمومة التي أخذها منه، وحصل ما حصل.. اقترب زياد ببطء من ريما وهي تبكي على عثمان بلا جدوى.. حالة انهيار كاملة تمرّ بها ريما، وقف ينظر إليها من الأعلى بوجهٍ شاحب، تبدو عليه علامات الذهول والارتباك معًا... ريما، ناداها بصوت هادئ، لكنّ نبرته كانت محملةً بالتهديد الواضح، رفعت رأسها ببطء لتنظر إليه، بعينين متورمتين من شدة البكاء، وقبل أن تتمكن من الرد أو التحرك، أخرج من جيبه شيئًا صغيرًا لا يمكن رؤيته بوضوح في الظلام.. كان جهازًا إلكترونيًا بالكاد يُرى في يده.. وجهه إلى رأسها، وضغط على زر في الجهاز الصغير، فأطلق موجات صامتة من الطاقة.. لم يكن تأثيرها فوريًا، لكن ريما بدأت تشعر بدوار شديد وألم غامض ينتشر في جسدها.. حاولت الوقوف، لكن قدميها لم تستجيبا، شعرت بوهن شديد يجتاح عضلاتها، وأحسّت بقوتها تتلاشى تدريجيًا.. زياد وبخبث لا يوصف جلس القرفصاء إلى جانبها ونظر في عينيها مباشرة، يراقبها وهي تذبل شيئًا فشيئًا.. اقترب برأسه من رأسها: فعلت ما بوسعي حتى لا نصل إلى هذه النقطة، واشترطت على عثمان أن يأتي وحيدًا، ولكن للأسف.. لقد أجبرتِني على هذا، وما كنت أريده!

بدأت ريما تُحسّ بالاختناق، بدا الهواء المحيط بها وكأنه تحول إلى مادة لزجة تمنعها من التنفس.. أرادت أن تقول شيئًا، وربّما أرادت أن تصرخ، أن تطلب المساعدة، لكن صوتها خذلها وتحول إلى همسات مختنقة ومتقطّعة.. مد زياد يده الباردة إلى وجنتها المشتعلة، في مشهد درامي، كأنما يودعها بحنان زائف.. لم تلبث ريما كثيرًا، ولم يُمهلها التعب، كان الألم لا يطاق، والعجز عن فعل أي شيء كان أكثر قسوة.. بقيت هناك، تلتقط أنفاسها الأخيرة، بينما يقف زياد متأملًا القبور من حوله بهدوء يبعث الاشمئزاز، لفظت أنفاسها الأخيرة بصعوبة.. وظل زياد واقفًا للحظة، يتأمل جثتيهما بسكون تام...

دائمًا ما يكون زياد مستعدًا، ولم يكن يعتمد على طريقة واحدة للقتل، إنّه يملك ترسانة متنوعة من الأدوات والأساليب التي تتيح له تنفيذ جرائمه بطرق

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةحوسمم

غير متوقعة.. لا يقتصر الأمر على الأدوات اليدوية فقط، فزياد يجيد استخدام التكنولوجيا بمهارة، كما اعتاد بسبب عمله في تهريب البشر أن يحتفظ بقنابل دخانية صغيرة تحتوي على غازات مهدئة أو مخدرة، يستخدمها في الحالات التي يحتاج فيها للهروب بسرعة دون ترك أثر.. إنّه قاتل محترف سواء في النوم أو اليقظة.. فإن كان قتله زينب ورامي وسارة بسبب مرضه، فقتله عثمان وريما لم يكن كذلك.. كانت لديه خطة بديلة دائمًا لكل سيناريو، وكل أداة جريمة لها مكانها الخاص في ترسانته المنظمة بدقة... لم يكن ينوي قتل ريما في هذه الليلة، وذنبها أنها كانت في المكان غير المناسب والوقت غير المناسب برأيه! ... كان باستطاعته أن يدفنهما بسرعة في قبر واحد وأن يغادر المكان.. لكنّه جلس إلى جانبهما واتصل بالشرطة، وما هي إلا دقائق قليلة أصبح بعدها زياد مكبل الأيدي والأقدام في سيارة الشرطة..

بعد حكم القاضي، بقي زياد في المستشفى قريبًا من ستة أشهر، استطاع إثرها الهرب.. لم يبتعد كثيرًا، ذهب إلى محلّ التحف، منهكًا متوترًا قلقًا، تسيطر عليه فكرة مشؤومة لم يستطع التخلص منها، وهي باختصار: قتلتهم ليرحلوا، فلماذا هم أحياء في عقلي! إنّه عذاب لم يستطع التخلص منه، إنهم يلاحقونه ليل نهار، وحين هرب من المصح لم يفعل ذلك بحثًا عن الحياة كما قد يتوهّم البعض، لا.. جلس خلف مكتبه في محلّ التحف، وفتح أحد الأدراج، أخرج مسدسه الصغير.. وقام بوضع الرصاصة في بيت النار، ووجه المسدس إلى رأسه، نظر أمامه فرأى زينب تحمل طفلتها، ورامي يخرج من قبره في غابات بلغراد كما تخرج شجرة من الأرض، وريما تقهقه بقوة، وعثمان ينظر إليه بغضب، وسارة تشتمه وتبصق في وجهه.. رأى أناسًا آخرين كأنهم في مركب يسير في البحر، كلهم يشتمونه ويتوعدونه بسوء المصير.. بدا له أنهم قتلاه الذين لا يعرفهم! كان مشهدًا مؤلمًا، ولم يكن لديه ثمّة حلّ للنجاة من هذا العالم الذي يطارده إلا أن يذهب إليه بنفسه! ربما استطاع أن ينتقم منهم مرةً أخرى... وضع إصبعه على الزناد، ألصق المسدس برأسه.. وقتلَهم جميعًا.

تمّت

Telegram:@mbooks90

اسطنبول - تموز - 2024

Scanned with CamScanner
CamScanner ب ةئوضم